المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾(١).

وقال عز من قال : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾(٢).

السلام على اللذين قدموا انفسهم في سبيل انقاذ العراق .

السلام على الشهداء في طريق العز والكرامة والعدل والاستقامة والحرية والإخلاص .

السلام على شهداء الحركة الإسلامية الذين ادركوا ضرورة تغير النظام لتفتح افاق الحياة للشعب العراقي ، السلام على المرجعية الدينية التي عملت على تقويم بناء الدولة العراقية منذ تأسيسها وفي كل محطاتها .

السلام عليكم أيها الاخوة والأخوات وانتم تشاركون في مؤتمركم هذا لقراءة واقع التحولات ورسم معالم المستقبل .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

نلتقي اليوم في رحاب العراق لتفحص واقعه وقراءة تجربته وتشخيص مظاهر التحولات فيه ورسم مستقبله على أسس عمليه وقراءة موضوعيه ينهض بها مجموعة من العلماء والباحثين والدارسين في مؤتمركم هذا الذي يحمل العنوان (التحولات والافاق في العراق بعد عام ٢٠٠٣) الذي تلتقي لرعايته وإدارته مؤسسات علميه واعده في محافظة ميسان وجامعة ميسان وكلية الامام الكاظم و مؤسسة الهدى للدراسات الاستراتيجية) التي التقت عند هدف واحد لصناعة المستقبل وبناء الأمة والنهوض بالواقع والتطلع للحياة يستند الى الحقائق العلمية والرأي الذي يضعه البحث العلمي الذي يختلف في ادواته ومنهجه وقراءته ونتائجه عن الاستعراض الإعلامي والحراك السياسي والعمل الإداري الجامد لأن البحث العلمي الأساس لبناء الدولة واستقامة الحكومة وتماسك المجتمع .

ومن وحي هذه المبادرة الطيبة كان عطاء الباحثين والمشاركين والحضور في انتاج العديد من الدراسات والبحوث والأوراق البحثية والمداخلات والتعليقات التي تثيرها مكامن الوعي وتتبع الدارسون وقراءة الواقع بكل تحولاته.

---

(١) سورة الأعراف : ٩٦.

(٢) المائدة :٦٦.

وقبل قراءة التحولات وما تسخر به علينا إن نتوقف قليلاً لأثاره خزين الذاكرة واستنطاق الكبت والالم والحزن الذي كان العراق يعاني منه لنحسن المقارنة ونبدع باستعراض التحولات واثرها في صناعة الواقع .

سادتي الحضور كان العراق النازف والسجن الكبير والرعب المستطير والقتل والإبادة والهجرة والتهجير والإعدام والتعذيب والاغتيال والسجن والاعتقال والحرب والدمار والمجاعة والبؤس والفقر والتميز في قبضة نظام دكتاتوري استبدادي عنصري طائفي فئوي قروي عشائري مارس قمع الحريات وتعطيل الحياة السياسية وإصدار القوانين والقرارات الجائرة التي تزيد في قمع الشعب العراقي .

إن الخلاص من النظام الدكتاتوري وحزب البعث وأجهزته القمعية اكبر تحول شهده العراق في تاريخه .

ومن هنا انفتح العراق على حياة جديدة وافق جديد ومسار جديد ومستقبل واعد، تحول في المجال الفكري والثقافي وتحول في الحياة الاجتماعية وتحول سياسي وتشريعي وتحول اقتصادي

لو رصدنا مفردات التحول الفكري والثقافي نجد سيل كبير من الأفكار الإيجابية تجرف في طريقها صخور وجيف وانقاض تثير هواجس القلق وعناصر القوة للتأسيس لنهضه حضارية تعتمد البحث العلمي والنتائج الفكري اساساً في قراءة التحولات وتحويلها الى عناصر ايجابيه لبناء الدولة والمجتمع والحياة فقد حدث تحول كبير في المشهد الثقافي في الانفتاح على مفاهيم وأفكار غيبت لعقود من الزمن منها التعددية الثقافية وقبول الاخر والحوار والتعايش والتسامح واحترام الخصوصية والثقافية والتواصل والانفتاح والتبادل الثقافي والاستفادة من تجارب الأمم والشعوب المتطورة مع الحفاظ على الهوية الثقافية والاطار الوطني لمواجهة مظاهر الانحراف والتطرف والإرهاب والعنف والنزعة الاطلاقية والفكر الإلحادي .

وشهد العراق تحول واسع في الاستفادة من وسائل الاتصال والمنابر الإعلامية المتنوعة وحرية الراي والفكر والنشر وأسست العديد من مراكز الدراسات والمؤسسات العلمية التي تنتج المعرفة وتطور العلوم ومواصلة الحياة .

وإذ تواجه أساليب الحرب الناعمة والفوضى الخلاقة وبرامج عقيدة الصدمة التي تعمل على تقويض المنظومة لفكريه والثقافية والإرباك الساسي في العراق، وان الذي يبني ويطور ويواجه علماء الأمه ومفكريها لقراءتها وتوجيهها ومواجهتها .

سادتي الحضور فقد يشهد العراق تحول كبير في الحياة السياسية حيث كتابة الدستور الأول مرة في تاريخية وبأساليب ديمقراطية وتحت انظار المرجعية ودخلت التعددية السياسية والعمل الحزبي والنقابي ومؤسسات المجتمع المدني وحقوق الانسان واجراء الانتخابات وتداول السلطة سلمياً وإقامة البرلمان لتشريع قوانين عديدة وإلغاء قرارات النظام المقبور وفي مقدمتها قوانين العدالة الانتقالية ومجالس المحافظات والفصل بين السلطات الثلاثة واستقلالية القضاء وتشريع القوانين وإلغاء النظام الدكتاتوري والمشاركة السياسية الواسعة هذه تحولات كبيرة في

المجال السياسي وان ترشيدها وانضاجها وتطويرها وحمايتها وكشف معالم التجربة مهمة الباحثين والدارسين الذي يمثل احد جوانبه مؤتمركم هذا .

وان العراق يشهد انتعاش اقتصادي في الإنتاج والاعمار والتنمية وإدارة ثرواته وتطلع الشعب العراقي لمزيد من النمو الاقتصادي وحل مشاكلة وتحديد السياسات الاقتصادية .

وان هذه المهمة يقوم بها انتم العلماء والمفكرون والباحثون . كما قام أبناء العراق من الأجهزة الأمنية ومجاهدي الحشد الشعبي بقيادة المرجعية الدينية لحماية العراق من الإرهاب ودحره وهزيمته واعطت ثقافة جديدة وهي ثقافة العطاء من وحي هذا التشخيص في ان بناء الدولة والمجتمع يقوم على أسس الفكر والمعرفة المنتجة من المتخصصين .

لذا جاءت المبادرة من مؤسسة الهدى للدراسات الاستراتيجية وبالاشتراك مع جامعة ميسان وكلية الامام الكاظم للعلوم الإسلامية حيث ان هذه المبادرة من صميم رسالة المؤسسة التي تعنى بالعمل الثقافي وترعى النتاج الفكري والعلمي ذا البعد الاستراتيجي والمستقبلي لترسيخ القيم والمبادئ التي تسهم في بناء الدولة العراقية .

والتي تنطلق من رؤية المؤسسة القائمة على ترسيخ القيم الإسلامية والوطنية منهجاً والحياة الديمقراطية مساراً وحقوق الانسان هدفاً والاعتدال والوطنية خطاً .

ان هذه المبادرة التي نشهد ثمارها بوجودكم وعطاءكم أنما جاءت نتاج للتعاون العلمي والثقافي بين مؤسسات علمية واعدة وهنا اقف بفضلهم وجهودهم لأقدم الشكر الجزيل والثناء الجميل للدكتور علي الشاوي رئيس جامعة ميسان والأساتذة في الجامعة الذين شاركوا بأنجاح المؤتمر ودعمهم وحضورهم وعطاءهم العلمي، والشكر موصول للدكتور عدنان عباس البطاط المعاون لعميد لكلية الامام الكاظم اقسام ميسان والأساتذة من إخوانه، واشكر السيد محافظ ميسان لرعاية وتشجيعه ودعمه للأعمال العلمية ومنها مؤتمركم هذا، ونشكر شركة نفط ميسان لدعمها المؤتمر في توفير السكن لضيوف المؤتمر، واسجل شكري واعتزازي واحترامي للهيئة العلمية التي واصلت العمل لشهور في تقويم وتقييم البحوث المشاركة، وللهيئة التحضيرية الشكر والاعتزاز التي قامت بتوفير كل مستلزمات إنجاح المؤتمر، ولكم إخوتي الحضور الشكر والامتنان والتقدير .

حسين جلوب الساعدي

رئيس مؤسسة الهدى للدراسات الاستراتيجية

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير:

المؤتمر العلمي الذي أقامته مؤسسة الهدى للدراسات الاستراتيجية وبالتعاون مع جامعة ميسان وكلية الأمام الكاظم (ع) في ميسان الذي يحمل شعار (بالبحث العلمي نرتقي بالحاضر لمستقبل افضل) وبعنوان (التحولات والأفاق في العراق بعد ٢٠٠٣) ليضع هذا الموضوع مورد البحث والدراسة والتأمل لرصد وقراءة التحولات التي شهدها العراق وكشف التحولات الفكرية وقراءة المشهد الثقافي والخطاب الأدبي الذي انفتح على فضاءات متعددة في عالم الأفكار والفن والأدب ليخرج من قيود الطاغوت والدكتاتورية لينفتح على قضايا العراق بكل تفاصيلها من تاريخ وارث وفكر وتجربة ومستقبل ويتواصل مع العالم بكل جديد في مجالات الحضارة والأفكار والاتصال والتواصل ويتفاعل معها ويعطيها طابعاً عراقياً ومحتوى يعبر عن هوية العراق العربية والإسلامية .

ويدرك الباحثون ما يشهده العراق من تحولات في المجتمع والتحديات التي تحيط به من مظاهر العنف والإرهاب والفوضى في بعض جوانبها والإرباك في التعاطي مع أجواء الحرية التي وفرها النظام الديمقراطي وتفاعل معها المجتمع العراقي ليكون مساهماً وفاعلاً في إرساء قواعد الاستقرار على أساس الدستور والقوانين وتصويته على الدستور وانتخابه لأعضاء مجلس النواب .

وفي أجواء التحولات يرصد الباحثون بعض المظاهر والممارسات والإخفاقات في المجال السياسي من المحاصصة والفئوية والصراع والانقسام والطائفية والإرهاب والعنف التي تعد تحدياً لبناء الدولة وصناعة مستقبل واعد .

ويتطلع أبناء العراق لحياة افضل من خدمات وتطور وعمران ورفاهية وطرحة من خلال نظام اقتصادي يلبي متطلبات الحياة ويواكب التطور .

فقد جاءت المبادرة لعقد المؤتمر لأثارة مكامن الفكر لدى الباحثين في قراءة التحولات ومن خلال محاور المؤتمر الأربعة :

المحور الأول : (التحولات الفكرية والثقافية في العراق بعد عام ٢٠٠٣)

١. المشهد الثقافي والفكري والأدبي .
٢. الخطاب الديني والإسلامي .
٣. الألحاد والعلمانية وما بعد العلمانية .
٤. الحرب الناعمة والغزو الثقافي .
٥. الهوية بين الثبات والتحول .

المحور الثاني : (التحولات الاجتماعية والتربوية والنفسية في العراق بعد عام ٢٠٠٣)

١. العادات والتقاليد والطقوس والفعاليات الاجتماعية .
٢. المشكلات الأسرية والمرأة والطفل والشباب .
٣. ظواهر الانحراف واثارها على المجتمع .
٤. تقنيات التواصل الحديثة وأثارها على المجتمع .
٥. الإرهاب والتطرف وأثاره على المجتمع .

المحور الثالث : (التحولات السياسية والقانونية في العراق بعد عام ٢٠٠٣)

١. تطور التشريعات القانونية والنظم الإدارية .
٢. أثر القضاء في أرساء النظام الديمقراطي .
٣. التحول السياسي من الدكتاتورية الى الديمقراطية .
٤. علاقات العراق الإقليمية والدولية .

المحور الرابع : (التحولات الاقتصادية في العراق بعد عام ٢٠٠٣)

١. التحول في طبيعة النظام الاقتصادي .
٢. السياسات الاقتصادية الكلية .
٣. التنمية المستدامة والنمو الاقتصادي .
٤. المشكلات الاقتصادية .

وبعد توزيع الدوار على المراكز العلمية كانت المشاركة الواسعة من الجامعات في العراق ومراكز البحوث والدراسات فقد استقبلت إدارة المؤتمر (١٢٥) من البحوث وأقرت بقبول (٥٤) بحثاً للمشاركة بالمؤتمر .

وقد أجاد الباحثون في دراستهم حسب اختصاصهم واهتمامهم وتطلعاتهم في الطرح والتشخيص والمعالجة .

ولكي تأخذ البحوث طريقها في الواقع العراقي حرصت إدارة المؤتمر على طبع الأعمال ولما كانت اللجنة العلمية والتحضيرية تضم أساتذة متمرسين في تقييم وتقويم البحوث والدراسة جاءت مبادرة جامعة ميسان كلية التربية بطبع البحوث في مجلة (أبحاث ميسان) المحكمة دعماً للتدريسيين المشاركين في المؤتمر .

إذ نشكر جامعة ميسان على تعاونها ومشاركتها ومبادرتها في طبع أعمال المؤتمر .

والثناء والشكر لكلية الأمام الكاظم (ع) في المشاركة بجميع محطات الأعداد والتحضير والانعقاد للمؤتمر .

واسجل شكري وامتناني لفضيلة الأستاذ الدكتور هاشم داخل الدراجي عميد كلية التربية جامعة ميسان الذي واصل العمل في إدارة اللجنة التحضيرية وشارك اللجنة العلمية في أعمالها .

ان ما جاء في المؤتمر من بحوث ودراسات ومداخلات وهي مساهمة جادة من الباحثين والدارسين والتدريسيين لكشف واقع التحولات وآفاق المستقبل .

والمؤسسات العلمية المعدة للمؤتمر والهيئة العلمية في المؤتمر أخذت على عاتقها مهمة الأعداد والتحضير وفسحت المجال ليعبر المشاركون عن آراءهم وأفكارهم بكل حرية، لذا قد توجد أراء وقراءات تعبر عن وجهة نظر أصحابها وليس بالضرورة تعكس رأي القائمين على المؤتمر والهيئة العلمية التي كان جل اهتمامها ان يكون البحث مستوفياً للشروط العلمية ويدرس احد المحاور ويتضمن فكرة في سياق موضوع المؤتمر أما ما يراه الباحث في النقد والملاحظة والمعالجة فله مطلق الحرية والإرادة .

المؤتمر مبادرة علمية هادفة قامت بها مؤسسات واعدة ونهض بها أعضاء اللجنة العلمية والتحضيرية وشارك بها الباحثون والتدريسيون في جامعات العراق ونامل ان نواصل العمل معهم لعقد مؤتمرات وملتقيات أخرى ان شاء الله .

حسين جلوب الساعدي

العـــــراق / ميسان / العمارة

البيان الختامي

التحولات والآفاق في العراق بعد ٢٠٠٣

ونحن في رحابِ البحثِ العلمي، والفكرِ الحرِ المقيدِ بضروراتِ العقلِ والدين، لا يسعنا إلا نتقدمَ بالشكرِ الجزيلِ للباحثينَ الأعزاء الذين اثروا مؤتمرَ التحولاتِ هذا برؤاهم، واقتراحاتِهم، وتوصياتِهم التي جمعناها في هذا البيانِ الذي لا نريدُ له أنْ يكونَ ختاماً، بل نافذةٌ على المستقبل، نتطلعُ منها، بعيونٍ مفتوحةٍ، على المدى الذي يمكنُ أنْ يتحققَ من تلك الرؤى، ونحنُ نعيشُ غربةَ البحثِ العلمي في وطنٍ كبيرٍ، بسعةِ الحُلُمِ، يؤمنُ بقدراتِ أبنائِهِ، ولكنه لا يجدُ السبيلَ إلى تحقيقِ مقرراتِها، لأسبابٍ يطولُ شرحُها الآن، غربةٌ تتمثلُ في أنّكَ تتحدثُ، وتفكرُ، وتبدعُ، وتخترعُ، وتتألقُ، ولكنْ ليسَ ثمةَ مَنْ يشتري!... ومع ذلك، وبالرغم من علمنا بهذا الواقع المأساوي، إلا أننا مصرون على قول كلمتِنا، باختيارنا لموضوع ما، وسبر اغواره، والغوص في تفاصيله، للخروج بنتيجةٍ "ما"، نرجو بها وجه الله أولا، وتطوير ذواتنا ومجتمعنا ووطننا ثانياً، أما ثالثا: فلأن الله جعلنا خلفاء نعمر الأرضَ ونُحيي الإنسان.

ولأن مؤتمر التحولات هذا ضمَّ أربعةَ محاور: محور فكري، وآخر سياسي، وثالث اقتصادي، ورابع قانوني رغبة منه في تغطية المشهد العراقي وآفاقه بعد الزلزال الذي حل به في ٢٠٠٣، فقد جاءت التوصيات التي استخلصانها من بحوثكم، أيها الأحبة، متنوعة وثرية وبحجم المشهد الذي حاولت أنْ تغطيه، وفيما يأتي جملة من هذه التوصيات:

١. الدعوة للحوار بين المفكرين والعلماء والباحثين، لترسيخ أسس التعددية وحرية التعبير بالاعتقاد ونبذ الغلو والتطرف، وإشاعة الاعتدال والتسامح والتعايش.
٢. اعادة النظر في المناهج التعليمية، لا سيما التعليم الابتدائي، بما يتلائم وخصوصيات المجتمع العربي والإسلامي لمواجهة الغزو الثقافي وتحدياته، والعمل على تحقيق الأمن الفكري، من خلال تطوير المعرفة ومناهج البحث وترسيخ القيم التربوية والإسلامية، وبمشاركة المؤسسات التعليمية والدينية والمجتمعية.
٣. صيانة الثقافة الإسلامية من الفكر العلماني الدخيل، والكشف عن عيوبه وتناقضاته ومخاطره، كونه يتناقض والخطاب الإسلامي التنويري.
٤. الحفاظ على الهوية العراقية ذات الطابع التعددي، ذلك أن خلف هذا التعدد القومي، أو الديني روحا خالدة، تتمثل في التاريخ الذي كان عراقيا وما زال. والدعوة للسلم الاجتماعي والحد من النزعة القبلية والثارات العشائرية التي يشهدها العراق بعد ٢٠٠٣، وأن تأخذ الدولة دورها في إيجاد نضم تسهم في الضبط الاجتماعي.
٥. لا سبيل إلى صد الغزو الثقافي إلا بتحقيق شروط النهضة، بالتأكيد على الفرق بين الغزو الثقافي، وبين التبادل الثقافي، بوصفه مطلبا إنسانيا.
٦. التأكيد على دور المرجعية الدينية في حماية المجتمع، ودفع الخطر عنه، وتجديد الخطاب الديني بما يتلائم والتحولات المعاصرة.

٧. تنظيم وقت الطفل اليومي، والمتابعة الأسرية له، بشكل مستمر، في حال استخدام وسائل التكنولوجيا الحديثة لا سيما الأنترنت. وتفعيل الدور الرقابي على مواقع التواصل الاجتماعي مع مراعاة المجال للتعبير عن الرأي بما ينسجم والقيم الإسلامية الأصيلة
٨. اعتماد استراتيجية التنويع الاقتصادي الشاملة، لبناء الاقتصاد العراقي، ليتخطى العامل الواحد في المصادر الاقتصادية، وترسيخ استقلالية المؤسسات الاقتصادية والهيئات المستقلة لا سيما البنك المركزي. وإعطاء دور أكبر للقطاع الخاص المحلي.
٩. الاستثمار في رأس المال البشري من خلال الاهتمام بالتعليم والصحة والتنمية، واستخدام مبدأ ترشيق الانفاق العام عن طريق اتباع سياسة تُركِّز على زيادة الانفاق الاستثماري.
١٠. الاهتمام بالبيئة وتحقيق التوازن المستدام من خلال مؤسسات متخصصة.
١١. الاهتمام بالقطاع السياحي، كونه مصدرا مهما للناتج المحلي الإجمالي. والعمل على مراجعة كافة التشريعات السياحية التي تتضمن ما يعيق تطوير السياحة وتنميتها لا سيما ما يشجع الاستثمار وتطوير المرافق العامة.
١٢. دعوة القوى والأحزاب السياسية الانتقال من مرحلة الانفعال إلى الفعل وفق قيم ومفاهيم حضارية وانسانية ومشتركات وطنية لترسيخ الممارسة الديمقراطية.
١٣. مطالبة المفوضية العليا المستقلة للانتخابات لممارسة دورها القانوني، وتطبيق احكام قانون حظر حزب البعث والأنشطة العنصرية والارهابية والتكفيرية، ومراقبة الكيانات السياسية للتحقق من عدم ممارستها للأنشطة المحظورة كالتحريض على الطائفي والترويج للأفكار العنصرية والارهابية، ومنعها من المشاركة في الانتخابات والحياة السياسية.
١٤. تفعيل الذاكرة العراقية في استحضار جرائم النظام الدكتاتوري العنصري والطائفي، وأن تأخذ مؤسسات العدالة الانتقالية لإزالة آثار النظام الدكتاتوري وانتهاكاته لحقوق الانسان.
١٥. تفعيل دور هيئة الاعلام والاتصالات بوصفها جهة رقابية، لاتخاذ الإجراءات اللازمة بحق الاعلام الذي يحرض على الإرهاب الفكري والسياسي
١٦. تفعيل دور وزارة الخارجية العراقية، لإقامة علاقات مبنية على أساس المصالح المتبادلة، وأن يكون العراق وسيطا في القضايا الإقليمية، والسعي لإقامة علاقات سياسية واقتصادية مع دول الجوار مبنية على الاستحقاق الجغرافي والارث الثقافي والمصالح المتبادلة، برؤية استراتيجية يشترك في صياغتها العراق ودول الجوار.
١٧. مراعاة حقوق الإنسان كالسرعة في اجراء المحاكمات، فضلا عن السرعة في عرض أوراق التحقيق على القاضي، واصلاح النظام القانوني ببحث كافة التشريعات والقوانين النافذة، بغية إقرارها أو تحديثها، أو الغائها، واحلال تشريعات أخرى محلها.
١٨. التأكيد على أهمية الدور السياسي للإدارة اللامركزية من خلال رؤية واضحة تستند للدستور والقوانين لتعزيز ثقة المواطن في إجراءات وخطط الحكومة، والتأكيد على تعديل نص المادة (١٥) من الدستور العراقي الدائم لسنة ٢٠٠٥ بجعل الأولوية

لتشريعات الدولة الاتحادية لا مجالس المحافظات أو الأقاليم. وتعديل احكام المادة (١٠/ ثالثا) من قانون انضباط موظفي الدولة والقطاع العام لتتلائم وواقع العمل الإداري.

وأخيرا، أوصى المؤتمرون بطبع البحوث المشاركة وتوزيعها، لتعميم الفائدة، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين وصل اللهم على محمد وآله الطيبين الطاهربن.

المحور الأول

المحـــــور الفـــكري

التحولات الاجتماعية وظاهرة الغزو الثقافي في العراق بعد عام ٢٠٠٣م دراسة تحليلية

الأستاذ الدكتور حسين لفته حافظ

مركز دراســـــات الكوفة / جامعة الكوفة

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

التغريب فكرة غايتها تحقيق النجاح على الأمة العربية والإسلامية في غزو فكري بعد أن فشل الغزو العسكري، فالمجتمع العربي الإسلامي قد تأثر من الغزو الثقافي، لاسيّما مع اختلاف الأيدلوجيات والتي يذهب بعضها إلى أن القضية وهمية مصطنعة، إذ لا مجال في مثل هذا العصر الذي تنصهر فيه الثقافات وتتفاعل أنماط السلوك الإنساني إلى الخوض في مسألة قد أصبحت قديمة وبالأخص بعد أن سقطت الحجب بين بلدان العالم.

من خلال الظروف التي مر بها العالم وما خلفه سقوط الاتحاد السوفيتي، وظهور صحوة الفكر الإسلامي، وثورة المعلومات، أثار رجال السياسة أمرا مهما على صعيد الفكر والسيطرة الأوحدية وهي مسألة الحكومة العالمية، لحساب دولة واحدة تتولى قيادة العالم.

لا نبالغ لو قلنا: إن هناك عملية غزو ثقافي يتعرض لها الإسلام، وقد غفل عنها المسلمون منذ أن فقدوا مؤهلات القوة في المعرفة والقدرة ، وبدت عليهم سمات الضعف والتبعية وبان اثر الغزو في جيل الشباب ولعل من ابرز مظاهره محاكاة الغرب بطريقة عمياء دون الالتفات الى التراث العربي العريق.

و قضية الغزو الثقافي ظهرت على محاور في الأمة العربية والإسلامية، منها الذي يقول: أننا لا نستطيع الأخذ بمقومات العلم والتكنلوجيا ما لم نأخذ بأسباب التطور الحضاري الغربي، وهي بلا شك دعوة لتسويغ الانسلاخ الحضاري، لكن في الحقيقة إننا أمام موقفين الأول الهزيمة وعدم المواجهة والإحساس بالضعف أمام الوافد الغربي، والثاني عدم الإيمان برسالة الله.

والبعض الآخر يمثل تيارات ثقافية وتعد قضية الغزو الثقافي قضية ذات فكر وهمي يرفع شعارها بعض التيارات الفكرية المناوئة للفكر العلماني لإدارة معركتهم الفكرية والاجتماعية معهم، كما هو أيضا رأي بعض القادة الفكريين والسياسيين.

يجب أن لا نغفل أيضاً أن هناك مواقف أخرى وهي تقر بالغزو الثقافي كقضية حقيقية لها واقعها وأطرافها.

يظهر من خلال هذا العرض أن ضيق نظرة بعض التيارات في التجاوب مع الآخر ورفض كل شيء والتنكر لجميع الرؤى، حتى أنهم يصفون الغزو الثقافي تهمة جاهزة للحدّ من التفاعل الثقافي وقيداً على الإبداع، وتبريراً للانزواء والتقوقع، لتسويغ الكسل عن العمل الثقافي الجاد

الذي يحتاج إليه مجتمعاتنا، لكن الرؤية الأخرى صريحة أكدت مراراً أن الغزو الثقافي لا ينبغي أن يتحوّل إلى ضرب التفاعل المشروع وضروب الإبداع، ولا أن يكون قيداً على التبادل الثقافي المتكافئ مع العالم، كما لا يجوز أن يتحوّل إلى ذريعة لتبرير الكسل عن الإنتاج الثقافي والاكتفاء بما هو موجود.

لاشك ولا ريب في أنَّ العالم العربي الإسلامي واقع تحت مخططات الغرب وأهدافه لاستلاب مجتمعاته والنيل من دينه وقيمه وصهر ثقافته وتبديل سلوكه وتغيير هويته، وإبقاء سمة التخلف مستمرة في هذا الجزء من العالم .

فضلاً عن كون الدين الإسلامي يكاد أن يكون الوحيد من الأديان الذي يعطي قضية مواجهة الغزو الثقافي أهمية قصوى مرتبطة بمصير الأمة العربية والإسلامية على حد سواء.

لكي نعالج القضية لابد من الوقوف على الأسس التخطيطية الجادة والبناءة ، وأن نختار فكرا موضوعياً يحذّر من الغزو الثقافي وينبّه إلى المخاطر الشديدة المترتبة على الانفتاح، ويدعو في المقابل إلى إحياء الهوية والثقافة التراثية لبناء هويتنا المتميزة وذاتيتنا وثقافتنا الخاصة. حتى يمكن الدعوة للانفتاح على الوافد، هذا أولاً ثم الالتزام بالنزعة القومية والدينية المحضة كأسلوب من أساليب حماية الثقافة والذات القومية. قد يسمح للوافد ضمن دراسات مسبقة في مجال السياسة والمصالح الاقتصادية الوطنية بتحوّل نسبي لميزان التبادل التجاري الغربي، بيد انه لا يسمح باختراق منظومته الثقافية والقيمية الخاصة التي ما برحت تجمع المسلمين في إطار نسيج اجتماعي متين، ما يزال يستعصي على أدوات الاختراق الغربي. لذلك قسم البحث على مباحث تناول الاول منها :التعريف بالغزو الثقافي، اما المبحث الثاني فقد تناول :الأدوار التاريخية التي مر بها الغزو الثقافي، ودرس المبحث الثالث :مفاهيم مختلفة ولكن غايتها واحدة، اما المبحث الرابع فدرس: الأساليب، وتناول المبحث الخامس: الحلول، وأخيرا جاءت الخاتمة لتلخص أهم ما توصل اليه البحث وآخر دعوانا ان الحمد لله ربّ العالمين.

المبحث الأول : التعريف بالغزو الثقافي

لابد للباحث وهو يخوض في مسألة أكثر جدية والتي تُثير جدلاً ولها تأثير من الناحيتين الواقعية والنظرية ألا وهي مسألة الغزو الثقافي أن لا يتجاوز البديهيات ويشرع من البداية لتوضيح بعض المفردات المتعلقة بموضوع الغزو الثقافي.

فالغزو لغةً: غزا الشيء غزوا : أراده وطلبه، والغزوة : ما غزي وطلب ، ومغزى الكلام : مقصده والغزو: السير إلى قتال العدو وانتهابه [١].

الغزو اصطلاحا: (إغارة الأعداء على أمة من الأمم بأسلحة معينة، وأساليب مختلفة، لتدمير قواها الداخلية، وعزائمها ومقوماتها، وانتهاب كل ما تملك)[٢].

أو هو أن تشن قوة سياسية أو اقتصادية حرباً على المبادئ الثقافية لشعب من الشعوب، لتنفيذ أهدافها الخاصة والتحكم بمصير ذلك الشعب مع فرض عقائد جديدة بالقوة على تلك الدولة وعلى شعبها من أجل ترسيخها بدلاً من ثقافة ومعتقدات ذلك الشعب لاجتثاث أصول الثقافة الوطنية والقضاء عليها.

الثقافة لغةً: سرعة الفهم، والتعلم والضبط، والحذق والفطنة، والذكاء والتقويم والتهذيب والظفر بالشيء، والتغلب على الخصم[٣].

الغزو الثقافي: أن تقوم مجموعة سياسية أو اقتصادية بالهجوم على الأسس والمقومات الثقافية لأمة من الأمم بقصد تحقيق مآربها، ووضع تلك الأمة في إسار تبعيتها وفي سياق هذا الغزو تعمد المجموعة الغازية إلى أن تُحِّل في ذلك البلد -وبالقسر- معتقدات وثقافة جديدة مكان الثقافة والمعتقدات الأصلية[٤].

مع وجود نظرة قاصرة في الداخل تتعامل بسذاجة وسطحية مع قضية الغزو، سواء أكان ذلك على مستوى إدراك بواعث القضية أم على مستوى رصد مظاهرها فالغزو الثقافي هو قضية عالمية تعاني منه المجتمعات بأغلبها، لا فرق في أن تكون دوافع الغرب اقتصادية أو حضارية، وإنما العبرة بوجود القصد المسبق والخطة المدبّرة، من ثم يبتعد عن حقائق الواقع فيشهّر مقولة ضرورة التفاعل ليواري مقولة الغزو، أو يذهب إلى أن الغزو وسيلة الضعيف للتغطية على صنعه وعجزه، وكأنه بذلك يقدم فتوحات عجز عنها الآخرون، (لكن التراجع الحضاري الذي كان كله يخيم على دار السلام يومئذ قد أفسح مكانا للنموذج الحضاري الغربي والفلسفة الوضعية الغربية والمنهاج العلماني الأوربي كي يكون له في دار السلام، وجود يزاحم المشروع الإسلامي للتغيير والنهضة، فعرفت بلادنا، منذ القرن التاسع عشر الميلادي، مشروعات للتغيير والنهوض)[٥].

الغزو الثقافي وان كان يأتي من جهة الغرب، إلاّ انه يتحرك بآليات محلية ويسري ثم يستفحل على أرضية ضعفنا في الداخل. بل لا معنى للغزو من دون ضعفنا، فلضعفنا وبضعفنا يتم الغزو، وضعفنا هو أرضية الغازي هناك فارق بين الغزو والتبادل الثقافيين، والموقف من ثقافة الغرب وعلومه وطريق المواجهة يتمثل بإبداع الفكر وابتكار الحلول وبناء الواقع وتقوية

---

(١) لسان العرب : ١٥ / ١٢٣.

(٢) في الغزو الفكري ، دكتور احمد عبدالرحيم من إصدارات كتاب الأمة ، ٢٠١٠م ص: ٣٣.

(٣) ابن منظور – لسان العرب:٢/١١١.

(٤) منتديات احتاجك ،الشبكة العالمية للانترنت ، الامارات العربية المتحدة ، ٢٠١٤م.

(٥) محمد عمارة–المشروع الإسلامي للتغيير ومطاعن العلمانيين– حث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية–العدد٣–١٩٩٤م:١٦.

البناء، أي بتجاوز الضعف وتماسك الداخل فكرياً وموضوعياً، لقد كانت ضريبة الجري وراء الآخر أن كلفت أمتنا الكثير من استنزاف القدرات وإهدار الطاقات وهذه مؤشرات تدل على التبعية في الفكر والمنهج(١)، المسلمون يعترفون بتقدم الغرب، ففي معارف الغرب ما يناسبنا لذا كان لزاما أن نجذبه، ونتعاطى معه بل نفيد من تطوره، و نسعى إليها بجد. ولكن بشرط أن نملك حرية الاختيار، لا أن يدفع لنا الآخر ما يشاء، كيف يشاء من ثقافة استهلاكية.

المبحث الثاني : الأدوار التاريخية التي مر بها الغزو الثقافي

أشار بعض الباحثين الى الاعتراف (بوجود الغرب بوصفه قوة حضارية متقدمة علينا في علومها وصناعاتها وتقنياتها، وقد يمتلك أصحابها أفكاراً وأشياء أفضل مما هو موجود في دائرتنا الحضارية)(٢).

وقد مرَّ الغزو الثقافي بأدوار تاريخية تبلور من خلالها مفهوم ودوافع الغزو الثقافي، فبدءاً كان الغزو عن طريق الاحتلال العسكري، أما الغزو الفكري فطرقه إلى تحقيق أهدافه مختلفة وإن كان الهدف واحد وهو الهيمنة الاقتصادية، لهذا بدأ بغزو المجتمع فكرياً وثقافياً مبتدئاً بالأسرة وهي اللبنة الأساسية في المجتمع.

إن الغزو الفكري الغربي ليس محصور ببقعة جغرافية معينة، فما يقع في أقصى الأرض من أحداث يتأثر بها من يعيش في أدناها، لأن الغزو الفكري ليس وهماً بل هو حقيقة ، وقد اختلف الباحثون في ذلك إلى عدة اتجاهات: منهم من قال إن الغزو الثقافي ليس ظاهرة جديدة بل هو ظاهرة قديمة بقدم التاريخ، عندما كانت حضارة ما تتصدر باقي الحضارات وتقود العالم، وهي ليست ظاهرة اقتصادية أو سياسية أو تقنية أو معلوماتية فحسب بل هي أساساً ظاهرة تاريخية مستمرة تعبر عن رغبة القوي المسيطر(٣)، ولو تتبعنا الجذور التاريخية للعالم القديم بما فيه أوروبا بدأ من الإغريقيين إلى الفرنسيين، وبعدها محاولة اليونانيين نشر ثقافتهم في البلاد التي تحت وطأتهم ومن ثم انتقل هذا الفكر إلى شعوب أوربا الأخرى، فقد شنت أوربا النصرانية الحروب ضد سكان شمال أوروبا لإدخالهم في النصرانية.

كما أن لهم في تاريخهم أدوار في الحروب الدينية التي اشتعلت فيها عدة قرون بسبب ما سمي عندهم " الإصلاح الديني" وكان من نتيجة هذه الحروب الدينية أن انقسمت أوروبا إلى كاثوليكية وبروتستانتية حتى إن الملك البريطاني جعل نفسه رأساً للكنيسة الانجليكانية(٤).

هذا فيما بين الأوروبيين أنفسهم، وما يهمنا هنا هو كيف خرجت أوروبا إلى العالم بعد أن ضاقت فيما بينها من جراء الحروب، والتسابق في التسلح، فبدأت هجمتها على الشعوب الأخرى، ومنها أطماع الغرب في بلاد المسلمين كونها ليست جديدة على أوربا بل هي أطماع قديمة، لكن الدولة الإسلامية كانت تدافع عن المسلمين وتقف ضد أعدائه، وكانت الدولة العثمانية

---

(١) محمد باقر الصدر–اقتصادنا–مقدمة الطبعة الثانية، بيروت،دار الفكر،:٧–٢٧.+ظ:عبد الرزاق هادي صالح–الحراك الثقافي ظاهرة التأثير والتأثُر المتبادل–بحث منشور في مجلة المنهاج–العدد٣٢: ٦٦. لسنة ٢٠٠٤م.

(٢) نبيل علي صالح–قراءة في كتاب الغزو الثقافي المقدمات والخلفيات والنتائج–مجلة المنهاج –العدد:١٤.٢٦٨ ،لسنة ٢٠١٠م.

(٣) حسن حنفي– ما العولمة–حورات لقرن جديد:١٧–٢٢+ ظ:حسن بحر العلوم–العولمة بين التصورات الإسلامية والغربية–معهد الدراسات العربية والإسلاميون–لندن٢٠٠٣م:٥٠.

(٤) محمد عمارة – الغزو الفكري وهم أم حقيقة.

آخر مظهر من مظاهر الدولة الإسلامية، حيث ذهبت تلك الدولة بذهابها، وأصبحت بلاد المسلمين مفتوحة أمام أطماع الغربيين.

وفي آخر أيام الدولة العثمانية ضعفت ضعفاً شديداً، في الوقت الذي كان العالم الغربي يشهد نهضة ويقظة وتقدماً، فركز أطماعه على بلاد المسلمين، مستغلاً ضعف الدولة العثمانية، التي أطلق عليها اسم "الرجل المريض"، وخطط الغربيون لغزو المسلمين غزواً عسكرياً، بهدف "تغريبهم" وإبعادهم عن إسلامهم، وقد شارك في هذا التغريب الفرنسيون والانجليز وسائر الأمم الأوروبية.

لم يكن توسع الدول الأوربية على حساب العالم القديم محض صدفة إنما كانت هناك دراسات منظمة ومعد لها، فأوروبا تعرف تفاصيل عن الدول التي تروم غزوها، فقد بدأت أوربا غزو مصر وكيف هجم نابليون في حملته وأحضر معه مئات من العلماء والباحثين والفنانين[١].

ثم محاولات الدول الاستعمارية وما فعلته بالشعوب العربية المسلمة التي وقعت تحت الاحتلال، الذي جعل العلاقة بين المسلمين وغيرهم مسألة مصالح وصراع اقتصادي وليس مسألة إيمان أو كفر.

وظهر الغزو الثقافي في مجال الأدب فكم ظهرت من دعوة في العالم الإسلامي تنادي بتبني المذاهب الأدبية الغربية في الكتابة وفي النقد حتى غفلنا أن لنا تاريخاً عظيماً ولغة من أعظم اللغات في العالم.

ومن الغزو الثقافي اللغوي أننا في معظم جامعاتنا العربية الإسلامية ما زلنا ندرّس العلوم والطب باللغات الأوروبية.

وقد تأثر الفكر المسلم بالغزو الفكري في نطاق الحكم أيضاً، ومن ذلك الذي أدى إلى انتشار المذاهب الشيوعية والاشتراكية في الحكم في العديد من البلاد العربية الإسلامية ، وحتى طغى الفكر الاشتراكي المادي على كثير من المثقفين في عالمنا الإسلامي.

والملاحظ أن بعض المفكرين المسلمين يرفضون مصطلح الغزو الثقافي أو الفكري لأن الغزو مصطلح عسكري ، ويطالبون بأن نتحدث عن استيراد فكري أو إيديولوجي بمعنى التفاعل مع الغرب، وعدم الانغلاق على الهوية.

وهذا ما دأب إليه أعداء الإسلام لترسيخ هذه المفاهيم في أذهان بعض المسلمين وكأنها أمر واقع لا سبيل إلى تغييره، وحتى يعترف المسلمون بأن هذه المفاهيم قد تكونت لدى كثير من الأجيال المعاصرة واستطاعت أن تحدد للدين دوره بمعزل عن الحياة وفي زاوية ضيقة يلخصها شعار -فصل الدين عن الدولة -أو تلغي دوره من الحياة أساساً ، فهو لا يرتبط بالواقع من خلال المعاني التي تصنع القوة والحركة والتقدم ، بل ينظر إليه باعتباره سبب الضعف والجمود والتأخر.

أما الاتجاه الآخر يرى أن الغزو الثقافي ظاهرة حديثة ومعاصرة لها عللها وأسبابها فهي ظاهرة كونية تحققت بعد انهيار الكتلة الشرقية وما تبعها من تجزئة، وحيث كان الانهيار في كل الجوانب مما أدى إلى أن يضطر الاتحاد السوفيتي بربط نفسه بشبكة الاتصال العالمية، وبالشبكة المعلوماتية، حتى أنها دخلت تحت مظلة السوق الأوربية، وأصبح نظامها هو أيضا مقترحا من الغرب .

(١) محمد عمارة- التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية- بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية-العدد٢-١٩٩٤م:٨٦.

وهناك اتجاه يقول: إن الغزو الثقافي بدأ في منذ القرن التاسع عشر ولكنه بحاجة إلى فضاء لكي يكتمل، وقد وجد هذا الفضاء في الفضائيات التلفزيونية التي جعلت من العالم قرية صغيرة وجعلت من اللحظة المعاشة في أي ركن صغير من العالم لحظة معاشة على مستوى العالم كله[١].

المبحث الثالث: مفاهيم مختلفة ولكن ذات غايات متشابهة

تعددت مفاهيم الغزو الثقافي بتعدد الأدوار التي مر بها الغزو الثقافي فأول غاياته هو احتلال العقل ومن ثم التمهيد لاحتلاله اقتصاديا والفرق بينه وبين الاحتلال العسكري بالطرق والآليات فالغزو العسكري يستمد قوته من آليات الإخضاع الخارجي فقد تطور من شكله القديم العسكري المباشر، إلى شكله الجديد الاقتصادي، سواء تأمين المصادر أو الطاقة أو الثروات الطبيعية، أو البحث عن أسواق ، بينما ييسّر الغزو الثقافي آليات الإخضاع الداخلي وهي احتلال العقل، من أجل الهيمنة الاقتصادية لدوام النهب الاستعماري لخيرات الشعوب وثرواتها الطبيعية ومواقعها الإستراتيجية، وهو الأوقع تأثيراً، لأنه يضمن بعد ذلك في حالات الضعف الذاتي والتخريب دوام الهيمنة على الإدارة والإمكانات. فالغزو الثقافي مزود بسلاحه الفتاك الداخلي من خلال آلية صناعة العقل[٢]، ومن تلك المفاهيم:

الاستقطاب والهيمنة:

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي انهارت معه منظومة الدول الاشتراكية، تشكل مفهوم الاستقطاب إلى جهة واحدة مهيمنة وهي الولايات المتحدة، وترافق الاستقطاب مع التقنية، المعلوماتية، الاتصالات، ولا شك في أن سلطان الواحدة منها يفوق السلاح التقليدي أضعافاً مضاعفة، إنها الثروة والمعرفة، وهما تتبادلان الأدوار، وتتكاملان فيما بينهما[٣].

التبعيَّة:

ظهر مفهوم التبعية الاقتصادية في منتصف القرن المنصرم، لما ظهر من التخلف في اقتصاد بلدان العالم الثالث، مما أدى إلى احتياج هذه الدول إلى النمو للنهوض بالواقع الاقتصادي، غير أن هذه الظاهرة أدت إلى الانصهار والانقياد للاقتصاد العالمي أو ما عرف باسم التنمية الموجهة للخارج، وقوامها تغذية المركز بالمواد والخامات والنفط، وتصريف منتجات المركز.

وهذا هو مفهوم التبعية، بدأ اقتصادياً، ثم ما لبث أن امتد إلى المجالات الفكرية، ولا سيما الاتصالات والمال والاقتصاد والمعلوماتية[٤].

---

(١) حسن بحر العلوم–العولمة بين التصورات الإسلامية والغربية–معهد الدراسات العربية والإسلاميون–لندن٢٠٠٣م:٦٠.

(٢) عبد الله أبو هيف –الثقافي والمفاهيم المتصلة به:بحث منشور على موقع– www.annabaa.org/nba .

(٣) عبد الله أبو هيف –الثقافي والمفاهيم المتصلة به:بحث منشور على موقع– www.annabaa.org/nba + رعد شمس الدين كيلاني–العولمة وتاريخ الصراع مع الغرب–الوقف السني– بغداد–٢٠١١م:٢٣–٤٤.

(٤) عبد الله أبو هيف –الثقافي والمفاهيم المتصلة به:بحث منشور على موقع– www.annabaa.org/nba + رعد شمس الدين كيلاني–العولمة وتاريخ الصراع مع الغرب–الوقف السني– بغداد–٢٠١١م:٢٣–٤٤.

التغريب:

والتغريب: هو أن يؤثر الغرب بالمسلمين ، بهدف إبعادهم عن إسلامهم، وجعلهم تابعين له، وفك الروابط الوثيقة بينه وبين تاريخه وتراثه، وابعاده عن هويته الثقافية.

ولذلك يطلق عليهم المستغربون وهم المتأثرون بالأفكار الغربية، بحيث ابتعدوا عن إسلامهم وأمتهم، وصاروا دعاة لقبول الحضارة الغربية، ونشرها بين المسلمين، وهي نزعة مؤداها الاحتذاء بالغرب، و شعور المغترب بأنه مبعد عن البيئة التي ينتمي إليها(١).

التنميط:

وهو إنتاج نمط ثقافي واحد وفق إرادة المنتج المهيمن، ويكون ذلك عبر وسائل السيطرة المختلفة كالتقنية والمعلوماتية والاتصالات، ولا سيما استعمال الأقمار الصناعية، ولا شك أن أخطر مظاهر التنميط وسيلة، هو شيوع ثقافة الصورة بديلاً عن ثقافة الكلمة، وانتشار الكتاب الإلكتروني بديلاً عن الكتاب المطبوع، مما يؤدي إلى الاستبداد التقني الذي يقلل الخيال والإبداع و سرقة الوقت، وهدر الطاقة الجسمية، والمشاعر والأفكار، وفرز عطالة ذهنية وثقافية أمام منتجات التنميط الثقافي وقوتها الهائلة(٢).

التغطية:

وهو أسلوب إعلامي هدفه تضليل وتزييف الوعي، بقصد قلب الحقائق ، وتشكيل العقل وفق إملاء شروط الهيمنة، وينبغي الوعي بمدى قوة الغزو الثقافي لهذا الأسلوب في عمليات احتلال العقل(٣).

العولمة:

هي نقل الشيء من النطاق الوطني أو القومي إلى النطاق العالمي وهو توحيد الاستهلاك، وتؤثر سلبياً في الطرف المستهلكً، المتلقي، المستلب الإرادة والفاعلية، في الاقتصاد والمال، ويتفاقم التأثير في مجالات العلم والتقنية والمعلوماتية والاتصالات، لأنها لا تنتج، أو لا تشكل مشاركتها في الإنتاج العالمي ، وهي ضد مراعاة البعد الثقافي للتنمية، وتأكيد الهوية الثقافية وإثرائها، وتوسيع نطاق المشاركة في الحياة الثقافية، وتعزيز التعاون الثقافي الدولي(٤).

---

(١) عبد الله أبو هيف –الثقافي والمفاهيم المتصلة به: بحث منشور على موقع– www.annabaa.org/nba + رعد شمس الدين كيلاني–العولمة وتاريخ الصراع مع الغرب–الوقف السني– بغداد–٢٠١١م:٢٣–٤٤.

(٢)عبد الله أبو هيف –الثقافي والمفاهيم المتصلة به:بحث منشور على موقع– www.annabaa.org/nba + رعد شمس الدين كيلاني–العولمة وتاريخ الصراع مع الغرب–الوقف السني– بغداد–٢٠١١م:٢٣–٤٤.

(٣)عبد الله أبو هيف – الغزو الثقافي والمفاهيم المتصلة به :بحث منشور على موقع– www.annabaa.org/nba + رعد شمس الدين كيلاني–العولمة وتاريخ الصراع مع الغرب–الوقف السني– بغداد–٢٠١١م:٢٣–٤٤.

(٤)عبد الله أبو هيف –الغزو الثقافي والمفاهيم المتصلة به : بحث منشور على موقع– www.annabaa.org/nba + رعد شمس الدين كيلاني–العولمة وتاريخ الصراع مع الغرب–الوقف السني– بغداد–٢٠١١م:٢٣–٤٤.

المبحث الرابع :الأساليب

تنوعت أساليب الكيد للإسلام ومحاولات استئصاله عبر التاريخ قديماً وحديثاً، ولكنها في النهاية تبوء بالفشل الذريع، لأن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظ هذا الدين وأهله وأتباعه الملتزمين به والظاهر أن لا مجال لهذا التوهم، لأن الغزو الثقافي وكما يشهد التاريخ على محاولات غزو ثقافي سابق لم يستطع أن يبيد ثقافة شعب من الشعوب مهما كانت ديانته وثقافته إلا إذا أبيد شعبه، (لأن الثقافة، كما يذهب بعض الباحثين ليست عرضا وإنما جوهر، والثقافة هي عنصر الهوية والمحفز نحو الاستقلال والحرية فرموز كل ثقافة وفعاليتها في أنفس أفرادها إنما تتحول عند الأزمات إلى ثورات تحيي هذه الثقافة وتجدد صورها بأبهى الشعارات، صحيح أن الثقافات العالمية تتحول وتتغير مفاهيمها عبر التفاعل الذاتي والخارجي إلا أن هذا التحول عادة ما يكون طوعياً ذاتياً وليس أمراً يقرره أو يرفضه الآخر)[1] ، وكان من هذه الأساليب لتشويه الإسلام داخلياً، وعدم انتشار أفكاره:

١. الإعلام: من خلال الكلمة المقروءة والمسموعة والمنظورة.
٢. توظيف الكتاب والمؤلفين ليكتبوا ما يشوّه صورة الإسلام.
٣. إثارة الخلافات المذهبية وإثارة النعرات الإقليمية والتوجهات، وإحياء النزعات الجاهلية قبل الإسلام كالفرعونية والفارسية والإغريقية ، ثم إبرازها للمسلمين عبر الإعلام على أنها تمثل الإسلام لهدمه ثم القضاء عليه، وذلك بتجزئة الأمة الإسلامية وتفتيتها.
٤. التشكيك في أحكام الإسلام وصلاحيته للحياة، فقد صوروا الإسلام بأنه مفصول عن السياسة.
٥. الطعن في اللغة العربية، وذلك لإحلال الحروف اللاتينية محلها في بعض البلدان الإسلامية.
٦.تجديد مناهج التعليم القائمة على أساس فلسفة الحضارة الغربية.
٧.تشويه التاريخ الإسلامي وذلك بتشويه صورة رموز الإسلام.
٨. محاولة الطعن في القرآن الكريم، والسُنة النبوية.
٩. عملية تشويه نظام الحياة الإسلامية ومحاولة تشويه التراث الإسلامي.
١٠. العمل على نشر الأفكار والحركات ودعمها، كالعلمانية،والوجودية، ونظرية فرويد، ونظرية دارون، والماركسية، والماسونية، والبهائية، والقاديانية.
١١. إبعاد العلماء والمفكّرين المؤمنين عن مراكز التوجيه والسلطة.
١٢. إرسال البعثات الدراسية إلى بلاد الغرب.
١٣. تمكين المستغربين، وتسليمهم المسؤولية والقيادة، لاتخاذ القرارات المحققة لذلك الهدف.
١٤. إنشاء الجمعيات والمؤسسات الثقافية والأدبية والفنية والخيرية وخصوصا النسائية منها.
١٥. الترويج للقيم والثقافات والأفكار الغربية بين المسلمين، وتسويق السلع الاستهلاكية الغربية، والدعوة الممارسات الغربية، وإيجاد المراكز والمؤسسات الثقافية المستغربة.

نستنتج من ذلك أن ما أصاب المسلمين كان سببه عدم تمسكهم بدينهم، وعدم تفقههم فيه وإعراضهم عنه، والجهل بأحكامه، وتقصير من العلماء في إبراز محاسنه وحكمه وأسراره وبيان فضائله الشريفة وهذا يحتاج الى الصدق والصبر في الدعوة إليه، مما أدى إلى التباس الأمور ومن أجل ذلك حصل ما حصل اليوم من الفرقة والاختلاف.

---

(١) حسن بحر العلوم–العولمة بين التصورات الإسلامية والغربية–معهد الدراسات العربية والإسلاميون–لندن٢٠٠٣م:١١٠.

المبحث الخامس: الحلول

إن مسألة التصدي للغزو الثقافي الذي يستهدف المسلمين يحتاج إلى بذل الكثير من الجهد وهو واجب الأمة الإسلامية حتى تعرف دورها، وتدرك واجبها تجاه هذا الغزو الثقافي، وأن تقف منه الموقف الذي يجعلها أهلاً لحمل رسالة الإسلام وحتّى يتأتى لها ذلك لابدّ من اتخاذ الحلول من خلال الطرق الموصلة إلى السلامة من هذا الخطر والبعد عن مساوئه وأضراره فيتلخص في:

١. إحياء دعوة حكم الشريعة بإيجاد الوعي الكافي بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهاج حياة وضرورة حث الشباب المسلم الى التنبه الى المخاطر التي تحدق بهم نتيجة تأثرهم الكبير بمظاهر الغزو الثقافي ومحاولة مجاراة الغرب في كل شيء .

٢. يقوم العلماء والقادة بتحمل المسؤولية لشحذ الهمم وبث روح الترابط بين الإسلام وقيمه ومبادئه في الأمة الإسلامية.

٣. نشر الوعي الثقافي الكفيل بتكوين المسلم المتمتع بالشخصية الإسلامية الحقيقية التي تملك تصوراً شاملاً عن الكون والإنسان، و تأمين الوسائل الإعلامية الحديثة بتقنياتها المتطورة والقادرة على التصدي للوسائل الإعلامية المعادية [١].

٤. التعريف بالتاريخ الإسلامي المضيء وقدرة الثقافة الإسلامية على الوقوف في ساحة الحياة وقدرتها على قيادة الأمة.

٥. إنشاء الجامعات والكليات والمعاهد المختلفة بكافة اختصاصاتها للحد من البعثات إلى الخارج، وتدريس العلوم بكافة أنواعها مع العناية بالمواد الدينية والثقافة الإسلامية في جميع الجامعات والكليات والمعاهد، حرصا على سلامة عقيدة الطلبة، وصيانة أخلاقهم، والواجب التقليل من البعثات إلى الخارج إلا في علوم معينة لا تتوافر في الداخل[٢].

٦. إصلاح المناهج وحسب تعاليم الإسلام، والاستكثار من المؤسسات العلمية التي يستغني بها أبناء البلاد عن السفر إلى الخارج واختيار الكادر الإداري من المعروفين بالأخلاق الفاضلة والعقيدة الطيبة والسيرة الحسنة، والقوة والأمانة.

٧. الرد على أصناف الغزو الثقافي عن طريق دعاة الإسلام، وذلك بكتابة البحوث، لتفنيد شبهات الغزو الثقافي، وعرض الإسلام عقيدة وتشريعا وأحكاما وأخلاقا [٣].

وإن الحلول لا يمكن أن تكون فعالة ما لم يلتق المسلمون على صعيد واحد وعلى هدف واحد ، والالتقاء يجب أن يكون مبنياً على حب الخير والمصلحة لجميع المسلمين دون تمييز[٤].

نخلص من ذلك أن ظاهرة الغزو الثقافي هي معركة لا تخص شعب دون آخر بل هي تخص كل شعوب الأرض، وتشمل كل القوى الديمقراطية والتقدمية وأنصار الإسلام في العالم بتياراتهم

---

(١) عبد الرحمن حمادي – صورة المسلمين في السينما العالمية – مجلة البيان – العدد١٧١– الكويت – ١٩٩٧ .

(٢) سليم علي جواد – نحن والآخر – مجلة الراية – العدد ٢٠٣ – بيروت – ١٩٨٨ .

(٣) منتديات احتاجك – من قسم :البحث العلمي ، بحث علمي كامل ، تقارير جاهزة.

(٤) خطر الغزو الإعلامي والثقافي على المجتمع العربي–بحث منشور على موقع في مجلة النبأ–ختام محمد – www.annabaa.org/nbanews .

الايدلوجية وتنظيماتهم السياسية ونقاباتهم ومؤسساتهم المدنية وعلمائهم المهتمين بالوضع العالمي، المعركة هي ضد الهيمنة لمصلحة عدد محدود من الدول الكبرى والشركات الجشعة المتعدية ،اذا يجب ان نعمل على تحويل هذا الغزو الثقافي الشرس إلى تبادل ثقافي إنساني تسوده المشروعية الدولية والتضامن العالمي واحترام حقوق الدول في تنوع خصوصياتها الثقافية وهوياتها القومية[١].

(١) حسن بحر العلوم-العولمة بين التصورات الإسلامية والغربية-معهد الدراسات العربية والإسلاميون-لندن٢٠٠٣م:١٩٩.

الخاتمة

من خلال ما تقدم تبين أن قضية الغزو الثقافي هي قضية واقعية حقيقية يعيشها العالم وهي بلا شك قضية العصر، لذلك فاثرها لا يقتصر على شباب الأمة العربية والإسلامية .

ثم هناك أمر لابد من طرحه وهو أن الغرب نفسه قد عانى من مسألة الغزو الثقافي ولكنه لم يطرح شعار المعاناة من قضية الغزو الثقافي على هذا المستوى الذي تعاني منه الأمة العربية والإسلامية، والباعث لذلك ليست أسباب نفسية وتاريخية، لأن الغرب يفتقر إلى العمق الحضاري والهوية التاريخية المتميزة اللتين تخشى عليهما إزاء تهديدات الثقافات الأُخرى، فضلاً عن أن هناك من الدول التي أصابها الغزو الثقافي من لا تملك مقدرات السلطة في مجالات القوة والقدرة والمعرفة.

هدف الغزو الثقافي هو خلخلة البناء الاجتماعي لمجتمع الدولة والانحراف بالشباب وهزّ الثقة في صحة الاختيار الإسلامي، ومعنى ذلك أن المعركة تستهدف تحقيق أغراض عملية بالدرجة الأولى، لذلك يتوجه الغزو إلى الواقع مباشرة ليقارع الدولة على أرضها ويحاول ضربها في مواطن قوتها .

كما يهدف الغزو الثقافي فرز قطاعات من الشعب ولاسيّما قطاعات الشباب وعزلها عن الدولة من خلال تحويلها إلى فئات عاطلة فاسدة ومخربة أيضاً .

ومن النتائج التي توصل اليها البحث ان الغزو الثقافي ظاهرة عالمية شاملة لا يمكن الفرار من رؤيتها، لكن ذلك يعني أنها نظام حتمي إجباري، فهناك قيم إنسانية ثقافية ومادية يمكن التفاعل معها دون التضحية بالقيم المحلية والوطنية والقومية مثلما هناك قيم يمكن تجنبها كما يحصل في التاريخ الذي يشهد على بقاء التمايزات حتى في عصر الاستعمار العالمي الذي انتهى.

ومن آثار التغريب الثقافي نجاحه في مهمته في بلاد المسلمين، وذلك تم له من خلال ظهور فئة من أبناء المسلمين اتصفت بجهلها ونفورها وكراهيتها للإسلام ومبادئه وقيمه وثقافته، ومحاربة أحكامه وتشريعاته، وبالمقابل فضلت اعتناق المبادئ والأفكار والفلسفات والثقافات الغربية، وممارسة الحياة على الطريقة الغربية، وتقليد الغرب في الجانب السلبي من حياتهم، والانسلاخ عن التراث، وفقدان الهوية الذاتية، وضياع الأصالة، ومحاربة الظواهر الإسلامية، ونشر الظواهر والمظاهر والممارسات الغربية .

ورغم نجاح تيار التغريب الثقافي إلا أن هناك فئة من أبناء المسلمين وهي النخبة الثقافية التي تنحدر من ذات المبادئ التي نهضت بها النخبة الثقافية في التاريخ الإسلامي ، بقيت ثابتة على إسلامها، داعية إليه، تقف أمام أساليب التغريب، وتفند دعاوى المستغربين، وتعمل على إنقاذ الأجيال الجديدة من سمومهم، عبر محاور التصدي في الداخل والخارج لكبح التهديدات الثقافية الغربية لقيم وسلوك المجتمع في الثقافة والسلوك الاجتماعي وفي الاقتصاد أيضاً عبر طغيان النزعة الاستهلاكية.

وينبغي أن نعلم أن لا سبيل إلى صدّ الغزو الثقافي، إلاّ بتحقيق شروط النهضة، وذلك بالتأكيد على التزام الحذر في التمييز بين الغزو والتبادل، وألاّ يُصار إلى الرفض المطلق، لأن في ذلك قمع الإبداع والحدّ من الحريات وتسويغ الجمود.

المصادر والمراجع

ابن منظور
١.لسان العرب .
سنة الطبع : محرم ١٤٠٥-الناشر : نشر أدب الحوزة - قم – إيران.
أحمد عبد الرحيم السائح
٢. في الغزو الفكري .
إصدارات كتاب الأمة .
حسن بحر العلوم
٣.العولمة بين التصورات الإسلامية والغربية.
معهد الدراسات العربية والإسلاميون- لندن٢٠٠٣م.
حسن حنفي
٤. ما العولمة- حورات لقرن جديد ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ٢٠١٠م.
ختام محمد
٥. خطر الغزو الإعلامي والثقافي على المجتمع العربي.
بحث منشور على موقع في مجلة النبأ- www.annabaa.org/nbanews .
رعد شمس الدين كيلاني
٦. العولمة وتاريخ الصراع مع الغرب.
الوقف السني- بغداد-٢٠١١م.
سليم علي جواد
٧.نحن والآخر.
مجلة الراية - العدد ٢٠٣ - بيروت –لسنة ١٩٨٨ م.
عبد الرحمن حمادي
٨. صورة المسلمين في السينما العالمية .
مجلة البيان - العدد١٧١- الكويت – لسنة ١٩٩٧م .
عبد الرزاق هادي صالح
٩. الحراك الثقافي ظاهرة التأثير والتأثُر المتبادل.
بحث منشور في مجلة المنهاج-العدد٣٢.لسنة ٢٠١٥م.
عبد الله أبو هيف
١٠. الغزو الثقافي والمفاهيم المتصلة به.
بحث منشور في مجلة النبا العدد ٦٣، لسنة ٢٠٠١م.
الغزو الثقافي.
١١. منتديات احتاجك.
بحث منشور على موقع احتاجك ، سنة النشر نوفمبر ٢٠١٦م.
محمد باقر الصدر
١٢. اقتصادنا.
الطبعة الثانية، بيروت، دار الفكر ، سنة الطبع ١٤٢٥هـ.
محمد عمارة
١٣. المشروع الإسلامي للتغيير ومطاعن العلمانيين.

بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية-العدد٣-١٩٩٤م.
محمد عمارة
١٤. الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، مطبعة روز اليوسف ،الإسكندرية ،٢٠٠٣م.
محمد عمارة
١٥.التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية.
بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية- العدد٢- ١٩٩٤م.
نبيل علي صالح
١٦. قراءة في كتاب الغزو الثقافي المقدمات والخلفيات والنتائج.
مجلة المنهاج – العدد: ١٤، لسنة ٢٠١٠م.

صناعة الهوية الثقافية

أثر الثقافة الراهنة في روايات علي بدر

د.عزيز حسين علي الموسوي

جـــــــامعـــــة المثنى/ كـــــــلية التربية

الملخَّص :

هذا البحث قراءة ثقافية في روايتين للروائي العراقي على بدر، تبحث في اثر الثقافة الراهنة في إنتاج هذين النصين، وترصد اثر المثقف في إنتاج ثقافة جديدة للمجتمع، تتجاوز الثقافات الشعبية المرتبكة التي تعكس التحولات الفكرية والاجتماعية والثقافية الطارئة للمجتمعات، التي لا تمثل ثقافة أصيلة فيها، لأن المثقف ينتج الثقافة لا يعيدها ولا يكررها.

الروايتان هما حارس التبغ وبابا سارتر، تناول البحث فيهما الإشكاليات التي برزت وتجلت من خلالها الآثار المباشرة للثقافة المعاصرة في الإبداع الأدبي الروائي، من استعمال التأريخ الشعبي، تأريخ الناس واعتماده وثيقة مباشرة في الكتابة، من دون تخييل للتأريخ، إلى كشف إشكاليات الثقافة المعاصرة في بناء ثقافة الذات الواصفة في بناء السرد، إلى رصد إشكاليات اثر الثقافة المعاصرة في بناء ثقافة الذات الموصوفة، ثم إلى رصد تجليات الثقافة الشعبية في النص المدروس، من اللغة العامية إلى التقريرية في الأسماء والإحداث والأفكار.

A research a cultural reading

concerning two novels for the novelist Ali Bader, searches the contomparory culture in giving the two texts, it sheds light on the educator's trace in order to emerge new intellectuality to the society, overcome national bemused cultures which reflects the social , intellective cultural and accidental change to the societies that the two novels " tobacco ranger and dad " represent an origonal culture within them, since the educator produce culture, niether repeat nor copy .

Sarter tackles the paper he states the problematics that appear due to all the direcct modren results evinced in the literary innovation of novels from using national heritage,history of people and depending on it in writing without imagning the history leads to problematics in modren culture in building descreptive self-culture in narrating construction, that looks at the trace of the problematics of culture in self-building,then to find out the cultural in national intellectuality in studied discourse from slang to reportorial in names , events and thoughts

المقدمة:

تتحول المجتمعات، في ثقافتها وسياستها وحالتها الاجتماعية، وتمر بمراحل من الثقافة فيها الاصيل وغيره، فيتحول الادب معها، لانه انتاج مجتمع وحياة، والاديب يعيش مع ابناء مجتمعه وينتمي اليهم، ويكتب بلغتهم، ويشاركهم في انتاج الثقافة، بناء ثقافة جديدة يشارك في صنعها، وربما تنحدر ثقافات المجتمعات وتصل الى مرحلة من الاضطراب تحتاج فيها الى خلق المبدع وانتاجه الجديد لها.

فالأدبية ليست اعادة الثقافة وتكرارها، بل هي اعادة انتاج الواقع وتقديمه بصيغة تتناسب مع التفكير النخبوي العالي، تستلهم الشعبي فتعيد انتاجه وتقدمه بلغة صافية وسرد عال، والاديب عندما يكتب للشعب ينبغي له ان يكتب بعيدا عن الغوغاء والابتذال، فهو يثبت الذاكرة الجمعية ويعطي الثقافة المكتوبة شرعيتها، لذلك عليه ان يتحول بذاته الفردية الى ذات كبرى جماعية تعكس مرحلة ثقافية عامة.

والرواية اكثر الانواع الادبية مناسبةً لقراءة ثقافة المجتمع وتحولاته، لأنها تعد مجالاً مهماً لمعرفة الذات، فهي ادب اعترافات تكشف الذاتية، وتكشف الغيرية والاخر، وقد مثل على بدر في روايتيه المدروستين، نسقاً ثقافياً مهماً، جعل نصه يصلح للقراءة الثقافية الهادفة، إذ عاد بالروايتين الى حقبة زمنية ماضية، ووازن بين المرحلتين ثقافياً، وهذا ما سيجري كشفه في المباحث القابلة في البحث ان شاء الله.

مدخل الكتابة والثقافة

لقد بات من نافل القول أنَّ الأدب إنتاج تكويني كبير، يرتكز في بنائه على فواعلَ عدّة، أساسها وفاعلها الأهم، الثقافة، وبات من نافل القول أيضاً أنَّ الكاتب ينبثق من سياق ثقافي عام،" فلا يمكن انتزاع الكاتب من الحاضنة الاجتماعية والثقافية التي يشتبك بها، ذلك أنَّ أدبه يقوم بمهمة تمثيلها، وبيان موقعه فيها"(١).

وطالما جاءت الكتابة في سياق فني متساوق مع الثقافي والاجتماعي والسياسي، تنهل منه وتتوجه ببعض موجهاته، لأن الأديب المنتج لأدبه يحاول صهر جماعية الثقافة العامة في ذاته الخاصة ويتمثلها كلّية في عمله، وهو بهذا مدفوعٌ بالبحث عن الهوية، وهذه حاجة جماعية تأتي من المشاركة والتواصل والانتماء، والاتفاق على رموز وإشارات وتوجهات مشتركة معروفة، هي " الرموز والإشارات الخارجة عن الحالات الذهنية الفردية بالتحديد"(٢)، وهي الحالات الجماعية التي تكون جزئيات الثقافة التي تكوّن الكل الذي ينهل منه المبدع/الكاتب.

من اللافت للنظر توجه الكتابة العربية الراهنة في جنسي الشعر والنثر هذا التوجه في الإنتاج، في الشعر جاء شعر العقد التسعيني منجرَّاً إلى الإلحاح على الوصف التفصيلي لوقائع الحياة، إذْ كانت القصائد مولعة برصد الحياة اليومية، وتصوير العوامل المخيفة فيها، ولم يكن هناك قلق منه، وكان الشعر يعكس تداعي الأزمة فيها(٣)، فنقل الثقافة في مفرداتها الواضحة الراهنة من دون تغيير، ومثله الرواية، إذْ ظلّت ترصد الخراب العراقي في أزمات الديكتاتورية والحروب والاحتلال والعنف، ناقلة الصراع الدموي وتحولات المجتمع وثقافته على بشاعتها، ترصد الأجواء الشعبية وتستعمل اللهجة العامية في تراكم أفقي للحوادث، وتنهل من الثقافة في جميع تفاصيلها(٤).

إذْ عكست الكتابة العراقية الواقع العراقي بنوره وظلمته، وعنفه وحروبه، وهذا إنجاز حسن، لكنه انتقل بالكاتب إلى منطقة حرجة، لا ينبغي له الذهاب إليها، فالثقافة على الرغم من أهميتها في إنتاج الإبداع لا يمكن أنْ تطغى على إرادة المبدع وتوجهه كليّاً، وترسم له خطوط إبداعه مسلوب القوة في تحويرها وتوجيهها، لأنه الأديب، والأدبية تقوم على إعادة إنتاج للمرجعية الواقعية وصوغها(٥)، وليس نقلها على نحو حقيقي تام.

الفضل في تخيّر المناسب من الثقافة الموازية، وتثبيت ما يريده الكاتب وتكريسه وإخفاء سواه، الذي يثبته الكاتب هو الخالد، غير الطارئ من حالات الثقافة، لان المجتمعات تمر بحالات طارئة في ثقافتها وأُخرى أصيلة خالدة جوهرية، وثمة فاصل بين الشعبي والجماهيري وبين النخبوي العالي، وليس كل ما موجود في الثقافة هو مادة للأدب التي تشكل الوعي النهائي للناس،

(١) السرد، والاعتراف، والهُوية، عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١١، ٥.

(٢) في الأصول الرمزية للمجتمعات، جون فرانسوا دورتييه، ترجمة: محمد ميلاد، مجلة الثقافة العالمية، ع ١٢٠، ٥٦.

(٣) ينظر: النص والحياة، حسن ناظم، دار المدى للثقافة والنشر، بغداد، ٢٠٠٨، ٣٨.

(٤) ينظر: الرواية العراقية، رصد الخراب العراقي في أزمات الديكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف، سلام إبراهيم، مجلة تَبَيُّن، قطر، ع ٢٤، مجلد ١، خريف ٢٠١٤، ١٧٥.

(٥) ينظر: بناء الرواية، سيزا قاسم، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ٧٤.

إنّ تأريخ الوعي الجمعي يصاغ من قِبل أفراد أذكياء بطبيعتهم أصحاب قدرات خلاقة، يمتلكون المقدرة على التأثير في جسد الجماعة بغية تطويعها، يمتلك هؤلاء المقدرة على تحريك المتخيل الجماعي وتغذيته(١).

ليس الثقافة من تنتج الكاتب كليّاً، فالكاتب هو من ينتج الثقافة في مجتمعه الذي يعيش فيه، وهو الذي يحرك الأفكار ويثبت الرؤى الأصيلة لينتج ثقافة النخبة الواعية، والكاتب لا يلتقط كل ما تقع عليه عينه، ولا يؤرخ للأشياء، لأن " الرواية خطاب جمالي تُقدَّم فيه الوظيفة الجمالية على الوظيفة المرجعية"(٢)، لا تكون الغلبة فيه للشعبي والتأريخي والسياسي، وكأنه نقل مباشر ودقيق للواقع، والمثقف هو من ينتج الثقافة للآخرين، لا يعيد ثقافتهم ويشَّرعها ويثبتها.

لابد لمن يفتش عن الثقافات، في أصيلها وطارئها، وفي عُقَدِ المجتمعات، أنْ يدرسها في الرواية، ويفتش عنها فيها، لأنها العمل الإبداعي الأمثل لكشف الثقافة وبنياتها وال(غيرية) فيها، إذ استحالت الرواية العربية الحديثة إلى أدب الاعترافات(٣)، يمكن من خلالها قراءة المجتمع وثقافته، لـ" وظيفتها في تكوين المعرفة حول الواقع الاجتماعي والثقافي، ورصد تحولاته"(٤)، ولا سيما إذا ما كانت الرواية تستند في كل شيءٍ إلى هذه الثقافة، فلا بد للرواية أنْ تعيد قراءة الواقع وتعيد إنتاجه بحسب رؤية الكاتب ورغبته في إنتاج الثقافة العامة، وسحب الشعبي والهامشي والجماهيري إليها، لا أنْ تنسحب هي إلى ذلك.

المبحث الأول : التأريخ الثالث

يلتقي الكاتب بمادة توثيقية وصفية في اكتشافه لعناصر المواد الخام التي يسعى إلى بناء نصه الروائي منها، هذه المادة هي التأريخ، وهو في نوعين: أمّا أن يكون التأريخ الرسمي المكتوب، وهو التأريخ الأول، وأمّا تأريخ الذاكرة، الشفوية الجمعية، تأريخ الناس، وهو التأريخ الثاني، الذي ينبغي للكاتب إنتاجه وخلقه هو التأريخ الثالث، وهو مجموع من التأريخ والخيال، وهذا هو التخيل التأريخي الذي قال به عبد الله إبراهيم، وهو المادة التأريخية المتشكلة بوساطة السرد، لا يحيل الكاتب فيها على حقائق الماضي، ولا يقررها، ولا يروج لها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسرة لأحداثه (٥)، أمّا إذا اعتمد التأريخ مادةً خالصةً في بناء نصه، ونقله بتوثيقيته ووصفيته، فقد صار ينقل الثقافة المتوافرة عنده بلا تحكّم فيها، وصارت تطغى عليه وعلى إبداعه، وتكون مظهراً من مظاهر هيمنتها عليه، ولا سيما إذا كانت الثقافة تمر بمرحلة من مراحل ارتباكها، أو عدم صفائها.

ثمة تعارض بين البعد المرجعي والبعد اللفظي، أي في كيفية تحول المرئي إلى مقروء(٦)، وهنا تكمن القضية الحساسة في الكتابة، وهي الفصل بين المشهد اليومي والبعد اللغوي له، بين

(١) ينظر: الفكر الإسلامي (قراءة علمية)، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٧، ٢٤٣.

(٢) التخييل التأريخي، عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١١، ٩.

(٣) ينظر: شرق وغرب رجولة وأنوثة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٤، ١٩٩٧، ١٢.

(٤) البناء والدلالة في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط١، ٢٠١٠، ٢٥.

(٥) ينظر: التخيل التأريخي.

(٦) ينظر: الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، ط١ ،٢٠٠٩ ، ٢١.

الموضوعي والذاتي، فالتخيلات التأريخية منشطرة بين صيغتي التعبير: الموضوعية والذاتية، فهي" نصوص انفصلت عن سياقاتها الحقيقية، ثم اندرجت في سياقات مجازية"(١)، وتحولت من اليومي المتناثر في مشاهد الحياة إلى الإبداعي السردي، إذ لا ينبغي إتباع التصوير المباشر للأشياء على إنها الأدب، فالثقافة ليست كلها مادة مباشرة له، وهذا ليس بالأمر السهل اليسير، " إذ تحقق الرواية، مجدداً، رغبة الانتصار للذاكرة الجماعية، عبر تثبيتها في تنويعات مجازية عديدة، وعلائق شكلية وموضوعية مختلفة"(٢)، على الرغم من كون هذه الذاكرة قد تكون توهمات الذات أو مشكلاتها أو ظواهر طارئة في تأريخ الثقافة.

لقد واجهت روايتا علي بدر المدروستان هذا السؤال الكبير، فيما إذا كانت تنقل حقيقة المعاني في صراعات مرحلتها وإشكالياتها، أو تستعمل العلامات الدالة فحسب، لتبني ثقافة خاصة وتصنعها، لا تنقل الثقافة الراهنة.

أول الأمر ما جرى في رواية حارس التبغ، إذ يستمد الكاتب فكرة كبيرة راسخة في ذاكرة الناس ومخيلتهم الشعبية، هي إنَّ تأريخهم الحديث وتحولاته، وسياستهم، تدار من قبل الغرب، وإنهم أدوات لتنفيذ تفكير الغرب فيهم، الذي صنع لهم رموزاً كَبُرت وتلاشت بإرادته، ووضع لهم خطوات حياة لها ملامح خاصة، يقول: " فكثيراً ما نتوهم إننا ندير اللعبة غافلين عن انها هي التي تديرنا، وكثيرا ما نتوهم اننا ننتج قيماً مضادة لتلك التي نشأنا أو أنشأنا أنفسنا على معارضتها..ولكننا في الواقع نستسلم لها"(٣)، فقد جعل الكاتب حياة بطله تتحول في ثلاثة مرات، هي متطابقة بنحوٍ أو بآخر مع حياة الوطن، فسيرة البطل هي سيرة الوطن، إذ تتطابق السيرتان مع نص عالمي غربي كبير، كُتِبَ في وقت آخر ومكان آخر وبيد اخرى، هو نص قصيدة دكان التبغ للشاعر البرتغالى بيسوا، وصورة (التبغجي) فيها، يقول: " حين زرت منزل كمال مدحت في المنصور، أثناء التحقيق في مقتله، وجدت كتابين (...) الأول هو مذكرات عازف الفيولون الفرنسي ستيفان غرابيلي، وكتاباً آخر باللغة الانكليزية، أحمر الغلاف، مرمياً على طاولة صغيرة من خشب الساج في حجرته، وهو ديوان دكان التبغ للشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا، وقد علق على القصائد بقلم الرصاص تعليقات وشروحاً كثيرةً"(٤)، الحياة مقتبسة بتحولاتها من حياة وسيناريو مرسوم ومراحل وتحولات دقيقة واضحة تتطابق مع حياة صنَّفها غيرنا، يقول: " السلطة تقرر ذلك، المخرج هو الذي يقرر، انه مسرح كبير يحدث فيه على الدوام التباس الشكل بالمعنى (...) إنها ليست سوى أداء ممثلين ...لم يكن قبل يومين سوى الموسيقار العراقي حيدر سلمان، اليوم أمر آخر ..عليه أنْ يجد لنفسه أداءً آخر، المسرحية القديمة قد انتهت، سيدخل عالماً جديداً"(٥).

استمد الكاتب هذه الفكرة من فهم مستقر عند العامة شكل مفردة من مفردات الثقافة، هي أنَّ الغرب هو من يصنع لنا حياتنا ويرسم مراحلها المفصلية على نحو دقيق، حدث في تحولات

(١) التخيل التأريخي، ٦.

(٢) الفتنة والآخر، ماجدولين شرف الدين، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط١، ٢٠١٢، ١٠٣.

(٣) حارس التبغ، علي بدر، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ٢٣٥.

(٤) حارس التبغ، ١٢.

(٥) حارس التبغ، ٢٣٥.

التأريخ العراقي الحديث، وصناعة رموزه السياسية والاجتماعية، في سيناريو محكم، فحياتنا متطابقة مع ما يرسمونه، يقول: " يقدم بيسوا في دكان التبغ ثلاث شخصيات مختلفة، وهم عبارة عن ثلاث حالات تقمص، كل شخصية من هذه الشخصيات المخترعة هي وجه من وجوه بيسوا (...) وهكذا قد فعل كمال مدحت، فكانت له ثلاث شخصيات، كل شخصية لها اسم، وعمر، وملامح، وقناعات، ومذهب مختلف عن الشخصيات الاخرى"[١].

نجد مطابقة لافتة للنظر بين حياة بطل قصيدة بيسوا وحياة بطل رواية حارس التبغ، في مراحلها وتحولاتها، مطابقة تامة، قصدية، في فكرة لدى عامة الناس، أو لدى قدر كبير منهم على الأقل، وهي جزء من ثقافة عامة استوحى الكاتب بعض جوانبها في بناء رؤيته ونصها، صرح بها الكاتب في غير موضع.

الرواية نص ثقافي ينبني على عناصر عدة، تستمد الثقافة والواقع أُسَّاً لها، لكن المهيمن المرجعي الذي يطغى عليها ينتجه وعي المؤلف، لا تنتجه العامة، ما حدث لعلي بدر في روايتيه المدروستين انه نقل الثقافة الراهنة حتى صارت روايته " تنتمي إلى الروايات التسجيلية أو التأريخية"[٢]، وربما اعتمدت على وصفية التأريخ وتسجيليته على نحوٍ كبيرٍ.

وفكرة اخرى في الثقافة الراهنة، مفادها إننا نقوم بالحرب بالنيابة عنهم، وندافع عن مشاريعهم، بعيدا عن ديارهم، لخصها الكاتب بفكرة أل (بلاك رايتر)، يقول:" اتصلت بي صحيفة التودي نيوز الأمريكية، وطلبت مني الذهاب إلى بغداد، وكتابة ريبورتاج من ألف كلمة عنه على أن لا ينشر هذا الريبورتاج باسمي إنما باسم جون بار، وهو احد المراسلين المهمين في الصحيفة، وهو ما يطلق عليه في العمل الصحفي البلاك رايتر، وهو كاتب يذهب إلى المناطق الخطرة لكتابة تقرير صحفي عن موضوعة ساخنة لكن التقرير ينشر باسم احد الصحفيين الكبار في الصحيفة"[٣].

ترسخت هذه الفكرة في الثقافة العراقية الراهنة بوصفها طريقة جديدة للاستعمار، أو لتدمير المنظومة الاخرى، العربية أو الإسلامية، أو لمحاربة الإرهاب، في هذه الأرض البعيدة، ارض العرب او الشرق، وهذه الفكرة كانت تستفز الكاتب، وتغضبه- فكرة البلاك رايتر- يقول: " هل دورك في هذا الكتاب عن كمال مدحت هو بلاك رايتر؟ قال لي. "لا .. أبدا .. سيكون الكتاب باسمي هذه المرة" قلت له ذلك (...) أنت تعرف إني كتبت العديد من التقارير باسمهم، لكن هذه المرة أريد أن اكتب هذا الكتاب باسمي"[٤]، وكأنه يرد على الغرب أو الاستعمار له، ولبني جلدته، فعمله وإنتاجه تكون ثمرته لهم وباسمهم، فكرة النيابة عنهم، وفكرة التحرر منها، مرجعيتها الثقافة الشعبية والنخبوية المعاصرة، وفهمها للتأريخ، نقلها المؤلف بوعي الناس لها.

---

(١) حارس التبغ، ١٢.

(٢) جدل الهوية والشخصية في رواية حارس التبغ، علاء مشذوب عبود، مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع ٢، سنة ٤٧، ١يار-آب، ٢٠١٢، ١٦٦.

(٣) حارس التبغ، ١٠.

(٤) حارس التبغ، ٨٦.

لابد من قراءة جديدة للأحداث، الرواية لا تنقل الحدث بل تعيد إنتاجه، على وفق تصورات المثقف (الكاتب) للأحداث، وتعيد ترتيب قيم الذات، تثبت ما تثبته وتترك ما سواه، لتأسيس خيال جمعي جديد ينقل جماليات الإبداع الروائي، مع شروط الوعي الثقافي الكاتب، لان الرواية تؤوِّل العالم لا تنقله.

تَكَررَ استعمالُ التأريخ لا بوصفه مادة للسرد، بل بوصفه تأريخاً بزمان ومكان بلا تخيل ولا كثير من الطاقة الأدبية فيه، يقول مخاطباً زوجته فريدة: " تصوري إنَّ الجماهير تصفق للزعيم قاسم وتقول له: " أعدم..أعدم..لا تقول ما عندي وقت" بغداد بعد الثورة قد تغيرت، لقد أحدثت الثورة زيادة في النزعة الشعبية والجماهيرية وهيمنة الغوغاء على الشارع (...)، أما الثورة فلا تفعل شيئاً للناس على الإطلاق، ذلك أنَّ البيوت متداعية وسط سحب من الغبار الامغر، والدكاكين رديئة التجهيز، وهي أشبه بمكعبات ينقصها الوجه الأمامي"[١]، هذا النص مكتوب بتقريرية كبيرة، هو تأريخ فحسب، يصف زمناً معيناً على نحو من التفصيلية العلمية، وهذا مُشكِلٌ، إنَّ الاختلاف في الكيفية التي يتعامل بها المبدع مع التأريخ التي يمزج فيها بين الحقيقة التأريخية والعلامات الدالة، أهم ما يُنظر إليه في بناء النص الروائي الذي يستعمل التاريخ مادةً له، لا أنْ يوردَ التأريخَ دقيقاً مفصلاً.

في رواية بابا سارتر، استلهم المؤلف فكرة من الثقافة العامة المعاصرة، فكرة قد تكون شعبية، وقد تكون نخبوية أيضا، هي أنَّ الغرب يفهمنا جيداً، ويسيرنا من حيث لا نشعر، ويتركنا نعيش حالة من تصديق أنفسنا، باننا نخدعه أو نتغلب عليه، والحقيقة (في الثقافة العامة) أنه يتظاهر بتصديقنا، يقول: " إلا إنها(الفرنسية) تظاهرت بتصديقه، والإيمان بفلسفته، وجنونه، وحماقاته، وهي أحياناً بعد أن تنزلق من السرير لترتدي (...) وسط الحجرة، تعترف له بأنها هي أيضا شعرت بشيء غريب غير معقول (...) غثيان"[٢].

كانت تخدعه، تتظاهر بتصديقه ومشاركته الفلسفة والإحساس، وهي على العكس من ذلك، فهي الغربية التي تسايره.

فكرة أنَّ الغرب يتظاهر بتصديقنا في ثوراتنا وأفكارنا وسلوكنا السياسي، فكرة مستوحاة من الذاكرة الشعبية التأريخية، التي استلهم الكاتب بعض جوانبها.

ومن التاريخ ما وَظَّفَهُ الكاتب، وهو من الثقافة أيضا، انه أراد أن يكرس حَسَنَةَ في تأريخ وطنه في يوم من الأيام، وهي توافق أبناء الوطن، وابتعادهم عن العنصرية والفوارق الدينية والقومية، يقول: " في الواقع لقد أصبح الاثنان، عباس فلسفة وسلمان أهم مثقفي الستينات فيما بعد، الأول: كان قد تزوج من كركوك إلى بغداد، ليصبح شاعرا (...) وكان يسمي سارتر ذلك الوقت بـ(كاكا سارتر). أما الآخر فقد جاء من الشطرة إلى بغداد بقليل من المال، ليدرس في الجامعة"[٣]، إذ جمع الكاتب ابن الشمال بابن الجنوب في وسط الوطن الواحد، وقد كرس هذه الفكرة – تأريخ وحدة الوطن – من خلال مكوناته الأساس، وهي ثقافة راهنة، أو مطلب ثقافي

(١) حارس التبغ، ١٩٠، ١٩١.

(٢) بابا سارتر، علي بدر، دار رياض الريس، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ٤٨.

(٣) بابا سارتر، ٤٩.

راهن، عندما جعل بطلها الذي تحول بين (اليهودي والشيعي والسني) يصادق الكردي، وكأنه – الكاتب – لم ينس (المكوِن) الكردي، على لغة الثقافة الراهنة، وبتقريرية واضحة.

يغترف الكاتب من تاريخ الناس مجددا، من الثقافة الراهنة والتأريخ، وهي فكرة ذوبان الأديان والطوائف في وطن واحد، واختفاء الفوارق بينها، يقول: " مسيحية...ها. مسيحية وتحبين مسلم؟" قال. صمتت. لم تشعر بأي ارتباك، (...) كنت أظنك لا تفرق بين مسيحي ومسلم" – " وأنت لا تفرقين؟" – حين أحب لا افرق... الحب لا يفرق"."[١].

هذه ثقافة تواجه الثقافة الطاغية في العصر الراهن، لكن بتقريرية ودافع معروف، فالحادثة التأريخية أو الثقافة التي سادت في تأريخ معين لا تطرح بحادثتها، ولا بصورتها الحقيقية، بل بسردية وتخيل، بما يبعدها عن التقريرية.

المبحث الثاني : ثقافةُ الذاتِ الواصفةِ

الرواية هي النص الأحسن، والمجال الأفضل لدراسة الثقافة وحيثياتها، لأن الرواية أدب اعترافات[٢]، تشكل الذات بنحوٍ أو بآخر، والمجتمع، فهي تعطي المعرفة الكافية حول الواقع الاجتماعي والثقافي للمجتمع، وكشف تحولات تأريخه وانقلاباته، ثم لمعرفة الآخر، لان فضاء الرواية هو " الفضاء الأمثل لتحقيق الـ(غيرية) بمختلف تجلياتها، فهو فضاء امثل، لأنه يحتضن الصلات المشكلة لموضوعات الصراع والحب والعنف والصداقة والأحقاد والرغائب ذات الطبيعة الاجتماعية والنفسية والفكرية، من هنا يصبح الأجدى الحديثُ على "مجتمع السرد"."[٣]، لا الحديث على شخصيات وزمان ومكان وحدث وحوار يقوم عليها السرد، ومجتمع السرد هذا هو المجال الأجدى لفهم الغيرية والذات والثقافة.

كشفت روايتا علي بدر المدروستان عن مشكلات ثقافية واجتماعية مهمة، تعكس ثقافة المجتمع في مرحلة الكتابة، وتعكس الاتكاء الكبير على هذه الثقافة في إنتاج النص الروائي، مشكلات في الذات التي تصف الأشياء، وبما يلفت النظر، أولها قضية الذكورة والأنوثة، والنظرة إلى الآخر بوصفه المؤنث كثيراً، وهذه جزئية من الثقافة، إذ جاء اللقاء بالآخر في هاتين الروايتين يدور في حدود الأنا ذكر والآخر أنثى، وينتهي بغلبة الأنا (جسدياً) واستغلاله الأخر غالباً.

التركيز على تقديم الآخر جنسياً يكشف سمات الواصفة، لا سيما إذا كان الوصف من نوع الانتشاري، وهو ذلك الوصف" الذي يراكب الأشياء والمشاهد واللوحات، بشكل يسمح له أنْ يصير محوراً مهيمناً يخضع لمشيئته محور السرد"[٤]، بما يصنع التشبُّع في النص.

---

(١) بابا سارتر، ٢١٠، ٢١١.

(٢) ينظر: شرق غرب رجولة أنوثة، ١٢.

(٣) الفتنة والآخر، ٣٤.

(٤) وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط١، ٢٠٠٩، ٥٤.

لقد طرح علي بدر في روايته علاقة خاصة بين أنا البطل والذات الاخرى، تقوم على تكريس الرجولة والأنوثة، يتغلب فيها البطل دائماً، ويمتلك الأنثى في كل زمان ومكان، ويظل هو المسيطر في النهاية، فهو يجد المرأة في كل مرحلة من مراحل الأحداث، وكأنها حالة يومية عنده، يمتلكها جسدياً، من دون مسوغ لهذا الامتلاك، إذ نجد الجنس وممارسته في كل مفصل من مفاصل الروايتين(١)، وبما يشير تكريس الذكورة تجاه أنوثة الآخر، وربما يجري فهم الآخر ولا سيما الغربي منه على انه الأنثى أو التفَوق عليه من خلال انتصار ذكورة العربي الشرقي في نوع من إعلان التفوق، وهذه سمة ثقافية في أدب الرواية العربية(٢).

انتشرت مشاهد النساء في ثنايا الروايتين، من الزوجة إلى بائعات الهوى في الملاهي وخارجها، إلى الصحفيات والموظفات، بما يعكس التشبع بصورة المرأة الرخيصة (الكلام هنا على العاهرات)، في وصف سينمائي يستمد تفاصيله من صورة الراقصة وبنت الليل في الثقافة المعاصرة، التي أنتجتها السينما العربية المباشرة، يقول: " في حين كانت مغنية بدينة، ذات أفخاذ بيضاء، وصدر ممتلئ، وشعر احمر ناري، تتأوه في المايكروفون بصوت مفجوع ودنيا الملهى مقلوبة،(...) وقد كان مولعاً براقصة آثورية صغيرة، يلقبها أهل الملهى، بـ(وزة)، كانت وزة بيضاء متميعة، كل شيء يهتز فيها مع علكتها، صدرها، عجزها..."(٣).

إنّ البغي بوصفها شخصية روائية، تكشف الذكورة في المجتمع(٤)، وطغيانها عليه، كما إن الجنس الطافح هنا في النصوص يكشف ثقافةً وعقداً اجتماعية تنتمي إلى الثقافة العامة التي استمد الكاتب بعض جوانبها، وهذا ما نجده في مفاصل الروايتين في الأماكن العامة والرسمية، والمباني المهمة والشوارع والفنادق والمقاهي، ولا يخلو منه مكان أبدا، يقول:" شعرها منسدل على الجانبين، خلعت سترتها، خلعت قميصها وبنطلونها.. التفت حول جسده (...)، مدَّ يده يتحسسها"(٥)، إن الوصف في الرواية " يحدد نوعية الأشياء من حيث دلالتها الاجتماعية، ونوعية تفكير الذات المستحضرة لها، وتكوينها النفسي، وانتماءاتها الطبقية"(٦)، وكل ما يشير إلى طريقة تفكير الذات الواصفة وثقافتها، ولا يمكن أن يندرج وصف الجنس والأنوثة، إذا ما تشبّع به النص إلا في إطار أخذه حيزاً في الثقافة التي ينهل منها الكاتب في النص السابق وغيره من النصوص كثير في الروايتين، وهي ثقافة اما ان تكون في اطار النظرة السالبة للآخر الغربي في التفوق عليه وامتلاك أنثاهم وهذا حدث مع النساء الغربيات في الروايتين، وأما ان يدل على عطش ونقص في تحقيق الرغبات الإنسانية والاجتماعية، وهذا حدث للنساء غير الأجنبيات ممن لا يمثلن الآخر، وكلاهما حاصل في الروايتين المدروستين.

---

(١) ينظر: حارس التبغ، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٤٠، ١٣٨، ٢١٠، ٢١٥، ٢٢٦، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٦١، ٦٢، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٩٩، وبابا سارتر، ٨، ٢٥، ٤٤، ٤٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ١٠١، ١١٧، ١٣٠، ١٣١، ١٧٦، ١٨٨، ٢٠٠، ٢٠٧.

(٢) ينظر: شرق وغرب رجولة وأنوثة، ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦.

(٣) بابا سارتر، ٥٨.

(٤) ينظر: الراية العربية والمجتمع المدني، نبيل سلمان، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٠، ٢٣.

(٥) حارس التبغ، ٢٥٠، ٢٥١.

(٦) وظيفة الوصف في الرواية، ٢٣.

وملمح ثقافي اجتماعي آخر، هو تكريس الخمرة وتناولها، والتركيز عليها في بناء السرد، وكأن الخمرة وردت في كل صفحة من صفحات الروايتين، وكأن النص يفرِّغ عقدة وحاجة ماسة آنية إلى حرية الشرب، وهي عقدة في الثقافة المعاصرة، يقول: " في الطائرة كان التزاحم اشد، (...) كنت أتممت شرب علبة البيرة المثلجة ورميتها فارغة في كيس اسود قربي، فالتفت الصحفي الذي اجهل اسمه وسألني فيما كنت أريد واحدة اخرى، فتح سدّادتها وناولني إياها، كان جدارها باردا وعليها قطرات ندى صغيرة"[١]، هذه في الطائرة، وهي حالة تتكرر في أكثر الأمكنة رسمية وعمومية، مثلاً، في مكتب محام مشهور في بغداد، يقول: " قلت بينما كان جواد يصوب نظراته إلى حجرة صغيرة بابها نصف مفتوح، تضوع برائحة الويسكي"[٢]، وفي المنازل وفي كل مكان، يقول: (" ثم نهض من مكتبه واتجه نحو الزاوية، وجاء بكأسين من الويسكي. – " هل تشرب؟" قال – " لا " فناول الكأس إلى نونو")[٣]، لقد أكثر من توزيع حالات الشرب في أماكن كثيرة في الروايتين في حالة تلفت النظر، وتنقل ثقافة مكتسبة من الثقافة المعاصرة للمبدع.

نشر الحانات والمشارب مع تسلسل الأحداث في مراحل الروايتين، يصف (المنطقة الخضراء) في العراق قائلاً: " توجد هنا سبع حانات، وديسكو ليلة الخميس، بار رياضي، حانة بريطانية، حانة فوق السطح تديرها جنرال الكتريك، وحانة مقطورة تديرها شركة بكتيل"[٤]، كل هذا يؤشر حاجة ثقافية واجتماعية بارزة في المجتمع، تعاني منها الذات الواصفة، في رغبتها إلى بعض الأشياء، رغبة اجتماعية وتوق إلى الحرية المجتمعية، مصدرها الثقافة العامة للناس، التي نهل منها الكاتب بكرم، من سمات المجتمع، وعامة الناس فيه، ضياع الهوية، إذ يتذبذب الناس بين التمسك بالتراث، وتركه، ولأن الكاتب تأثر بثقافة مجتمعه المعاصرة، وجدناه يتذبذب بين حب التراث وتركه، وهذا يدخل في جدل الهوية الذاتية ثقافياً أيضاً، وهي أزمة ثقافية جديرة بالدرس.

تجسد موقفه المحب للتراث في أماكن عدة، أهمها حالة حب بطل رواية حارس التبغ لـ(فوزية)، ذلك الحب الذي ختم به حياته، ووجد معها الصفاء الذي أغناه عن كل الحب الذي مر به، ولم يوصله إلى ما وصل إليه معها، ومزية (فوزية) التراثية: أنها ابنة الريف النقية، ابنة الحياة العراقية الأولى، الحياة بدرجة الصفر، بإنسان من دون أيديولوجيا ولا توجيه، يقول: " وقد اندهش لرؤيتها، اندهش من بشرتها الطرية الصافية، والبريق اللاصف في عينيها، (...)، لقد أحبها من النظرة الأولى، لقد أحب روحها الفطرية الريفية البدائية التي تطبع كل شيء فيها، (...)، وإن كانت أمية مقهورة، فقد كانت منتشية متلذذة إلى أقصى حد، (...) هذه الروح كانت متوائمة مع الحياة الطبيعية"[٥]، هذه سمات تراثية موجودة في تأريخ وطنه، وكأن (فوزية) العودة إلى فطرة هذا الوطن، وأصالته.

(١) حارس التبغ، ٧٤، ٧٥.

(٢) بابا سارتر، ٢٨.

(٣) بابا سارتر، ٣٩.

(٤) حارس التبغ، ٨٤.

(٥) حارس التبغ، ٣١٢.

يقول في مكان آخر: " كتبت إلى فريدة: (لقد أحببت هذه الصبية من كل قلبي، لم أكن يوماً مندهشاً أمام امرأة مثلما أنا مندهش أمامها (...) لها معرفة فطرية حتى في الجنس، معرفة لم تفسدها الحياة الحضرية أبداً، هذه الأمية تعلمني الحياة من جديد"[١]، فوزية هذه- التي جاءت من الريف – جاءت بها زوجته نادية، من إحدى القرى، صبية، بوجه اسمر، يقدمها السرد على إنها ارتباط بتراث الوطن وأصالته وخصوصيته الثقافية، يقدمها بصورة الحل والسعادة.

والمجلى الآخر للتمسك بالتراث، زوجته الأولى (فريدة)، إذ أبقى عليها زوجةً في مراحل السرد كلها، على الرغم من انتقاله بين زوجات عدة، وهذا يُقرأ نقدياً تمسكاً بالتراث، وارتباطاً بجذره الأول، لا سيما إنها مَن أعادت الوثائق المهمة والرسائل التي شكلت أساس كتابة حياة الموسيقار وتأريخه.

والملمح الآخر للتمسك بالتراث، عمله على إنتاج موسيقى جديدة مرتبطة بالتراث، يقول: " لقد شعر بفرح كبير، بسعادة طاغية وهو يكتشف هذا العالم، شعر بأنه قادر على إظهار الإمكانية القوية لآلة الفيولون التي تقترب حسب رأيه من الصوت البشري وفي الوقت نفسه يمكنه المحافظة على الخصوصية العربية للموسيقى"[٢]، حرص على ربط موسيقاه بالتراث الموسيقي العربي والعراقي، وبحث عنها في هذا التراث كثيراً، يقول: " دون شك.. كان يريد للثقافة العربية تكون حاضرة في موسيقى عربية، أو موسيقى كلاسيكية، وهو يؤلف كان يشعر باشتعال الأصابع بالدفء الروحاني للصحراء"[٣]، لكنه وفي الوقت نفسه، كان ينحرف عن التراث والتمسك به، ويستعمل اللغة الأجنبية في عملية السرد، بأن يطلق اسماءً أجنبية على المطاعم والفنادق والحانات، في الروايتين على نحو عام، في مدن عمان ودمشق وبغداد، وكأنه يكرس اللغة الاخرى.

ونجده يغادر التراث والماضي في مكان آخر، بأن يقطع العلاقة بالآباء، قول: " لقد كره عبد الرحمن أمه كرها لا صفح عنه، ويتفاقم هذا الكره في ظروف القسوة والعنف، لقد كانت أمه اشد الكائنات رقة (...)، إلا انه كان قد انتزعها من طبيعتها الجميلة الهادئة الحميمة عنف ابنها"[٤]، هذه المشاعر من الام تُقرأ مشاعراً بإتجاه الماضي والتراث، يقول : " ومنذ ذلك اليوم بدأ كرهه لامه وابيه تتزايد، لم يكن يريد ان يشعر انه ثمرة اتحاد قائم على الاثم، ومتأصل بالدم، وانه فاسد ومثير للاشمئزاز الى الابد"[٥]، ومثل هذا الاحساس يتوجه به البطل الى جده، وقد فارق دنيا السلطة والجاه، يقول: " كان يريحه ان يرى عائلته وقد هبطت الى الدرك الاسفل، ولم تعد لها هذه الهيبة والأبهة التي كانت لها يوما من الأيام، فنجده لم يعد يتكلم كثيراً، وقد نحل عوده آخر أيامه، وتهدل شاربه"[٦].

(١) حارس التبغ، ١١٣.

(٢) حارس التبغ، ٢٠٨.

(٣) حارس التبغ، ٢٠٩.

(٤) بابا سارتر، ١٦١.

(٥) بابا سارتر، ١٦٢.

(٦) بابا سارتر، ١٨٤.

ثمة تعارض في الموقف من التراث، بين السلب والإيجاب، ينم هذا عن صراع في الذات، صراع الهوية، ازدواج الهوية وتذبذبها بين القديم والحديث، وهي ازمة في الثقافة التي استقى منها الكاتب ادبه، كشفت الإشارات التي وردت في الروايتين المدروستين الثقافة التي سيطرت على تفكير المبدع وقادت قلمه إلى هذا الاتجاه في نصه المكتوب، ان الاشياء " لا تقول لنا ما تعانى وما تفكر، لأنها لا تعانى ولا تفكر، غير انها تقول لنا ما نعانى وما نفكر به، وتساعدنا في الوقت ذاته، على قول ذلك"[١]، وقُدمت الذات الواصفة على النحو الذي ظهرت فيه.

المبحث الثالث : ثقافة الذات الموصوفة

اتبع الكاتب طريقة خاصة في بناء السرد، وبناء روايته عموماً، طريقة توحي بأنه ينهل من ثقافة مجتمعه المعاصر، بما فيها من مرتكزات قد تكون طارئة لا اصيلة، تجسدت هذه الطريقة في بناء وصفه للشخصيات والاشياء، الذات الموصوفة، هي ثقافة الجمهور أو الشعب أو المرحلة، منها ما نجده في بناء الشخصيات التي تمثل الآخر والامكنة والازمنة.

ابرز هذه الاتجاهات في الثقافة المعاصرة، صورة اليهودي النمطية، ذات الابعاد التي تكاد تكون معروفة ومستقرة في الثقافة العربية، اذ كانت صورة غير حسنة، وربما كانت قبيحة الى حد كبير، يقول: " وفي يوم من الايام كان شاؤول قد طرد سليم الذي كان يعمل في متجره، وهو اليهودي الكريه، الذي كان يضع نظارتيه على انفه وينظر من الاعلى مثل قنفذ، وحين كان يتكلم فإنه يُخرج الكلام من انفه، ولم يكن سليم يحب ابراهيم، فقد كان يظنه مخادعاً كبيراً، جاء ليسلب رب عمله ماله لقاء تصاوير ورقية لا تساوي شيئاً، وفي صباح يوم السبت، انقذف سليم من باب المتجر ليسقط على وجهه في الشارع، فسقطت نظارته من أنفه على الارض، وخرج شاؤول وراءه يزبد ويربد: " لك سليم تبوقني، آني الي سويتك آدمي."[٢]، سليم هذا يهودي جاءت شخصيته ثانية في السرد، قدمه الروائي على هذا النحو من القبح وسوء الخل (يسرق)، ومثله شاؤول، وهو الشخصية اليهودية الاهم في الرواية، التاجر البخيل، الذي يصرف مالاً طائلا للحصول على صور اباحية من اسماعيل، شاؤول اليهودي الذي يخاف زوجته خوفاً شديداً[٣]، شخصية بشعة في الرواية، يقول الروائي: " – " علينا ان نصلح التأريخ لا ان نقتله". هكذا قال شاؤول وهو يلمظ بلسانه الذي كان يخرج بين آن وآن ليبلل شفتيه، كان يخرجه مثل جلدة حمراء مسلوخة، بينما كانت عيناه تتلاقطان خلف النظارات الطبية السميكة، عينان مسطحتان لا حياة فيها، يتحركان يميناً وشمالاً مثل خرز لدن، بينما اختفى حاجباه خلف اطار النظارة البلاستيكي الاسود، ولم يظهر منهما سوى عروتين مسلوختين تتحركان بصورة منتظمة"[٤]، شكل قبيح وبخل وبشاعة وحيلة وغدر وخوف وضعف عام، هذه مكونات صورة اليهودي في هذه الرواية، وهي مكونات صورة اليهودي في الثقافة المعاصرة، تكملها النظرة اليه بأنه الغني الذي يعرف كيف يُدار المال، ويُجمع ويُنمى، يقول الروائي: " وما ان دخل الاثنان من البوابة المصنوعة من خشب الصاج المشرَّج، بعد ان اجتازا الحديقة الشاسعة، حتى احس اسماعيل بدفء المكان،

(١) الشعري، ميكال دوفرين، ترجمة: نعيم علوية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع ١٠، ٤٨.

(٢) بابا سارتر، ٨١.

(٣) بابا سارتر، ٨٠.

(٤) بابا سارتر، ٨٣.

وبالحرارة المنبعثة من الوجاغ الذي يتوسط الصالة، وكانت الصالة مؤثثة تأثيثاً جميلاً، في كل زاوية من زواياها الواسعة هناك مكتبة عظيمة من خشب السنديان، كانت المزهريات المليئة بالزهور النادرة تصطف عند المدخل المرقوم بخشب الصاج، فجلس كلاهما على أرائك وثيرة مفروشة بالسجاد الإيراني الناعم بصورة متقابلة، كانت الستائر الحريرية الى يمين اسماعيل.."[١]، هذه الصورة البيت اليهودي، بيت كبير فيه من الاثاث الجيد والنفيس، صاحبه غني متمكن من المال وصونه وحفظه، هي صورة استلهمها الروائي من الثقافة المعاصرة العامة، ولم يتدخل بها بما يتناسب مع السرد ومقومات ادبيته.

تمثل شخصية اليهودي محوراً للصراع الحضاري والثقافي بين ثقافتين متنازعين، لم يستطع المؤلف الخروج برسمها عن نمطها المألوف العام، كما انه استعمل لها نوع الشخصية المسطحة، ورسمها من الخارج، ولم يعطها فرصة لتنمو وتتطور، انها ثقافة الذات الموصوفة، وهي من ثقافة الناس.

من الصور النمطية كذلك، صورة شخصية المرأة في الروايتين، فقد ركز على الوصف الدقيق لها في تفاصيل الجسد، من دون وصف العقل، وطريقة التفكير، فالراقصات والمغنيات في الملاهي وصاحباته اللاتي يصادفنه في عمله وسفره وفي اقامته، يركز على جسدهن كثيراً، ويستمد صفات الجسد من الثقافة المعاصرة، في السينما والثقافة بعامة، يقول: " كانت (نانسي) نموذجا طاغيا من الانوثة والجاذبية: كانت طويلة، سمراء، نحيلة، رقيقة بملامح ناعمة، لها بنية تصلح لأن تكون عارضة أزياء، كما إنها جذبتني ايضاً بوجهها الذي يرشح عذوبة ورقة، وبجسدها المتناسق تحت ملابسها الأنيقة"[٢] ، نانسي هذه امريكية من اصل فلسطيني، صورها الكاتب على هذا النحو، وهي من صورتها في الثقافة المعاصرة، قبل ان يخلقها المبدع، صحفية متحررة، ركَّز الكاتب على جسدها قبل كل شيء.

أمَّا ريجينا، وهي من تلكيف، فقد جاء وصفها يقتصر على جسدها فحسب[٣]، أمَّا بنات الليل وبائعات الهوى، فلهن صورة نمطية واضحة جدا، يجري التركيز فيها على الشكل الخارجي فيها، في مفردات صورة شاعت واستقرت في الثقافة المعاصرة، يقول: " اقتربت واحدة منه، وسحبته من ساعده، كانت رائحة السكر تفوح من فمها، كان وجهها ربلاً، وقد غطته بالمساحيق، بينما كان شعرها مصبوغا باللون الاحمر الناري، لم تكن ترتدي سوى (...) داخلي يكشف عن نهديها الضخمين من الاعلى، وساقيها السمينين من الاسفل، وكان شعر ابطها تفوح منه روائح داعرة"[٤].

اما الايرانية، فكانت طويلةً، وجهها مدوراً، عيناها سوداوان واسعتان[٥]، اما الراقصة في الملهى، فصورتها لم تكن بعيدة عن النمط العام في الثقافة وفي التصور لهذه الشخصية، يقول: "

(١) بابا سارتر، ٨٦.

(٢) حارس التبغ، ٣٤.

(٣) بابا سارتر، ١٧٥، ١٧٦.

(٤) بابا سارتر، ٨٨.

(٥) حارس التبغ، ٢٤١.

في حين كانت مغنية بدينة ذات افخاذ بيضاء، وصدر ممتلئ، وشعر احمر ناري، تتأوه في المايكروفون بصوت مفجوع"[١]، في هذه النماذج وسواها من نماذج اخرى، اعتمد المبدع الذاكرة العامة والثقافة العامة في رسم شخصياته من النساء، في صورة نمطية مستقرة هي صور المرأة الغربية والراقصة والعاهر.

ومثلها صورة (الحرامي) في الرواية، فقد جاءت نمطية وكأنها من ذاكرة الاطفال وعامة الناس، جواد الذي كلفه (حنا) بمرافقة الراوي في رواية (حارس التبغ)، يقول: " كان لجواد وجه شبيه بوجوه النشالين: الملامح المجعدة القاسية، السمرة الضاربة نحو الاحمرار، والشارب المتهدل المصفر بسبب التدخين"[٢]، ومثلها صورة الشرطي، نمطية واضحة المعالم مسبقاً، يقول: " وفي الركن كان ثمة شرطي يقف بصورة منتصبة، كان شرطياً فارع القوام، يلف على بطنه حزاماً عريضاً، وكان بنطاله الكاكي ضيقاً من الحجل، يكاد يلامس البصطال العليا، وقد وضع المسدس المزيت من الجهة اليسرى من خاصرته، وكان يمسك بيده القوية عصا الجوز الغليظة المحززة، وينظر بصورة مباشرة الى الامام"[٣]، هذه الشخصيات لا تختلف في طريقة عرضها الخارجي، لم يحللها المؤلف من الداخل، اعتمد في بناء شكلها الخارجي على انماط مستقرة ومعروفة في الثقافة العامة.

اما شخصية المثقف، فقد انتزعها المؤلف من الثقافة العامة ايضا، اذ جاءت مستغَلة من السلطة، مغلوبا على امرها، خاضعة بالخوف، جسدتها حالة الموسيقار كمال مدحت مع صدام حسين في رواية حارس التبغ، إذ عزف له اكثر من مرة مع عدم قناعة بهذا الرئيس غير المثقف، يقول: " كانت بغداد ذلك الوقت تحتفل بذكرى النصر على ايران، وقد بدأت الاحتفالات اسبوعاً كاملاً، وقد وقف كمال مدحت امام صدام حسين للمرة الثانية بيوم النصر، امام قوس النصر الذي شيده صدام لهذه الذكرى، (...)، كان صدام سعيدا جدا، عيناه تلصفان من البهجة والفرح، كان هناك عدد من المهنئين بينهم فنانون ومسرحيون وكتاب ومعماريون واطباء، تقدم الموسيقار نحوه، (...) صافحه وقد احنى برأسه كما يفعل اثناء اداء موسيقى، قال له: " اهلا وسهلا .. نريد حفلة خاصة، ان تعزف لنا في القصر الجمهوري بيوم النصر" " حاضر سيدي.. " قال ذلك مبتسماً"[٤]، هذه العلاقة بين المثقف والسلطة مستقرة في الثقافة العراقية الراهنة، في ان المثقف مسحوق مغلوب على امره، يأتون به ليعزف ويرسم ويغني ويقرأ الشعر، أو ليأخذ نصيبه من القمع اذا ما رفض أو تذمر، ها هو الموسيقار يعزف امام السلطة على عدم قناعة بها.

المبحث الرابع : تجليات الثقافة الشعبية

لقد تجلت الثقافة الشعبية في صور ووجوه عدة، عكست تأثراً كبيراً للمبدع بهذه الثقافة الراهنة، وكأنها وجَّهت كتابته وابداعه وجهة خاصة، إذ ظهرت على صورة اللغة العامية الشعبية المستهلكة عند عامة الناس، وصورة الخلط بين التفكير النخبوي الفلسفي العلمي والتفكير الشعبي،

(١) بابا سارتر، ٥٨.

(٢) بابا سارتر، ١٧.

(٣) بابا سارتر، ٢٤، ٢٥.

(٤) حارس التبغ، ٣٠٥، ٣٠٦.

وصورة التعبير بتقريرية واضحة باستعمال الاسماء والاحداث والافكار، وفي بروز الأدب ميداناً للصراع الإنساني، بين الأيديولوجيات، وصارت الأنا تطفو على السطح، وتطغى على الذات الجماعية الكلية.

استعمل الروائي اللغة العامية في حالات، منها، انه اسندها الى الشخصية الشعبية، ذات التفكير الشعبي المغرق في محليته، إذ عبَّر عن الشعبي باللغة العامية، ومنها، انه اسندها الى شخصية الآخر، المختلف فكرا وعقيدة، وكأنها تمثل خصوصية هذا الآخر في ارتباطه الشعبي العميق القديم بهذا الوطن، كثقافة اليهودي والموصلي والبغدادي المتجذِّر ببغداديته، لكن نقل الافكار باللغة العامية لا يعني نجاحاً في ايصال الفكرة والمعنى، الذي ينبغي للكاتب العناية به في حواراته هو كشف طريقة تفكير المتحاورين من الشخصيات، وهذا ممكن باللغة الفصيحة العالية المشرقة، طريقة التفكير الشعبية لا تلتزم لغة عامية، فاللفظة ليست هي القيمة، القيمة في المعنى، والحفاظ على اللغة سليمة عالية من مميزات النصوص المكتوبة باللغة الفصيحة، وربما تنجح اللغة الفصيحة في نقل الافكار الشعبية والخاصة والمحلية اكثر من نجاح اللغة العامية، لغة المقاهي والحارات وشتائم الناس، يقول الروائي: ((" ثم صرخت بوجهه: " لك ..سامي.. بقة انت اشجايب لي..مايكفيني عجاياك بقة.." " حوري أشفارق لك..قابل اخليه يموت بالمطر"))[١]، جاء الخطاب هنا باللغة العامية، بقصد الربط بين الخطاب وبين اصحابه من الثقافة الاصلية في بغداد، الشعبية، فالمتخاطبان من اليهود االبغداديين وهذه لغتهم العامية، لجعل ثمة تناغم بين الشخصية وصيغة الخطاب، وتناغم بين الصوتين، وتكرر هذا في قوله: ((" الكتب شللك بيها قابل انت تقرأ انكَليزي" " يمعود شقره انكَليزي انوديها للسوق، وانبيعها..ماكوشي يطلع من بيت اليهود ما ينباع ".))[٢]، هذا حوار بين السراق، (يفرهدون) بيوت اليهود، وربما كان مستوى الحالة الاخلاقي ومستوى المتحاورين جعله يستعمل اللغة العامية، لكن هذا لا يشفع للمؤلف، لان اللغة الفصيحة تفي بنقل الحالة وتوصيلها.

لكن الحالة الاهم في استعمال اللغة العامية هي اسنادها الى البطل، وهو الشخصية المثقفة الاخطر في الرواية، يقول : ((" وقد دار بينهم الحوار التالي: " انت موسيقي مهم ونحن نسفرك على اسرائيل.." " اروح لاجئ ..اصير منفي وانا عندي بلد..بلدي هو.." " مابلدك هذا..يجي يوم راح يقولون لك فيه اطلع من هنا.. بلدك هناك..اليوم انا اقول لك هذا..ولكن بعدين هم راح يقولون لك روح هناك.."))[٣]، لم تشفع اهمية الشخصيتين المتحاورتي في النص بإستعمال اللغة الفصيحة، جاء الحوار بالعامية على الرغم من اهميته ثقافياً وسردياً.

في هذه النصوص، وفي نصوص اخرى، ظهر اثر الثقافة الشعبية الراهنة جلياً على كتابة الروائي، ولم يستطع ان ينقل افكاره وافكار شخصياته بلغة فصيحة عالية، لسيطرة الثقافة الشعبية بعاميتها وجماهيريتها على قلمه.

---

(١) حارس التبغ، ١١٥.

(٢) حارس التبغ، ١٣٣.

(٣) حارس التبغ، ١٤٨، وينظر، ٧٥، ٧٦، ٧٩، ٨٢، ٨٥، ١١٥، ١١٣، ١٥٠، ٢٠٣.

في رواية بابا سارتر، تكرر استعمال اللغة العامية للسبب ذاته، يقول: " لك سليم تبوقني آني الي سويتك آدمي تبوقني"[١]، ومن هذا القبيل كذلك قوله: " دليني على تاريخ واني اخليلك مصارينه بالكاع"[٢]، في رواية بابا سارتر، ركز العامية مع اليهود والشخصيات المذمومة المسطحة، وكذلك في حوارات فيلسوف الصدرية، لنقل افكار وخطابات معينة، يقول شاؤول: " ولكم هم صدقتوا ان هذا الحمار كان ملفوف مثل الاوادم بقماط، لكم هذا نغل مصلَّخ، كانت امه القحبة زاتته بشطيط"[٣]، بهذه اللغة قدم خطاب اليهودي شاؤول بخصوص اسماعيل الذي ادَّعى الفلسفة، بما يتناسب مع قبح تفكير شاؤول وشخصه، منقاداً الى الثقافة الشعبية.

ومن تجليات الثقافة الشعبية، التقريرية، وهذه تجسدت في اتجاهات، في إطلاق الأسماء وفي تشكيل الأحداث، وطرح الأفكار، إذ اعطى الروائي شخصيات روائية مغرقة بالتقريرية والمباشرة، وربط اسماء ابطاله بمرجعيتهم الثقافية ربطا تاما، فقد اطلق الاسم (يوسف سامي صالح) على اليهودي، و(حيدر سلمان) على الشيعي العائد من ايران، وربما كان لـ(سلمان) دلالة اخرى اعطاها له وطنه (فارس)، ثم (حسين) على ابن الشيعي حيدر، من زواجه في ايران، واطلق (كمال مدحت) على العربي السني، و(عمر) على ابنه من السنية (نادية العمري)، ثم (كاكة حمة) على الكردي، بما يكشف مرجعيتها الواضحة على نحو تقريري جدا.

لم يصنع المؤلف اسماءً من نسج خياله، وانما اخذ اسماءً مرجعية غير تخييلية، من ثقافة مرحلته الراهنة، أخذا مباشراً.

وقع المؤلف في التقريرية في الوصف كذلك، إذ شكَّل حالة في رواية حارس التبغ استند فيها إلى الثقافة العامة في رسم ملامحها، ذلك في وصفه للمطار وحالة المسافرين فيه، فقد عكس الوصف انتماءات العراقيين الفكرية والسياسية والدينية في مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٣م، في كونهم من المغتربين الإسلاميين والعلمانيين والمدنيين، وكأنه يستند في وصف المسافرين إلى طبيعة التشكيلات السياسية والحزبية في العراق في ذلك الزمن، في ملبسهم وحاجياتهم ووجوههم،[٤]، وعلى نحو تقريري واضح، مفرداته هي مفردات الثقافة السياسية المعاصرة.

وتجلت هذه التقريرية في الأحداث ايضاً، عندما صوَّرَ حدثاً هاماً من احداث حياة البطل في رواية حارس التبغ، وهو حدث عودة ابائه المغتربين، بعد طول الغياب، إذ تطابقت حالة عودة الابناء مع حالة التيارات والأيديولوجيات العراقية الى عادت الى العراق مع التغيير، وهي تتطابق مع (مكونات) العراق الثقافية، إذ مثل حسين الشيعة ومثل عمر السنة ومثل مئير (الاقليات) من غير المسلمين، ومثل كاكا حمة الكرد، بوصف واضح ودقيق وتقريري ومباشر، يخلو من التخييل، يقول: " جاء حسين الى منزل والده (...) تفاجأ والده، شعر ابنه الاسود المفروق من الطرف، وهناك لحية تحد الجبين، لحية سوداء، كثَّة، ونظارة بإطار اسود، يرتدي جاكيتة

(١) بابا سارتر، ٨١، وينظر: ٢٩، ٣١، ٨٣، ٩١، ٩٩.

(٢) بابا سارتر، ٨٣.

(٣) بابا سارتر، ٩٩.

(٤) ينظر: حارس التبغ، ٧٢.

عريضة، وبنطلونا واسعا، وقميصا ابيضا، دون رباط وقد زره من الياقة"[١]، ثم الابن الآخر عمر، " عمر القادم من مصر(...) بشواربه الكثة والممشطة على فمه حتى تخفيه، وشعره الأسود المردود الى وراء، بخدوده السمينة ونظراته القاسية"[٢]، ولم يبق إلا الأول، ابنه من زوجته اليهودية، الاولى، يقول: " أمَّا مئير فقد جاء هو الاخر يحدِّث والده عن مشاريع الديمقراطية التي تربط البلاد بالغرب، وصورة المستقبل الذي سينقل العراق الى جنة الشرق الاوسط (...)، صورة محلومة ومصنوعة في اجمل مختبرات الغرب"[٣]، جاء الابناء الثلاثة، وهم فرقاء العراق الثلاثة، (شيعة وسنة واقليات)، اكمل عقدهم المؤلف بأن وضع معهم الفريق الرابع سياسيا، وهم الكرد في (كاكة حمة)، بأن أعطاه دور في اللقاء الأخير، وجعله يدل حسين الابن بعنوان والده في العراق، جعل الروائي (حسين) يتحدث عن قناعات دينية ثقافية شيعية مباشرة، ومثله عمر، ومئير، كل واحد منهم نقل افكار وقناعات انتمائه على نحو مباشر وتقريري، وكأنه اخذ كل شي من الثقافة الشعبية المعاصرة.

من سمات الثقافة العامة التي تجلت بلون من ألوان التفكير الشعبي، الخلط بين التفكير النخبوي العلمي والتفكير الشعبي، فان رواية بابا سارتر، تحمل تعاشقا وتداخلا بين ما هو شعبي أو خاص، وما هو نخبوي فلسفي رفيع، ويأتي هذا في العنوان اولا، فقد جمع ما بين (بابا) وهي شعبية، وما بين (ساتر) وهي فلسفية نخبوية، باتجاه التناغم ما بين ما هو عام وخاص، وما هو شعبي ونخبوي رفيع[٤].

ثم يتجلى هذا الخلط بين ما هو فلسفي وما هو شعبي في ممارسة فيلسوف الصدرية لبعض الافكار الشعبية، وفهمها فهماً فلسفياً، والخلط بين الفهمين، يقول: "الأشياء التي يحبها الفيلسوف كثيراً، واقربها الى نفسه تلك التي تركز في ذهنه هذا الشعور الطاغي بالغثيان، مثل: القشدة البيضاء وعليها شيء من مربى الكرز، فهي الذ شيء يتمتع به، ويطالب بأكله يومياً تقريبا، هذا اللون الاحمر المزهر الشفاف الناتج من خلط القشدة البيضاء الناصعة مع مربى الكرز الشفاف، هذا اللون الملوكي يجعله يتذكر لون النبيذ الذي كان يشربه سارتر في السان جرمان دوبريه"[٥]، هكذا فهم فيلسوف الصدرية بعض فلسفة سارتر.

ومن تجليات الفهم الشعبي للفلسفة، موقف الفيلسوف مع بائع الخضار على العربة في محلته، الاعور، الذي يحسده الفيلسوف لعوره كثيرا، ويتمنى لو كانت له هذه العين العوراء، العين الفلسفية، ذلك العور الوجودي، لتطابق في ملامحه مع سارتر، صاحب الفلسفة الكبير، وهذا فهم شعبي آخر للشأن الفلسفي.

ومن تجليات التفكير الشعبي المعاصر، طغيان الصوت الفردي، إذ صارت الذات تطفو على السطح، وصار كل فرد يعيش بطريقته، والآراء متاحة للجميع، تجسدت في الروايتين المدروستين عندما سمح الروائي لصوته ان ينطلق بعيدا، بأن جعل له نصيبا كبيرا في الرواية الى جانب الابطال،

(١) حارس التبغ، ٣٢٦.

(٢) حارس التبغ، ٣٢٧.

(٣) حارس التبغ، ٣٢٨.

(٤) ينظر: بويطيقا الثقافة، بشرى موسى صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١٢، ١١٧.

(٥) بابا سارتر، ٧١، ٧٢ .

من خلال تقنية الميتاسرد التي اعتمدها، وصنع رواية في داخل رواية، وبدأ رحلة بحث طويلة، شكلت قصة الى جانب قصة البطل في الروايتين، في انشاء كتاب عن الموسيقار العراقي في رواية حارس التبغ، ورحلة انشاء رواية عن حياة فيلسوف الصدرية، في رواية بابا سارتر، واحتل حديثة عن تأليف الكتابين مساحة كبيرة في الروايتين، بما ضخم من حجم الذات الكاتب واحتلت مساحة ليس لها، وابرزت الانا كثيرا، من تجليات الثقافة المعاصرة ايضا.

الخاتمة

بعد هذه القراءة الثقافية في روايتين للكاتب العراقي على بدر، انكشفت لنا النتائج الآتية:

تعد الرواية النص الإبداعي الأفضل لدراسة ثقافة المجتمعات، بتحولاتها التأريخية والاجتماعية، فهي أدب اعترافات يتيح معرفة ثقافة الذات والغيرية على نحو جلي.

تتيح القراءة الثقافية فرصة فضلى لدراسة النصوص الروائية الحديثة، لما تحمل هذه النصوص من انساقاً ثقافية مضمرة، ذات أهمية كبرى في فهم الثقافة العامة للأدب والمجتمعات.

توفر كتابة الروائي علي بدر أرضاً خصبةً للقراءة الثقافية، لأنها تنطوي على انساق ثقافية مضمرة ومكشوفة، تتيح فهماً طيباً للثقافة العراقية التي كتب بها الروائي.

اعتمد الروائي على بدر اعتماداً كبيراً على الثقافة العراقية المعاصرة في بناء نصه السردي الروائي، فقد تجلت الثقافة المحلية واضحة في أدبه الروائي، ونقل الواقع الاجتماعي والثقافي بدقة ووضوح ومن دون تخييل وسردية عالية.

استعمل الروائي التأريخ بوصفيته وعلميته، ولم ينقله تخييلاً وسرداً، واستعمل منه التأريخ الشعبي والرسمي، وكان جديراً بأن يستعمل التأريخ الثالث، وهو إنتاج التأريخ مع الخيال.

كشفت كتابة علي بدر ثقافة الذات الواصفة، ومشكلاتها وعقدها، وموقفها من الآخر، وتصويرها للآخر بأنه أنثى في متناوله، ومشكلة الجنس والخمرة، وهي عقد ومشكلات ثقافية أخذها الكاتب من الثقافة الراهنة، انعكست على كتابته، وأثرت عليه كثيراً.

كشفت كتابة على بدر ثقافة الذات الموصوفة، وخصوصيتها، ومشكلاتها، من صورة اليهودي إلى صورة المرأة إلى صورة المثقف، في الرواية، وهي ثقافة مستمدة من الثقافة العامة الراهنة، استلهم منها علي بدر ما شاء.

كشفت القراءة عن تجليات الثقافي الشعبي في روايتي على بدر المدروستين، وكان ذلك في استعمال اللغة العامية والتقريرية الواضحة.

أطلق على بدر اسماءً مغرقة بالتقريرية والوضوح، انطلق بها من مرجعيتها الثقافية المستقرة، وهي من الثقافة الشعبية المحلية، لم يترك لإبداعه أن يجترح أسماءً غير مرجعية.

اتضحت التقريرية- وهي من سمات الثقافة الشعبية الراهنة- في إنتاج الأحداث والأفكار في نص علي بدر.

أثَّرت الثقافة المعاصرة في إنتاج على بدر الإبداعي أثراً كبيراً، وهي التي وجهت تفكيره وقلمه، وهيمنت على كتابته، ولم تترك له المجال لينتج ثقافة جديدة نخبوية يثبت فيها الجمالي والسردي الأصيل، ويبتعد عن الشعبي الطارئ.

مصادر البحث

- بابا سارتر، علي بدر، دار رياض الريس، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- بناء الرواية، سيزا قاسم، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- البناء والدلالة في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط١، ٢٠١٠.
- بويطيقا الثقافة، بشرى موسى صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠١٢.
- التخييل التأريخي، عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١١.
- جدل الهوية والشخصية في رواية حارس التبغ، علاء مشذوب عبود، مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع ٢، سنة ٤٧، ١يار-آب، ٢٠١٢.
- حارس التبغ، علي بدر، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- الراية العربية والمجتمع المدني، نبيل سلمان، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
- الرواية العراقية، رصد الخراب العراقي في أزمات الديكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف، سلام إبراهيم، مجلة تَبَيُّن، قطر، ع ٢٤، مجلد ١، خريف ٢٠١٤.
- السرد، والاعتراف، والهُوية، عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١١.
- شرق وغرب رجولة وأنوثة، جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط٤، ١٩٩٧.
- الشعري، ميكال دوفرين، ترجمة: نعيم علوية، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع ١٠.
- الفتنة والآخر، ماجدولين شرف الدين، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط١، ٢٠١٢.
- في الأصول الرمزية للمجتمعات، جون فرانسوا دورتييه، ترجمة: محمد ميلاد، مجلة الثقافة العالمية، ع ١٢٠.
- الفكر الإسلامي (قراءة علمية)، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٧.
- النص والحياة، حسن ناظم، دار المدى للثقافة والنشر، بغداد، ٢٠٠٨.
- الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، ط١ ،٢٠٠٩.
- وظيفة الوصف في الرواية، عبد اللطيف محفوظ، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط١، ٢٠٠٩.

مستقبل الهوية العراقية في ظل التحديات المعاصرة

الدكتور : طه حميد حريش الفهداوي
مديرية الوقف السني / العراق
وأستاذ الحديث في
كلية الامام الأعظم (رحمه الله) الجامعة/العراق

م.م. إبراهيم محمد طاهر البرزنجي
مدير الارشاد والبحوث والدراسات
وزارة الأوقاف/ كوردستان

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

فإنَّ لكلِّ أُمَّةٍ هويتها وثقافتها التي تستمد منها عناصرها، وتنسب إليها وقد اكتسبت هذه الثقافة قوتها من خلال قيمها ومبادئها الثابتة، ودعوة أبنائها إلى الاعتزاز بدينهم والتمسك بثوابتهم، وعدم الذوبان في الثقافات والأفكار الأخرى.

فأهمية البحث:

توَّضح كون الثقافة العراقية ثقافة عربية إسلامية أصيلة نابعة من تعاليم الدين وقيمه، إلاَّ أَنَّها مبتلاة من داخل صفها بالأفكار التي لا تَمُتُّ للإسلام بصلة، بسبب ما شهده العراق من أزمات وظروف صعبة، تجرَّع شعبه خلالها المرارة من حروب، وحصار، واحتلال، وتعرض إلى تحدياتٍ فكريةٍ وثقافيةٍ دخيلةٍ عليه سَعَتْ إلى تهديد هويته وتشويه صورتها، وزعزعة عقيدته، وجعلها تابعة لها في القيم والسلوك بدعوى إقامة دولة اسلامية مزعومة من قبل الارهاب المتمثل بداعش وبداعي التطور والانفتاح لتلقي العلوم منسلخة عن الهوية المتمثل بالغزو الفكري والثقافي، تارة أخرى.

والغرض من هذا البحث :

هو بيان سبل الحفاظ على الهوية العراقية في ظل التحديات المعاصرة وبيان سبل مواجهتها .

فإشكالية البحث :

هي التعرف على تأثير تلك الأفكار في الواقع العراقي ، ويمكن صياغة النظرية وفق التساؤلات التالية :

ما هي الهوية العراقية ؟ .

وما هو مستقبلها في ظل التحديات المعاصر ؟ .

وما مدى تأثير تلك الأفكار على الواقع العراقي ؟ .

وكيف يمكن الحفاظ على الهوية العراقية ، عربية اسلامية أصيلة ؟ .

وللإجابة عن هذه الأسئلة اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة ومبحثين وخاتمة، فالمقدمة ذكرنا فيها أهمية الموضوع والعمل فيه، وفي المبحث الأول : تكلمنا عن الهوية العراقية وتأصيلها، وفي المبحث الثاني: تناولنا أهم التحديات الفكرية المعاصرة المتمثلة بالغزو الفكري الثقافي، والتطرف الارهابي، وكيف استطاع أن يشوش على الهوية العراقية، وبيان سبل مواجهته، ثم ذكرنا الخاتمة وفيها الخلاصة النتائج، ونرجو من الله التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المبحث الأول : بيان مفهوم الهوية وتاريخ الهوية العراقية

المطلب الأول: مفهوم الهوية لغة واصطلاحا :

١. الهوية في اللغة: تطلق على المطمئن من الأرض، يقال : هُوِيَّة أراد أَهْوِيَّة فلما سقطت الهمزة رُدت الضمة إلى الهاء... وهي جمع هُوَّة وهي الحفرة وفي الحديث : ((إذا عرستم فاجتنبوا هُوِيَّ الأرض))[١]، والهوية: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية. وذلك منسوب إلى (هُوَ) [٢].

٢. في الاصطلاح: يختلف مفهوم الهوية حسب العلم الذي تُبحث فيها، وأنّ لكل علم تعريفه الخاص، كعلم النفس وعلم الفلسفة والاجتماع والسياسة وغيرها[٣]، لأنه مفهوم قلق من الناحية النظرية، يثير أسئلة أكثر مما يقدم إجابات....حيث أنه من أكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية شائكية نظراً، لما يثيره من إشكاليات عديدة بسبب اختلاف في مقومات وعناصر الهوية، وترتيب هذه المقومات أو العناصر حسب الأولوية والأهمية، أو تغليب بعضها على بعض، وهذا ما يطلق عليه باكيو: الوجه المظلم للهوية [٤]، فهي تدل على الحقيقة المطلقة للشيء المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة فباعتبار تحققه يسمى حقيقة وذاتاً، وباعتبار تشخصه يسمى هوية[٥]، وفي الأدبيات المعاصرة ، نجد كلمة (الهُوِيّة) تستعمل لأداء معنى كلمة (identite-identitiy) في اللغتين(الانكليزية و الفرنسية)- على التوالي – و التي تُعبَّر عن معنى خاصية المطابقة : مطابقة الشيء لنفسه أو مطابقته لمثليه[٦]، فهي : تحديد حالة الفرد الشخصية وتمييزه عن غيره، من كل الوجوه، بداعي الاستمرار والثبات وعدم التغير، وتسمى أيضاً وحدة الذات[٧].

المطلب الثاني: هوية العراق التاريخية :

يُعدُّ العراق موطناً للحضارات منذ آدم (عليه السلام)، وأَنَّها تتمتع بالقوة والرسوخ عبر العصور، على الرغم ما أصابها من الفتور في بعض الأحيان بسبب الغزو والإحتلال، إلاَّ أَنَّ ذلك لم يؤثر على مسيرتها، بسبب حياتهم

---

(١) لسان العرب : ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت ط(١) ، ٣٧٦/١٥ .

(٢) المنجد في اللغة والأعلام : مجموعة من الباحثين ، دار المشرق، بيروت، ط(٣٨)، ٢٠٠٠، ص٨٧٥ .

(٣) مسألة الهوية في الدستور الفلسطيني، إبراهيم أبراش، ٢٠٠٣م، من على موقع جامعة بيرزيت على الشبكة العالمية للمعلومات: www.hom.birseit.edu .

(٤) العولمة والهوية الثقافية في أفريقيا: هويدا عدلي، مجلة دراسات، ليبيا، العدد(١٠)،الخريف ٢٠٠٢م، على موقع المجلة على الشبكة: www.dirasaat.com.

(٥) التعريفات : علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط(١) ،١٩٩٥هـ، ص٣٢٠. الكليات : أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط(١) ،١٩٩٢م، ص٩٦١.

(٦) الهوية الحضارية: محمد عمارة،– مجلة المحاور – (النمسا) .

(٧) المعجم الفلسفي: إصدار مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،القاهرة،١٩٧٩م، ص٢٠٨، معجم علم النفس: فاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت، ط(١)،١٩٨٥م، ص٥٥ ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت، ط(١)،١٩٧٧م، ص١٨٥.

العامة والخاصة، وتطبعها بطابعها العراقي الخاص، فإنَّ وادي الرافدين مولد الحضارة الإنسانية[١]، التي أطلق عليها (حضارة ما بين النهرين)، فالسومريون هم أولُ مَنْ أوجد الكتابة، وعلم الرياضيات، وخلَّفهم الأكديون الذين انبهروا بالسَّماء وما حوته من علوم الفلك، ثم جاء البابليون، وكانت مسلَّة حمورابي أول تشريع دنيوي يحاكي الدساتير الحديثة، إذ جاءت المسلَّة مشتملة على قوانين وتشريعات، سبقت كل قوانين الأرض الوضعية[٢]، وقد وجد علماء الآثار في العراق نشرات ترجع إلى حوالي ألف وثمان مائة سنة قبل الميلاد، ترشد المزارعين إلى كيفية بذر محاصيلهم وسقيها وعلاجها من الآفات بطريقة تشبه إلى حد كبير النشرات الصادرة اليوم عن وزارة الزراعة التي توجهها عادة في المواسم إلى المزارعين[٣]، وكان لهم الدور في الإعلام والاتصال بالجماهير حيث أعطى الملوك البابليين أهمية خاصة للإعلان على أعمالهم، فكانوا يدونون الحروب والأعمال التي قام بها كل ملك على الألواح الطينية، ويحفظونها، أو يعلقونها في أماكن العبادة، وقد قام حمورابي بتنفيذ أول شريعة قانونية للعلاقات الإنسانية، وكان إعلاماً منه إلى الجمهور عن استتباب الأمن والعدالة[٤].

وكانوا يستعملون شعارات دعائية خاصة بهم تميزهم عن التجار الآخرين، وهي أشبه بالعلامة التجارية المعاصرة التي تستعملها الشركات ليستطيع المستهلك تمييز سلعتها عن السلع الأخرى في السوق[٥].

وعندما فتح العراق انشئت البصرة نحو سنة ١٥هـ، والكوفة نحو سنة ١٧هـ، لمَّا رأى أَنَّ المناخ المدائن لم يوافق مزاج العرب، فكان أمره بناء هاتين المدينتين في موضع لا يفصلهما عن جزيرة العرب بَرٌّ ولا بحرٌ[٦]، فظهرت فيه الحركة العلمية بتنوع المدارس متمثلة بمدرسة أبي موسى الأشعري في القراءات في البصرة، ومدرسة عبد الله بن مسعود في الفقه في الكوفة، ومدرسة عبد الله بن عباس في التفسير بمكة، والمدرستين البصرية والكوفية في النحو[٧]، ثم اتسعت المساجد وظَلَتْ حلقات هذه المساجد النواة العلمية للدراسات الجامعية في إسلوبها الذي يعتمدُ على المناقشة والمناظرة، وكان القرآن الكريم هو محور علوم المسلمين، وفضلاً عن اهتمامهم بالعلوم الأخرى، وقد بلغتْ الحركة العلمية ذروتها في المجالين:- العلوم النقلية و والعلوم العقلية على تلف العصور[٨] ، وأتت بعدها المدرسة النظامية، وهي من أشهر المدارس التي بنيت في بغداد، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، وزير الملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق، وقد شرع في بنائها سنة سبع وخمسين وأربعمائة من الهجرة، وفُرِغَ منها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وقد أسست هذه المدرسة على نظام نموذجيّ، وانتدب للتدريس فيها كبار العلماء،

(١) ينظر: العراق في التاريخ القديم: عامر سليمان، دار ابن الأثير، الموصل ، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ص ١١.

(٢) ينظر: الفدرالية الخطر القادم: عبدالله الرشيد، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص٤١.

(٣) العلاقات العامة المبادئ والتطبيق: حسن محمد خير الدين، ط٢، مكتبة الشمس، القاهرة ، ١٩٦٠م، ص ٤.

(٤) ينظر: الإعلان بين النظرية والتطبيق: عبد الجبار منديل، مطبعة الإرشاد، بغداد ، ١٩٨٣م، ص١١.

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ص١٢.

(٦) ينظر: فجر الإسلام: أحمد أمين، ط١٠، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٦٩م، ص ١٥١.

(٧) عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٧١.

(٨) ينظر: الإسلام وأثره في الثقافة العالمية: محمود الشرقاوي، كتاب شهري، يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، ربيع الآخر ١٤١٦هـ، العدد (١٦٠)، السنة الرابعة عشرة، ص ١٨.

أمثال:- أبو حامد الغزالي، وأبو البركات الأنباري، وغيرهما، وقد باتت هذه المدرسة إنموذجاً تحتذي به بقية المدارس الأُخرى في الأمصار الإسلامية[١].

وقد استمر تأسيس المدارس في بغداد حتى بداية القرن السابع الهجري، إذ أسس الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (٦٢٥هـ) فيها المدرسة المستنصرية وكانت هذه المدرسة هي أول مدرسة دُرِّسَ فيها الفقه على المذاهب الأربعة، ووصلت عدد المدارس ببغداد سنة(٦٥٦هـ) إلى ثمانٍ وثلاثين مدرسةً[٢].

وإلى جانب تلك المدارس انشأت المكتبات المستقلة في العصر العباسي، فأدت إلى ظهور حركة الترجمة الواسعة التي شهدها العصر العباسي الأول، وخاصة في عصر المأمون الذي أولاها اهتماماً لم يسبق له نظير[٣]، فبيت الحكمة أو(خزانة الحكمة) التي أسسها هارون الرشيد، واكتملت في عهد المأمون من أشهر مكتبات بغداد وأكبرها في ذلك العصر، وقد أرسل المأمون إلى قيصر الروم يطلب منه ما عنده من كتب نادرة، ثُمَّ أمر المترجمين في هذه المكتبة بترجمتها من الإغريقية والسريانية إلى اللغة العربية، ثم أنشأت مكتبات عديدة تضم آلافا من الكتب[٤]، فبلغت مدينة بغداد التي قام العباسيون بأمر مِنْ أبي جعفر المنصور في بنائها عام (٦٧٢م)، ذروتها في التقدم والإزدهار بالعلوم والثقافة وأصبحت قبلة شعوب الأرض، يتوافدون أليها، وهكذا قُدِّرَ لأرض العراق أن تتعايش عليها أجناس مختلفة بأطيافها وقومياتها ومذاهبها ،إلاَّ أنها مرتبطة فيما بينها بروابط وأواصر أقوى وأعمق، ويرجع هذا إلى عمق الثقافة العراقية وأصالتها وتماسكها أمام كل الأخطار[٥].

لذلك شكلَّ العراق منذ القديم وحدة جغرافية وسياسية وثقافية متعددة العلوم والمعارف من عهد حمورابي قبل الميلاد، ومروراً بالعصور حتى أعْلنَ استقلاله سنة ١٩٣٢م، وأصبح دولة العراق عام (١٩٥٨م) ذات سيادة مستقلة، وثروات وموارد نفطية وطبيعية غنية، مِمَّا جعلها عرضة لمطامع المحتلين والغزاة إلى أَنْ احتلت مرة أخرى سنة ٢٠٠٣م على يديّ الولايات المتحدة الأمريكية الظالمة المتجبرة[٦].

فإنّ العراق بكامل مكوناته العرقية، والدينية، والمذهبية، والثقافية يسعى للتعريف بهويته، وتظهر الحاجة إلى التعريف بالهوية حينما تنهار السياسات الشمولية، التي تريد إخضاع المجتمع لنمط معين من التفكير والانتماءات والتطلعات البعيدة عن قيم الإسلام ومبادئه السمحة[٧].

وقد حاول عشرات الباحثين والمثقفين، لتصوير الحالة الثقافية السابقة والحالية، وفي عرض بعض مشكلات الثقافة العراقية، من خلال دراسات وُضِعَتْ للشأن الثقافي لانَّ التغيير الحاصل في نمط الثقافة العراقية الحالية، أي بعد:- (٩/ ٤/ ٢٠٠٣م)، قد أفضى إلى اتساع صور

---

(١) ينظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص١٩٩. ونشأة المدارس المستقلة في الإسلام، ص ٦-٧.

(٢) ينظر: نشأة المدارس المستقلة في الاسلام ، ص ٥.

(٣) ينظر: الإسلام وأثره في الثقافة العالمية، ص ٢٤.

(٤) ينظر: ضحى الإسلام: أحمد أمين، مكتبة الأسرة، ١٩٩٧م، ص ٦١-٦٢. الإسلام وأثره في الثقافة العالمية، ص ٢٥. صيد الخاطر: جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ت(٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٢م، ص ٤٤٩ .

(٥) ينظر: الفدرالية الخطر القادم، ص ٤٢- ٥١.

(٦) تقسيم العراق نموذجاً في المنطقة العربية: محمد صالح المسفر، مجلة القدس العربي في ٢٠٠٥/٨/٣٠م ، ص١ .

(٧) العراق وإعادة تعريف الهوية- نموذج كركوك: عبد الله إبراهيم ، جريدة العالم، في٢٠١١/٧/٢٦م.

التعبير عن الأولويات الوطنية الثقافية وأدى الى امتلاك الفرد العراقي مساحة واسعة من حرية الرأي والفكر، سواءاً كان مستمداً من تعاليم الإسلام أو من غيره [١].

وإن هوية العراق متعددة الأبعاد تنبع عن الواقع الموضوعي، الذي يشهده العراق، ويتبع عدداً من المرجعيات الدينية، والسياسية، والفكرية بمختلف التوجهات، غير أنَّ التوجه الظاهر لهذه القوى، إنَّما ينصب لإعادة بناء الثقافة السياسية في العراق بالمقام الأول [٢]، كما يصعب تشخيص مواطن التطور والانفتاح في الهوية العراقية دون الاستعانة بمراكز البحوث وعمل الاستبيانات للحصول على العوامل الايجابية وكيفية تطويرها، والسلبية وكيف يمكن تلافيها، وإيجاد أفضل السبل الممكنة لعلاجها، في مختلف مناطق العراق، فهو يستلزم الكثير من الدراسات [٣].

ولعلَّ العمل السياسي دائماً كان هو الطاغي في الثقافة بين جميع المتغيرات الأخرى، فالثقافة في العراق وخصوصيات شعبه، مرتبطة بالسياسة، ولعل الأجواء السياسية التي كان يعيشها ويتأثر بها تأثيراً مباشراً، ما كانت لتبرر سوى تلك الثقافة الفاشية التي لَمْ يألفها العراقيُّ في تأريخِهِ الحديث[٤].

وقد مضى أكثر من مائة وعشرين سنة على أولِ وثيقةٍ دستوريةٍ عرفها العراق في عصره الحديث وتبعتها ثمانية دساتير، منها دستور سنة ١٩٢٥، واستمر حتى ثورة ١٤ تموز، وسبعة في العهد الجمهوري حتى ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ ولكن كم هي الهوة ساحقة بين القواعد القانونية وبين النظم المتبعة في العراق[٥].

وجاءت الحقوق الثقافية للإنسان في العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية في ١٦ كانون الأول سنة(١٩٦١م) وصادق عليه العراق في سنة ١٩٧١ وانظم إليه سنة ١٩٧١[٦].

و الدستور الذي أُنجز عام (١٩٩٠م) ونشر على الرأي العام، قد نصَّ على أَنَّ الدولة تلتزم بحمايةِ وتكريمِ العلماءِ، والمثقفينَ، والأدباء، والفنانين مادياً ومعنوياً، وأَنَّ العمل الفكري أقدس أنواع العمل، فالمادة (٥٣) من دستور عام (١٩٩٠م) المؤقت كذلك نصَّ على حرية الفكر والرأي وحقُّ التعبير عنه و نشره في الوسائل الإعلامية وأَنَّ لا تفرض الرقابة على الصحف[٧]، إلاَّ أَنَّ المواطن العراقي قد خسر خلال ذلك الزمن كثيرًا من فرص الحياة، بسبب الحصار والسياسات المتخبطة وممارسات النظام القمعية تراجع الأداء الثقافي والإبداعي، وغابت جميع الفعاليات الثقافية سوى الدعائية للسلطة، وارتهنت الممارسة الثقافية بحرية التعبير والاجتماع

(١) ينظر: الاتصال الثقافي في العراق: بدر ناصر حسين، أطروحة مقدمة إلى كلية الإعلام في جامعة بغداد، قسم الصحافة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م ، ص ٨٢ .

(٢) ينظر: الاتصال الثقافي في العراق، ص ٨٣-٨٤ .

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٤) الثقافة الانتهازية والجريمة، قراءة للواقع الثقافي في زمن مضى: جليل كمال الدين، مجلة الأقلام العدد (٢- ٣)، دار الشؤون الثقافية، بغداد ، ٢٠٠٤م، ص ٢٨.

(٥) ينظر: التطورات الدستورية في العراق: رعد ناجي الجدة، ط١، دار الحكمة، بغداد ، ٢٠٠٤م، ص ٣.

(٦) ينظر:الحقوق الثقافية والدستور العراقي:عبد الوهاب عبد الرزاق التحافي،دار الشؤون الثقافية، بغداد ، العدد(٣٧)،٢٠٠٢م، ص ٢٦.

(٧) ينظر: التطورات الدستورية في العراق، ص٤٦٣.

واللقاءات لتصبح برمتها تحت شروط الحكومة والقرارات المركزية المستمدة من كيفيات التشبث بالسلطة والتفرد المطلق[١].

إنَّ الثقافة العراقية بمفهومها الرحب تدعو إلى توسيع المدارك، وضرورة التعايش والحوار بين الأمم والشعوب ، لأنَّ الإنغلاق الفكري يؤدي إلى التعصب ويقود إلى صراع وتصادم الحضارات ولا سبيل إلى التعايش إلاَّ بالحوار والانفتاح الثقافي بين الأمم ، وإنّ الحقَّ في التنوع الثقافي أصبح قاعدة من قواعد القانون الدولي استناداً لميثاق الأمم المتحدة[٢].

المبحث الثاني: التحديات التي تواجه الهوية العراقية ووسائلها وسبل مواجهتها

المطلب الأول: التحديات التي تواجه الهوية العراقية :

١. **الغزو الفكري:** الذي هو مجموعة من الشبهات والأغاليط مصوغة صياغة علمية متقنة توجه إلى عقول المسلمين بطرق مختلفة وبأيدي شتى، يراد منها تشكيك المسلمين في دينهم، وحضارتهم ورجالاتهم بغية الوصول إلى تسخيرهم لمآرب عدوهم وغاياته[٣]، فهو أعمق أثرا، وأشد فتكاً في حياة الأمة من الغزو المسلح، لأنه يتسلل إلى عقول وقلوب أبنائها، مِمَّا يؤدي إلى تغيير المعتقدات والقناعات والأفكار المُسَلِّم بها[٤]، إذ شملت حربه ميدان الفكر، وذلك بإثارة الشبهات حول الدين الإسلامي، وحول لغتهم، وثقافتهم، وتأريخهم، وفضلاً عن استخدامه للدعاية المكثفة عن حضارته وتقدمه العلمي والتقني، وكان الهدف من وراء ذلك كله هو اقتحام عقول المسلمين، وغرس قيم الغرب فيها، وتحطيم معنوياتهم من أجل اجتثاث روح الولاء للدين، والانتماء للثقافة الإسلامية، وتحويل ذلك الانتماء للفكر الغربي، والإنبهار بثقافته، وجعل عقول المسلمين وأرواحهم تابعة له، ومقلدة إياه[٥].

٢. **الصهيونية:** نسبة إلى (صهيون) جبل يقع جنوب بيت المقدس يقدسه اليهود، وهي منظمة يهودية تنفيذية مهمتها تنفيذ المخططات المرسومة لإعادة مجد بني إسرائيل (اليهود) وبناء الهيكل ثم إقامة مملكة إسرائيل ثم السيطرة من خلالها على العالم تحت ملك (ملك يهوذا) المنتظر، والصهيونية قرينة للماسونية إلاّ أَنَّ الصهيونية يهودية بحتة في شكلها، وأسلوبها، ومضمونها، وأشخاصها، في حين أَنَّ الماسونية يهودية مبطنة تظهر شعارات إنسانية عامة وقد ينطوي تحت لوائها غير اليهود من المخدوعين والنفعيين[٦]، وقد شاركت الحركة الصهيونية بنشر الانحلال الخُلُقي، والفتنة والفساد في الأرض،

---

(١) ينظر: الاتصال الثقافي في العراق، ص ٨١.

(٢) ينظر: العولمة وخيارات المواجهة: رعد كامل الحيالي، شركة الخنساء للطباعة المحدودة، ١٩٩٩م، ص ٢٤.

(٣) الغزو الفكري في المعيار العلمي الموضوعي: محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، مجمع الفقه الإسلامي، تصدر عن منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة ، العدد(٧)، الجزء الرابع،١٤٢١هـ، ص ١٥٠٨٩.

(٤) ينظر: الغزو الفكري في التصور الإسلامي وكيفية مواجهته: أحمد عبدالرحيم السايح، ط١، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص ١٩ ، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام: عبد الستار فتح الله سعيد، ط١، دار الوفاء، المنصورة ، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م، ص ٢١.

(٥) ينظر: التبعية الفكرية في مجال التربية وعلاجها من المنظور الإسلامي، ص ١١٣.

(٦) الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة: ناصر عبد الله القفاري، وناصر عبد الكريم العقل، ط١، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ص ٥٨. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة ، ص ٥٢- ٥٣.

والجرائم والعدوان، وليمثّل كُلَّ ذلك في أوسع جريمةٍ عرفها الإنسان في تأريخه، ألآ وهي العدوان الدولي على فلسطين المسلمة الذي تقوده الصهيونية[١].

٣. **الاستشراق:** هو تعريب للكلمة الانكليزية (Orientalism)، مأخوذة من الاتجاه إلى الشرق، وهي مشتقة من (شَرَقَ)، ((يقال: شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت))[٢]، وهي تعني مشرق الشمس، وترمز إلى مجال الاهتمام بهذا الحيز المكاني من الكون وهو الشرق، أمّا إذا أُضيف إليها الألف والسين والتاء، التي تعني طلب الشرق، أي:- طلب علوم الشرق، وآدابه، وأديانه بصورة شاملة، فعلى هذا يكون المعنى الاصطلاحي العام للاستشراق: هو الاتجاه الفكري الذي يُعنى بدراسة الإسلام والمسلمين، ويشمل ذلك كل ما يصدر عن الغربيين من دراسات تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، والشريعة، والتأريخ وغيرها من مجالات الدراسات الأخرى لإحداث تأثيره الكبير على الحياة الفكرية في المجتمعات[٣].

٤. **التنصير:** وهو الدعوة إلى اعتناق النصرانية، أو ادخال غير النصارى في النصرانية[٤]، ويرى دعاة التنصير أو المبشرون أَنَّهم مُكلَّفونَ من قبل السيد المسيح في تبليغ رسالته ونشر تعاليمه بقوله: ((اذْهَبُوا إلى العَالمِ أجْمَعَ وَاكْرِزُوا بالإنْجيلِ لِلْخَلِيقةِ كُلِّهَا))[٥]، قد تطور حتى أصبح نشاطا تمارسه أفراد وهيئات ومنظمات أجنبية ولاسيَّما في الأراضي الإسلامية ضد العقيدة والمجتمع الإسلامي، بغية إدخالها في النصرانية[٦]، فيتسلل من خلال الثغور الكثيرة في أنحاء مجتمعنا ومن خلال الضعف الظاهر في بنائنا الأخلاقي... ولست أنكر عجز الحكومات المختلفة في مكافحة هذا البلاء، غير أنّي اتفرّس في هذا العجز فأجدهُ- مرة أخرى- وليد تربية سيئة، وتنشئة معتلة[٧]، وقد شهد العراق أول مركز أمريكي للتبشير في الموصل عام(١٨٨٩م)، عقبه عام(١٨٩١م) تأسيس مركز ثانٍ

---

(١) ينظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة ،١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م، ص ٥٢٣- ٥٢٤، تقويم نظرية الحداثة: عدنان علي رضا النحوي، ط١، دار النحوي للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٢م، ص ١١٣، الوجودية وواجهات الصهيونية: محسن عبد الحميد، دار العربية للطباعة العربية، بغداد ، ١٩٧٧م، ص ١٦.

(٢) ينظر: المعجم الوسيط: ١/ ٤٨٠.

(٣) ينظر: الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن، محمد بن سعيد السرحاني، مجمع الملك فهد للطباعة المصاحف، المملكة العربية السعودية ٢٠٠٧ م، ص ٣، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط٨، دار القلم، دمشق ، ٢٠٠٠م، ص ٥٣ ، آثار الفكر الاستشراقي والمجتمعات الإسلامية: محمد خليفة حسن أحمد، ط١، مطبعة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧م، ص ٨٧، نظريات التنمية السياسية المعاصرة: نصر محمد عارف، دار القارئ العربي، القاهرة ، ص١٣١- ١٣٢، الإستشراق والمستشرقون وجهة نظر: عدنان محمد وزان، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، عدد (٢٤)، ١٩٨٤م ، ص١٤٦

(٤) التنصير مفهومه، وأهدافه، ووسائله، وسبل مواجهته: علي بن إبراهيم الحمد النملة، ط٢، ١٩٩٩م ، ص ٨.

(٥) إنجيل مرقس: ١٥،١٦.

(٦) ينظر : الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، عبد الراضي محمد عبد المحسن، ص ٧، جذور البلاء: عبد الله التل، ط١، دار الإرشاد، بيروت ، ١٩٧١م، ص ٢٧٥.

(٧) صيحة تحذير من دعاة التنصير: محمد الغزالي، ط١، دار الصحوة، القاهرة ، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م: ١٧.

للتبشير في البصرة، ومن خلال هذا المركز وسع المبشرون الأمريكان من نشاطهم في عموم الخليج العربي[١].

٥. **العلمانية:** إنَّ الترجمة الدقيقة لكلمة (Seculavism) هي: ((لا دينية الدنيوية، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب بل بمعنى أخص هو ما لا أصل لها بالدين أو ما كانت علاقته بالدين علاقةُ تضاد))[٢]، وهي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها، ذلك أَنَّه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر، فهي حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية، وهي تدعو إلى إقامة الحياة على غير دين، وتعني في جانبها السياسي، وبالذات اللادينية في الحكم[٣]، تهدف الى فصل الدين عن الدولة[٤]، وضرورة أَنْ تقوم الأخلاق والتعليم على أساس غير ديني[٥]، فقد أصبحت قاعدة في الحكم، فصارت الدولة لا دينية، ودخلت التعليم الذي هو أخطر مؤسسة وصل إليها الفكر البشري، فأصبحت أداة هدمٍ مِنْ الداخل، ومعاول تحطيم بما سُلّط وبُثّ من فكر سامّ، فكر مبتورٍ عن تأريخ الأمَّةً، وتراثها وحضارتها على مختلف درجاتها من التطرف والاعتدال[٦].

٦. **العولمة:** هو ترجمة للكلمة (Globalization) الانكليزية التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تفيد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل، فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد، أو تلك الجماعة وجعله يشمل الجميع، العالم كله، في اطار تدويل النظام الرأسمالي الحديث وفق الرؤية الأمريكية المهيمنة، والتي تزعم أنَّها سيدة الكون وحامية النظام العالمي الجديد [٧]، التي تحاول وضع شعوب العالم في قوالب فكرية موحدة تنبع أساساً من الفكر الثقافي الامريكي، وتسهم في ذلك الاقمار

---

(١) ينظر: فصول من تاريخ العدوان الأمريكي الصهيوني على الأُمَّة العربية: شفيق السامرائي وآخرون، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م: ٨٤.

(٢) العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص ٢١.

(٣) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، ط٥، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض٢٠٠٣م: ٢/ ٦٧٩.

(٤) العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص ٢٣، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه: يوسف القرضاوي، د. ط٧، مكتبة وهبة، القاهرة ، ١٩٩٧م، ص ٨٦.

(٥) العلمانية في ميزان العقل: عيد البطاح الدويهيس، (د.ط)، (د.ن)، الكويت، ٢٠٠٣م، ص ٧، ماذا قدم المسلمون للعالم، راغب السرجاني، ط٤، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠١٠م: ٦٩١/١، الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: محمد البهي، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٢م، ص٤١-٤٢.

(٦) ينظر: المسلمون وتحديات الفكر المعاصر: القاسم البيهقي المختار، بحث في مجلة المجمع الفقهي الإسلامي، مكة المكرمة ، العدد (١٣)، (د.ت): ٧/ ٢١٦٦، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه: يوسف القرضاوي، ط٧، مكتبة وهبة، القاهرة ، ١٩٩٧م، ص ٨٦ ، التطرف العلماني في مواجهة الإسلام: يوسف القرضاوي، (د.ط)، أندلسية للنشر والتوزيع، المنصورة ، ٢٠٠٠م، ص ٣٦.

(٧) قضايا في الفكر المعاصر: محمد عابد الجابري، ط١، نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٧م، ص ١٣٦- ١٣٧، صالح الرقب، العولمة: ط١، الجامعة الإسلامية، ٢٠٠٣م، ص٨ ، خطابنا الإسلامي في عصر والعولمة: يوسف القرضاوي، ط١، دار الشروق، القاهرة٢٠٠٤م: ١٢٣، العولمة والخيارات العربية المستقبلية : عبدالعزيز المنصور، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، مجلد(٢٥)، العدد الثاني، ٢٠٠٩م، ص ٥٦١، العولمة والتحدي الثقافي: محمد محفوظ، جريدة الرياض، العدد(١٤٢٧٤)، الثلاثاء، (١٠) رجب، ١٩٩٨ م، ص ١.

الصناعية والانترنيت والصحافة والسينما وغيرها، فهي محاولة لسلخ الشعوب عن ثقافتها وموروثها الحضاري[١].

٧. **التغريب:** مشتق من الغرب والمغرب بمعنى واحد، و (التغريب): النفي عن البلد، و (التغرب): البعد[٢]، وهو: تيار فكري كبير ذو أبعادٍ سياسيةٍ، واجتماعيةٍ، وثقافيةٍ، وفنيةٍ، يرمي إلى صبغ حياة الأمم عآمّة والمسلمين خاصة، بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة، وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية[٣]، فهم يحاولون إخراج القرآن والدين من مناهج التعليم ليفسحوا المجال النفسي والفراغ العقلي للشباب أمام مذهب الإلحاد والتغريب والغزو الثقافي، وتركزت الحرب على اللغة العربية والقرآن، وهوجما هجوماً شديداً، وانتثرت المطاعن حولهما[٤].

٨. **الحداثة:** وهي دعوة إستكبارية معادية للإسلام، ظاهرها جميل براق، وحقيقتها سمٌ رعاف، فهي تدعو إلى(تهجين الإسلام و مسخه) أو (قصره على الأمور الشكلية) وتفريغ محتواه[٥]، تهدف إلى إلغاء مصادر الدين، وما صدر عنها من عقيدة وشريعة وتحطيم كل القيم الدينية، والأخلاقية، والإنسانية، بحجة أنَّها قديمة وموروثة، لتبني الحياة على الإباحية والفوضى، والغموض، وعدم المنطق، والغرائز الحيوانية، وذلك باسم الحرية، والنفاذ إلى أعماق الحياة[٦]، فهم يدعون إلى التغيير المستمر والمطلق في الحياة، مِمَّا يؤدي إلى الغرق في ظلام الشرك والإلحاد، والسعي وراء الجنس والشهوات، والخمور والمخدرات، وهم يدعون كذلك إلى إلغاء التراث كُلِّه بما فيه من خيرٍ وشرٍّ ومحو كُلِّ ما هو قديم وقطع الصلة به[٧].

٩. **الاحتلال:** معناه العام سيطرة شعب أو نفوذه على شعب آخر[٨]، وقد استطاعت بريطانيا من احتلال العراق، فدخلته عام (١٩١٤م) وفرض هيمنتها عليه، بسبب ما يتمتع به العراق من موقعه الجغرافي ولأهميته التجارية، والاقتصادية[٩]، ثَمَّ بدأت مساعي الولايات المتحدة الامريكية في تمهيد الطريق لاحتلال العراق فشنت هي وحلفاؤها الحرب على العراق عام (١٩٩١م) بعد دخول العراق الكويت، فاتخذت الولايات المتحدة ذلك ذريعة لغزو العراق فعمدتْ على فرض الحصار الاقتصادي على الشعب العراقي وتجزئة وحدته

---

(١) ينظر: دور التربية في مواجهة العولمة وتحديات القرن الحادي والعشرين وتعزيز الهوية الحضارية والانتماء للأمة: أحمد علي كنعان، د. بحث مقدم إلى ندوة (العولمة وأولويات التربية)، المنعقدة في رحاب كلية التربية بجامعة الملك سعود في الفترة من (١٧-١٨، ٤، ٢٠٠٤م)، ص ١٤، المجتمعي في الوطن العربي: مولود زايد الطبيب، ط١، المركز العالمي لدراسات وبحاث الكتاب الأخضر، بنغازي، ٢٠٠٥م، ص ٢٠٥.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة غرب: ٦٣٧/١، الصحاح وتاج اللغة وصحاح العربية، مادة غرب:٤٨٦/١ .

(٣) الموسوعة الميسرة: ٢/ ٦٩٨، آثار الفكر الأستشراقي في المجتمعات الإسلامية ص ٥٩.

(٤) سقوط العلمانية: أنور الجندي، (د.ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، (د.ت) ص ٣٢، الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة الأمة على طريق الله: أنور الجندي، (د.ط)، دار الاعتصام، القاهرة ، (د.ت) ص ٣٧٧.

(٥) الغزو الفكري في المعيار العلمي الموضوعي: ١٨٧٩/٧.

(٦) الموسوعة الميسرة: ٢/ ٨٦٧.

(٧) الإسلام والحداثة هل يكون غداً عالم عربي: مصطفى الشريف، ط١، دار الشروق، ١٩٩٩م، ص ١٢.

(٨) اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر: حمد بن صادق الجمال، ط١، دار عالم الكتب، ١٩٩٤م: ٣٥٩/١.

(٩) ينظر: التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي: محمد مظفر الأدهمي وآخرون،ط١، النخيل للطباعة، ٢٠٠١م، ص٤٦.

بادعاءات مذهبية وقومية وغزوه فكرياً وثقافياً، وقطع صلته بالعالم الخارجي، إلى أنْ تمَّ لها أحتلال العراق في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣م، بادعاءات وهمية لا صحة لها للسيطرة على السوق الاقتصادية، والمعرفية، والثقافية للبلدان وتمزيق الأمة واضعاف وحدة الشعوب[١].

١٠. **الإرهاب:** وهو مأخوذ من رَهب يرهب رهبا وأرهابا بالفتح والكسر ، وهو الإخافة والتخويف[٢]، ويشمل العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغيا على الإنسان في دينه ، ودمه ، وعقله ، وماله ، وعرضه ، ويشمل صنوف العنف والتخويف والأذى والتهديد والقتل، يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس ، أو ترويعهم أو إيذائهم ، أو تعريض حياتهم ، أو حريتهم ، أو أمنهم، أو أقوالهم، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد مرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة ، أو تعريض أحد الموارد الوطنية ، أو الطبيعية للخطر[٣]، ومن الأمثلة القريبة على ذلك ما خلَّفه تنظيم داعش من دمار في البلاد التي احتلها ففي العراق وسوريا بلغ حجم الدمار أكثر من ٨٥%، تطال البنى التحتية والأفراد يصعب ذكر ذلك بالتحديد فان الارقام فيه مهولة والمشاهد مثيرة تندى لها الجبين[٤]، وقد أصبح الناس في مختلف المجتمعات أكثر إدراكاً للتهديدات المحتملة لحريتهم من قبل مجموعة متنوعة من القوى والظروف[٥] ، فإذا فعل خيراً يعود على غيره من البشر، شراً يعود ضرر فعله على الناس[٦]، والحق إن أضرار الارهاب ما زالت كبيرة ومستمرة على مختلف المجالات للتعبير عن أحقادها ، ويلاحظ أن غالبية هذه الفرق لا تقيم للمقدسات الدينية وزناً [٧]، فلا شك أن للارهاب إفرازات ونتائج سلبية وعواقب وخيمة كالجور على حقوق أخرى ينبغي أن تراعى ، وواجبات يجب أن تؤدى وسوء الظن بالناس ، والنظر إليهم من خلال منظار أسود يخفي حسناتهم على حين يضخم سيئاتهم ، والغلظة في التعامل والخشونة في الأسلوب والفظاظة في الدعوة[٨].

المطلب الثاني: أساليبها وتأثيرها على الهوية العراقية:

١. **الانفتاح الثقافي:** وهو الاستفادة العلمية والفنية الصحيحة دون المساس بالقيم والعقائد والمبادئ والهوية[٩].
ويشمل انفتاح الفكر وانفتاح العمل وانفتاح الوسائل [١].

---

(١) ينظر: الحروب الصليبية ، بدؤها من مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن: ٥٣ . أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر: ط١، مكتبة وهبة، القاهرة ،١٩٨١م، ص ١٧٤- ١٧٧.

(٢) ينظر : القاموس المحيط، ولسان العرب ، والصحاح ، والمصباح المنير ، مادة (رهب).

(٣) ينظر: قرارات وتوصيات مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي ١ – ١٧٤ ص: ٢٢٩، الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف: ص ١٣، الموسوعة الجنائية الإسلامية المقارنة:ص ٧٦، موسوعة نظرة النعيم ٣٨٢٨/٩، وظيفة القضاء في التعامل مع الإرهاب: ٢. الجذور التاريخية لحقيقة الغلو والتطرف والإرهاب والعنف:ص ١١.

(٤) ينظر: https:،،www.sasapost.comhttps:،،arabic،m.annabaa.org،،
https:،،http:iraq،ar،v1.kuadistantv.net ، .

(٥) ينظر : التربية الإسلامية الحرة ، ص ٣٣ .

(٦) ينظر : أثر التربية الإسلامية في أمن المجتمع الإسلامي ، ص ٤٧ .

(٧) البِدَايَة والنِّهَايَة ، ١٦٠/١١ ؛ وتاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران ، ١٥٢/١.

(٨) ينظر : تربية الشباب ص ١٠ .

(٩) أزمة العقل المسلم: عبد الحميد أحمد أبو سليمان، ط١، دار السعودية، جدة ١٩٩١م: ص ١٦٩.

٢. **التقارب الثقافي:** التقارب : دنو أحدهما من الآخر[٢]، وهو تعيين يراد به تقريب الثقافة الإسلامية إلى غيرها من الثقافات الأخرى، وقد يؤدي إلى التوفيق أو وسيلة للوصول إلى التوفيق[٣].

٣. **التفاعل الثقافي:** التأثير من جهة مُؤثِّر[٤]، والفاعلية:وصف في كل ما هو فاعل[٥]، ويراد به تقريب الثقافات بعضها إلى بعضٍ لتؤثِّر كلٌّ منهما في الأخرى[٦].

٤. **الاختراق الثقافي:** الخرق: الشق والثقب[٧]، ويراد به كسر الحواجز النفسية القائمة بين الثقافة الإسلامية وغيرها، لتدخل كلٍّ منهما في الأُخرى[٨].

٥. **تعايش الثقافات:** هو الحياة، وتقول:- عايشه، ، مثل عاشره وتعايشوا: عاشوا على الألفة والمودة، ومنه التعايش السلمي[٩]، وهو كسر الحواجز المانعة من التقاء الثقافات وتفاعلها و تأثير بعضها في بعض، في جو سلميّ بعيد من الروح العدائية والتعصب ضد الثقافات الأجنبية[١٠].

٦. **الإعلام:** وهو عبارة عن وسائل مختلفة، المسموع منها أو المرئي أو المرئي المسموع، وبث الإذاعات عبر البث المباشر وباستخدام الفضائيات[١١]، وقد صرفت أموال ضخمة في إنجاح هذه الحركة التي تهدف إلى الزعزعة [١٢]، وأُفتتحت فيه أول محطة تلفازية عربية في بغداد عام(١٩٥٦م) إذْ استغلتها لأنشطتها الدعائية، وكان باكورة نشاطها الدعائي هو مبادرتها إلى تقديم مساعدة فنية لهذه المحطة في محاولة منها لاحتوائها[١٣]، وقد عُرِف المذياع أو الإذاعة المسموعة في العراق عام(١٩٣٦م)، ومن ذلك اليوم مارست الإذاعة العراقية دوراً مهماً في نشر الثقافة بين ابنائها، وترسيخ القيم والمبادئ من خلال تقديم البرامج الإذاعية المختلفة[١٤]، وتبرز أهمية هذه الوسيلة في كونها فورية الإخبار بأحداث العالم، وعمومية جمهورها، وقلّة تكاليفها مقارنة بالوسائل الأُخرى، مع

---

(١) التربية الدعوية في زمن الانفتاح: مقالة أفكار دعوية، محمد أحمد الراشد، موقع سبيل الإسلام..www.sbeelalislam.com .

(٢) ينظر: المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، تحقيق: مجمع اللغة العربية، (د.ط)، دار الدعوة، (د.ت)، مادة القاف: ٢/ ٧٢٣.

(٣) الثقافة والعالم الآخر: عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي، د. (د.ط)، دار الوطن، الرياض، (د.ت): ص ٢١.

(٤) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني ت(٥٠٢ هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (د.ط)، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٦١م، مادة الفاء: ص ٣٨٢.

(٥) الثقافة والعالم الآخر:٢٢ .

(٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٧) ينظر: تاج العروس، مادة (خرق) : ٢٥/ ٢٣٢-٢٣٣. والمعجم الوسيط، مادة (خرق): ١/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٨) الثقافة والعالم الآخر: ٢٣.

(٩) ينظر: لسان العرب: مادة عيش: ٦/ ٣٢١. المعجم الوسيط: مادة العين: ٢/٦٣٩.

(١٠) الثقافة والعالم الآخر: ٢٤.

(١١) ينظر: التحذير من وسائل التنصير: تأليف اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ط١، (د. ن)، (د.ت):ص ٦، التبشير والإستعمار في البلاد العربية: مصطفى خالدي، و د.عمر فرّوخ، د. (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت ، (د.ت):ص ٢٥٧.

(١٢) ينظر: التنصير مفهومه وأهدافه، ووسائله، وسبل مواجهته: ص ٤-٥.

(١٣)الدعاية الامريكية في العراق (١٩٤٥- ١٩٥٨م): عبد السلام أحمد السامر، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى قسم الاعلام، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٨م: ص ١٨٢.

(١٤) ينظر: وسائل الاتصال نشأتها وتطورها: خليل صابات، ط٦، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٩١م: ص ٤٤٤.

مرافقتها لكثير من شرائح المجتمع، ولا سيّما في أوقات انتظارهم، أو القيام ببعض مهامهم[١].

٧. **الهاتف المحمول:** الأداة الرئيسة للاتصال في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. وبذلك أصبح ضرورة من ضرورات الحياة التي يصعب الاستغناء عنها[٢].

٨. **التسجيلات (الندوات- المحاضرات- المؤتمرات):** التي يتم إلقاؤها خلال الاجتماعات والمناقشات سواء أكانت سياسية، أو ثقافية، أو اجتماعية، أو دينية، واعادة تشغيله، وإذاعته مرات كثيرة [٣].

٩. **السينما:** وهي تمتلك قوة استهواء مباشرة للجماهير، لِمَا تمتاز به من خصائص معينة تجذب الجمهور إليها، فهي تجمع بين الصورة المتحركة، والحوار، والموسيقى، والاستعراض مِمَّا يعمق الأفكار المطروحة في ذهن المشاهد لتقديمها رؤى مختلفة للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية[٤]، وبالإمكان عرض الافلام السينمائية داخل المؤسسة لجماهيرها لتطوير عملهم، أو الترفيه عنهم، أو لزيادة الخبرة، أو عرض التكنولوجيا الحديثة[٥].

١٠. **الإنترنت:** وهو وسيلة من الوسائل الاتصالية التكنولوجية المهمة، يتواصل الجماهير من خلالها عبر شبكة المعلومات، ويطوي بداخله جميع وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة، المرئية، وبإمكان مستخدمي هذه التقنية الحصول على المعلومات عبر الصفحات الألكترونية أو التصفح، أو من خلال البحث عنها من خلال هذه الوسيلة[٦].

١١. **الصحة:** هو استغلال الجانب الإنساني (الفقر، الجهل، المرض)، فاتخذوا من آلام البشر ذريعة لبلوغ غاياتهم وتحقيق منالهم [٧].

١٢. **التعليم**: لِمَا له من أثر في صياغة العقول، وتكوين الشخصيات، ومن خلال الجهاز التعليمي يمكن أن يوضع الفرد المسلم في القالب الغربي الذي يريده المبشر بحيث ينسى أصالته وتراثه، ويطمس هويته، ويقضي على عقيدته ودينه[٨]، وباشرت تلك المدارس التأثير في الطفولة البريئة، والشبيبة الغضة من أبناء لبذر الشك أو الانحراف[٩].

---

(١) ينظر: المناهج الإعلامية وأثرها على الدعوة: ص ١٣٧٨.

(٢) ينظر: الإعلان والعلاقات العامة في ظل المفاهيم الإسلامية: عايد فضل الشعراوي، (د.ط)، دار البشائر الإسلامية، (د.ت): ص ٦٨.

(٣) ينظر: العلاقات العامة: أحمد محمد المصري، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية ، ١٩٨٥م:ص ٥٦.

(٤) ينظر: مدخل إلى الإعلام وتكنولوجيا الاتصال في عالم المتغيرات: ص ٩٩.

(٥) العلاقات العامة: ص ٥٥.

(٦) ينظر: الثقافة العربية وعصر المعلومات(رؤية لمستقبل الخطاب العربي): نبيل علي، (د.ط)، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠١م: ص ٣٤٤، الوسائل والأساليب المعاصرة للدعوة الإسلامية: صالح الرقب، بحث مقدم إلى مؤتمر الدعوة الإسلامية ومتغيرات العصر(١٦- ١٧، ابريل، ٢٠٠٥م):ص ٢١٩- ٢٢٤.

(٧) التبشير والاستعمار في البلاد العربية: مناع القطان، ص ٥٩، معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية: ط١، مكتبة الوهبة، القاهرة ، ١٩٩١م: ص ٤٧ ، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام: سيد بن حسين العفاني، ط١، دار ماجد عسيري، جدة٢٠٠٤م:ص ٦٨.

(٨) ينظر: الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحدّيات العصر: ص ٢٤١ التبشير والاستعمار في البلاد العربية: ص ٦٧ ، لمحات في الثقافة الإسلامية: ص ١٧٨- ١٧٩.

(٩) ينظر: معوقات تطبيق الشريعة: ص ٤٨، وأساليب الغزو الفكري: ص ٣٠-٣١، اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر: ٣٤٣/١.

١٣. **الإغاثة:** مستغلين بذلك الجانب الإنساني، فكثّفت الولايات المتحدة بدورها من أعمال الإغاثة في المجتمعات الفقيرة، من خلال تقديم المساعدات في المجالات الطبية، والتعليمية، والإغاثية الأُخرى[١]، وقد استطاعت هذه المنظمات أو المؤسسات الإنسانية من التسلل والدخول إلى شمال العراق، ومستغلين انفصال الأكراد عن العراق أبان حرب الخليج الأولى عام(١٩٩١م) ومنها الدخول إلى العراق بعد احتلاله(٢٠٠٣م) بمسميات مختلفة، ومن تلك المنظمات:- منظمة شلترناو انترناشنال وهي منظمة أمريكية، ومنظمة كاريتاس الكاثوليكية، ومنظمة الكنائس العالمية، ومنظمة مساعدة الشعوب المضطهدة، ومنظمة العالم بحاجة، ومنظمة رعاية الكرد، ومنظمة الفريق الطبي الأمريكي، ومنظمة الهجرة الدولية، ومنظمة الصليب الأحمر السويدي، ومنظمة الكنيسة الأسقفية الإنجيلية، ومنظمة كير الأسترالية، ومنظمة الشركاء العالميين وغيرها[٢].

١٤. **الصحف والمجلات:** لنقل الأخبار والأفكار والمعلومات الثقافية والسياسية وتكييف الرأي العام والتأثير فيه مِمَّا جعلها السلطة الرابعة في الدولة[٣]، وكانت أول صحيفة عراقية صدرت في ٥ حزيران عام(١٨٦٩م)باسم (الزوراء)[٤]، ثمّ تلتها جريدة (موصل) التي صدرت عام(١٨٨٥م)، وتبعتها جريدة (بصرة) عام ١٨٩٩، وهذه الصحف استمر صدورها مرةً واحدةً في الأسبوع، باللغتين العربية والتركية[٥]، واتسعت الصحافة العراقية بعد ذلك بزيادة الصحف والمجلات والدوريات.

١٥. **الكتب:** التي تقدّم للقارئ الحجج في صفحات كثيرة ومتكاملة بدقة وعناية ومبوبة في فصول وأقسام ومدعمة بمراجع ومصادر، ومذيلة بملاحق ورسوم إيضاحية[٦]، فلها تأثير كبير في تكوين رأي الطبقة المثقفة بوجه عام، والصفوة وقادة الرأي بوجه خاص وهؤلاء يمثلون الرأي العام القائد في المجتمع[٧].

١٦. **المطويات:** التي تحتوي على عبارات يسيرة، ومختصرة، لا يتجاوز عدد صفحاتها عن خمسين، والتي يمكن إصطحابها في الحضر والسفر، ومطالعتها في الليل والنهار، وفي كُلِّ مكانٍ بدون بذلِ مجهودٍ كبيرٍ ووقتٍ طويلٍ[٨].

المطلب الثالث : وسائل المحافظة على الهوية العراقية :

لقد أُصيب المجتمع العراقي بالضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي، وابتلي بالتناحر بين الطوائف المتعددة، ، والمذهبية المقيتة، وانشغل بالتافه من الأمور، فقادته هذه التفاهة إلى التخلف عن ركب العلم، والتقدم، والحضارة[٩]، ومع ذلك فلا بُدَّ من أَنَّ هناك وسائل بنّاء وتوعية تقوم بالمحافظة على الهوية العراقية ، ومنها :

---

(١) ينظر: التنصير مفهومه وأهدافه، ووسائله، وسبل مواجهته: ص ٩٣.

(٢) النشاط التنصيري في كردستان العراق: فرست مرعي الدهوكي، مجلة البيان، العدد(٦٨):ص ١٥٣.

(٣) صحافة العراق: رفائيل بطي، ط١، مطبعة الأديب، بغداد ، ١٩٨٥م: ٢٦/١.

(٤) ينظر: من تاريخ الصحافة العراقية: خالد حبيب الراوي، د. (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد ، ١٩٧٨م:ص ٢١.

(٥) ينظر: الصحافة في العراق: رفائيل بطي، (د.ط)، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥م:ص ١٧.

(٦) الدعاية والإعلان والعلاقات العامة: جودت ناصر، (د.ط)، دار مجدلاوي، عمان ، ١٩٩٨م:ص ١٩.

(٧) مدخل إلى الإعلام وتكنولوجيا الاتصال في عالم متغير: محمد نصر مهنا ص ١٣٨.

(٨) ينظر: منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، مركز السنة النبوية والدراسات المعاصرة، ٢٠٠٥م:ص ١١٧.

(٩) ينظر: الغزو الفكري في التصور الإسلامي وكيفية مواجهته: ص ٢٦ .

١. **دور الحكومات :** فلها دور عظيمٌ في توعية أبنائها وتهيأَتهم وتثقيفهم لمواجهة التحديات المعاصرة الهدامة التي تريد النيل من بلدنا العراق العزيز ، لكونها تمثل السلطة العليا والفعّالة في بناء المجتمع وازدهاره، ولامتلاكها من الوسائل ما لا يمتلكها غيرها، ولها كذلك من الصلاحيات التي بموجبها تسير الدولة أفراداً وجماعات على ضوئها وتبنى من خلالها الآمال وتتحدى الصعوبات التي ستواجه البلاد.

٢. **تطبيق الشريعة الإسلامية:** الثابتة بمصدريها القرآن الكريم والسنة النبوية، وتحكيمها تحكيماً تاماً كاملاً مستقراً في كافة نواحي الحياة وجميع شؤون المسلمين، ثُمَّ دعوة المجتمعات الإسلامية أفراداً وشعوباً ود٨٠ولاً للالتزام بدين الله تعالى وتطبيقه[١]، لأن في ذلك صيانة للمجتمع وإبقائه نظيفا طاهرا فالإسلام دين كامل وشامل لجميع شؤون الحياة، والتمسك به والاستقامة عليه هي سبب لسعادة الدنيا والآخرة.

٣. **الدعوة الى الوحدة:** فلا يعرف الإسلام الفرقة بالألوان أو بالأجناس أو باللغات، وهذه حقيقة ثابتة في الوجود كما هي مقررة بالنصوص[٢]، قال تعالى: ﴿وإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [٣]، وامر الله تعالى في كتابه المبين بالوحدة وعدم التفرقة، فقال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٤].

٤. **بناء الأسرة والمجتمع:** لأنها أساس المجتمع، فمسؤولية تربية الأولاد وتنشئتهم ترتكز على الأبوين، ودور الأسرة في المحافظة على فطرة ابنائها ودينهم، فالأُسرة إذا صلحت صلح المجتمع وإذا فسدت فسد المجتمع، ولهذا اعتنى النظام الاجتماعي الإسلامي بالأسرة عناية كبيرة تظهر في الأحكام الكثيرة بشأنها[٥]، فالأسرة هي المربي الأول الذي يجب أنْ يرشد في جهوده وطرقه في التربية وتشكيل عقلية الطفل وضميره الأخلاقي، إنَّ كُلّ الجهود والمشاريع التربوية والتعليمية إنَّما تستمد مشروعيتها وفاعليتها من موقف الأسرة ومنهجها في التربية سلباً وإيجاباً[٦].

٥. **دور التعليم :** وإصلاح مناهج التعليم، واعتماد التربية أساساً ضرورياً لعملية التعليم، وتدريب المعلمين، للقيام بدورهم، وعلى الوجه المطلوب، ليستشعروا المسؤولية المناطة بهم، مع ضرورة تحرير الجامعات، ومراكز البحث العلمي، ومنهاج التعليم من رواسب التبعية الثقافية، والفكرية، وذلك لإبراز الشخصية الإسلامية في ميادين العلاقات،

---

(١) ينظر: الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، ط٤، دار الفكر، دمشق، (د.ت): ٧/ ١٥٣.

(٢) ينظر: الوحدة الإسلامية: محمد أبو زهرة، (د.ط)، دار الرائد العربي، بيروت ، (د.ت): ص ١١.

(٣) المؤمنون: [الآية: ٥٢].

(٤) الأنفال: [الآية: ٤٦].

(٥) ينظر: أصول الدعوة: عبد الكريم زيدان، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت٢٠٠١م: ص ١١٢.

(٦) أوجه التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن الحادي والعشرين أحمد إسماعيل البسيط،: مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، السنة الثالثة: العدد الخامس: ص ٢٧٨. وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي: حسان محمد حسان، د. منشورات رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق(٥)، ١٩٨١م: ص ١٥٨.

والانظمة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية...[١]، وضمان قيام الجامعات العراقية، ومراكز الأبحاث بدورها في مجابهة التحديات الفكرية الإسلامية، من نشر الكتاب وعقد المحاضرات والندوات والمؤتمرات المحلية والاقليمية والدولية، لوضع الخطط والاستراتيجيات، لمواجهة تلك التحديات مع إصدار دورية علمية، وأخرى ثقافية تعنيان بالتحديات الفكرية والثقافية ومتابعة تحركاتها[٢]، وترجمة الكتب النافعة، والرسائل الموجزة، ونشرها بين المسلمين، مع ترجمة بعض ما نشر من مؤتمرات التنصير، والاستشراق، ووقائع لقاءاتهم وجهودهم في حملاتهم، وغيرها، رغبة في اطلاع الامة الإسلامية على ما يراد بها، والحذر من كيد ومكر الاعداء[٣]، وتشجيع وتنمية روح البحث والتفكير العلميين، وتقوية القدرة على المشاهدة والتأمل وتبصير الطلاب بآيات الله في الكون وما فيه، وبيان حكمة الله في خلقه ليتمكن الفرد من القيام بدوره الفعّال في بناء الحياة الاجتماعية وتوجيهها توجيهاً سليماً[٤].

٦. **دور وسائل الإعلام :** ضرورة اسناد المسؤوليات الإعلامية إلى عناصر واعية وملتزمة تتمتع فضلاً عن كفاءتها في تخصصها بالحماس الشديد لدينها، والاعتزاز الكبير به، والحرص على نشره، والشعور الكامل بمسؤولية الكلمة [٥].

٧. **عدم الانبهار بثقافة الآخرين:** لأنه يدل على ضعف الشخصية وهزيمة نفسه، ، فيكون هذا هو حال المقلد الذي يقتبس من دون تفكير[٦].

٨. **الانتقاء الواعي من الثقافات الأُخرى:** على ذلك فلا حرج أَنْ نقتبس من الغرب ما ينفعنا ويتلاءم مع قيمنا ومعتقداتنا وثقافتنا، ويتوجب علينا أن نتحرى ونعدّل بالحذف والاضافة فيما نقتبسه، حتى يغدو صالحاً متوافقاً مع أصول شريعتنا، ونظام حياتنا، وظروف بيئتنا، وقد يصبح بهذا التعديل جزءاً من وجودنا المعنوي وكياننا الثقافي ويفقد جنسيته الأولى[٧].

٩. **التمييز بين الثوابت والمتغيرات:** فيجب التفرقة بين القيم والعادات والتقاليد والاعراف والأحكام فإنَّ في الإسلام أحكاما عقدية وعملية تهذيبة تنتظم أحكاماً ثابتة، وهذهِ الأحكام لا تتطور ولا تتبدل ولا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة فهي غير قابلة للمراجعة والتعددية، وبمقابل هذهِ الأحكام هناك أحكام متغيره بتغير الأزمنة والأمكنة، كونها أحكاماً جاءت في نصوص ظنية الدلالة والثبوت معاً، في الدلالة دون الثبوت أو في الثبوت دون الدلالة، ولأَنَّ الظن يخالط هذهِ الأحكام في ثبوتها أو في دلالتها، فإنَّ هذهِ الأحكام فيها مرونة وفسحة للتعددية والاختلاف نظراً لتغير الزمان والمكان والوضع[٨].

---

(١) إيجابيات وسلبيات الفضائيات: أيمن الصقر، جريدة الشرق، الدوحة- قطر، العدد (٢٠٨٢)، الاثنين٢١ شعبان، ٢٠١٠م: ص٢٦.

(٢) ينظر: التنصير، مفهومه واهدافه ورسائل وسبل مواجهته: ص ١٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٤.

(٤) ينظر: غزو في الصميم: ص ٤٤.

(٥) إيجابيات وسلبيات الفضائيات: ص ٢٦. وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ص ٢٠٠

(٦) الانفتاح الفكري حقيقته وضوابطه: ص ٢٩٩. ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق: ص ٧٦.

(٧) ينظر: الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة: ص ٤٧. الثقافة والعالم الآخر: ص ٦٦.

(٨) ينظر: التواصل مع الآخر: ص ١٢.

الخاتمة

فبعد نهاية المطاف، وقد برزت مجموعة من النتائج نوجزها على النحو التالي:

- الهوية هي شخصية الفرد التي تمييزه عن غيره، من كل الوجوه، بداعي الاستمرار والثبات .
- العراق موطن الحضارات منذ آدم (عليه السلام)، الى يومنا هذا مرورا بمختلف العصور .
- إن هوية العراق متعددة الأبعاد تنبع من الواقع ، وتتبع عدداً من المرجعيات الدينية، والسياسية، والفكرية.
- شكلت الحضارات المتعاقبة في بلاد الرافدين الصورة الرمزية لهوية العراق على مختلف العصور وهي الطابع الأبرز فيها .
- تعاقبت على الشخصية العراقية جملة من الأحداث والحروب والغزوات لِما تمتاز به من سعة المقومات وامتلاكها العديد من الموارد .
- على الرغم من ما أصيبت به الهوية العراقية من الفتور في بعض الأحيان بسبب الغزو والإحتلال، إلاَّ أَنَّ ذلك لم يؤثر على مسيرتها، بسبب حياتهم العامة والخاصة، وتطبعها بطابعها العراقي الخاص .
- خسر المواطن العراقي خلال فترات من الزمن كثيرًا من فرص الحياة، بسبب الحصار والسياسات المتخبطة وممارسات النظام القمعية تراجع خلالها الأداء الثقافي والإبداعي .
- اختلفت أغراض ووسائل التحديات التي واجهت الهوية العراقية تبعا لتنوعها وسياساتها مما جعل العراق يخوض كماً هائلاً من التجارب بيدَ أنه لازال صامدا .
- تكونت لدى الشخصية العراقية جملة من المفاهيم والخبرة والتصورات عن الأمم والشعوب بسبب تغير الأحوال عليه.
- يجب تحصين الفرد العراقي بالمعلومات الكافية ومتابعة سيره في كامل حياته للمحافظة على هويته وقيمه وأعرافه .
- تقع مسؤولية المحافظة على الهوية العراقية على الجميع من حكومات وأسرٍ ومؤسساتٍ وأفراد كل جيل يقلد الأمانة الى الذي يليه .
- تدعو الثقافة العراقية بمفهومها الرحب إلى توسيع المدارك، وضرورة التعايش والحوار بين الأمم والشعوب بما لا يسلب عنها مستلزماتها ورونقها.

والى غير ذلك من النتائج التي ذكرت في ثنايا البحث والله الموفق .

المصادر والمراجع

وهي بعد القرآن الكريم:

١. اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر، د. حمد بن صادق الجمال، ط١، دار عالم الكتب، بيروت ، ١٩٩٤م.
٢. الاتصال والإعلام في المجتمعات الحديثة، صالح خليل أبو أصبع، (د.ط)، دار مجدلاوي، عمان ، (د.ت).
٣. آثار الفكر الاستشراقي والمجتمعات الإسلامية، د. محمد خليفة حسن أحمد، ط١، مطبعة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٧م.
٤. الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن، د. محمد بن سعيد السرحاني، (د.ط)، مجمع الملك فهد للطباعة المصاحف، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٧هـ.
٥. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط٨، دار القلم، دمشق ، ٢٠٠٠م.
٦. أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمد عمارة، (د.ط)، دار الشرق الأوسط، القاهرة ، (د.ت).
٧. أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي، د. علي محمد جريشه، و محمد شريف الزيبق، ط٣، دار الاعتصام، القاهرة ، (١٩٧٩م).
٨. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة ، (د.ت).
٩. الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر، د. عدنان محمد وزان، (د.ط)، سلسلة دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، عدد (٢٤)، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
١٠. الإسلام والحداثة هل يكون غداً عالم عربي، د. مصطفى الشريف، ط١، دار الشروق، ١٩٩٩م.
١١. الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، د. يوسف القرضاوي، ط٧، مكتبة وهبة، القاهرة ، ١٩٩٧م.
١٢. أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ٢٠٠١م.
١٣. الأصول الفكرية للثقافة الإسلامية، د. محمود الخالدي، ط١، دار الفكر، عمان ، ١٩٨٣م.
١٤. الإعلام الإسلامي (المبادئ- النظرية- التطبيق)، د. محمد منير حجاب، ط١، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة ، ٢٠٠٢م.
١٥. أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، جمع وترتيب سيد بن حسين العفاني، ط١، دار ماجد عسيري، جدة ، ٢٠٠٤م.
١٦. الإعلام والاتصال بالجماهير، إبراهيم إمام، ط١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٧٥م.
١٧. الإعلام والدعاية، د. عبد اللطيف حمزة، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة ، ١٩٧٨م.
١٨. الإعلان بين النظرية والتطبيق، د. عبد الجبار منديل، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٨٣م.
١٩. الإعلان والعلاقات العامة في ظل المفاهيم الإسلامية، د. عايد فضل الشعراوي، (د.ط)، دار البشائر الإسلامية، (د.ت).
٢٠. إنجيل مرقس.

٢١. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، (١١٤٥- ١٢٠٥هـ) تحقيق: مجموعة من المحققين،(د.ط)، دار الهداية، (د.ت).
٢٢. التأريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي، د. محمد مظفر الأدهمي وآخرون، ط١، النخيل للطباعة، ٢٠٠١م.
٢٣. التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د.مصطفى خالدي، و د.عمر فرّوخ، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت ، (د.ت).
٢٤. التحذير من وسائل التنصير، تأليف اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ط١، (د. ن)، (د.ت).
٢٥. التطرف العلماني في مواجهة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، (د.ط)، أندلسية للنشر والتوزيع، المنصورة٢٠٠٠م.
٢٦. التطورات الدستورية في العراق: رعد ناجي الجدة، ط١، دار الحكمة، بغداد ، ٢٠٠٤م.
٢٧. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني ت(٨١٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الابياري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٤٠٥هـ.
٢٨. تقويم نظرية الحداثة، د. عدنان علي رضا النحوي، ط١، دار النحوي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ، ١٩٩٢م.
٢٩. التنصير مفهومه وأهدافه، ووسائله، وسبل مواجهته، علي بن إبراهيم الحمد النملة، ط٢، (د. ن)،
٣٠. التنصير، تعريفه، أهدافه ووسائله، حسرات المنصرين، عبد الرحمن بن عبد الله الصالح، ط١، دار الكتاب والسنة، ١٩٩٩م.
٣١. الثقافة الإسلامية ثقافة المسلم وتحديات العصر، د. محمد أبو يحيى وآخرون، ط١، دار المناهج، عمان ، ٢٠٠١م.
٣٢. الثقافة الإسلامية، د. حسيب السامرائي، ط١،(د.ن)، ١٩٧٧م.
٣٣. الثقافة والعالم الآخر، د. عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي، (د.ط)، دار الوطن، الرياض، (د.ت).
٣٤. ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، د. يوسف القرضاوي، ط١، دار الشروق، ٢٠٠٠م.
٣٥. الحروب الصليبية، بدؤها من مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن، د. أحمد الشلبي، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٨٦م.
٣٦. الحضارة الإسلامية المعاصرة بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، جمع وإعداد الباحث في الكتاب والسنة علي بن نايف الشحود.
٣٧. الحقوق الثقافية والدستور العراقي، عبد الوهاب عبد الرزاق التحافي، (د.ط)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العدد(٣٧)، ٢٠٠٢م.
٣٨. حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة ،١٩٨١م.
٣٩. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ط١٥، دار الشروق، القاهرة ،٢٠٠٢م.
٤٠. خطابنا الإسلامي في عصر والعولمة، د. يوسف القرضاوي، ط١، دار الشروق، القاهرة ، ٢٠٠٤م.

٤١. الدعاية والإعلان والعلاقات العامة، جودت ناصر، (د.ط)، دار مجدلاوي، عمان ، ١٩٩٨م.
٤٢. الدعوة الإسلامية والإعلام الدولي، محيي الدين عبد الحليم، (د.ط)، دار الفكر العربي، القاهرة ، (د.ت).
٤٣. سقوط العلمانية، أنور الجندي، (د.ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، (د.ت).
٤٤. صحافة العراق، رفائيل بطي، ط١، مطبعة الأديب، بغداد ، ١٩٨٥م.
٤٥. الصحافة في العراق، رفائيل بطي، (د.ط)،جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٥م.
٤٦. الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة الأمة على طريق الله، أنور الجندي، (د.ط)، دار الاعتصام، القاهرة- مصر، (د.ت).
٤٧. صيحة تحذير من دعاة التنصير، محمد الغزالي، ط١، دار الصحوة، القاهرة ، ١٩٩١م.
٤٨. صيد الخاطر، للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي ت(٥٩٧هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٢م.
٤٩. ضحى الإسلام، أحمد أمين، (د.ط)، مكتبة الأسرة، القاهرة ، ١٩٩٧م.
٥٠. العراق في التأريخ القديم، د. عامر سليمان، (د.ط)، دار ابن الأثير، الموصل- العراق، ١٩٩٢م.
٥١. عصر الخلافة الراشدة، د. أكرم ضياء العمري، (د.ط)، مكتبة العبيكان، (د.ت).
٥٢. العلاقات العامة المبادئ والتطبيق، د. حسن محمد خير الدين، ط٢، مكتبة الشمس، القاهرة ، ١٩٦٠م.
٥٣. العلاقات العامة مفاهيم و ممارسات، د. محفوظ أحمد جودة، (د.ط)، دار الهلال، عمان، ١٩٩٦م.
٥٤. العلاقات العامة، د. أحمد محمد المصري، (د.ط)، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٨٥م.
٥٥. العلمانية في ميزان العقل، عيد البطاح الدويهيس، (د.ط)، (د.ن)، الكويت، ٢٠٠٣م.
٥٦. العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر بن عبدالرحمن الحوالي، (د.ط)، دار الهجرة، (د.ت).
٥٧. العولمة والتحدي الثقافي، د. باسم علي خريسان، ط١، دار الفكر العربي، بيروت ، ٢٠٠١م.
٥٨. العولمة وخيارات المواجهة، رعد كامل الحيالي، (د.ط)، شركة الخنساء للطباعة المحدودة، بغداد ، ١٩٩٩م.
٥٩. العولمة، د. صالح الرقب، ط١، الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ٢٠٠٣م.
٦٠. الغزو الفكري في التصور الإسلامي وكيفية مواجهته، د.أحمد عبدالرحيم السايح، ط١، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ٢٠٠٠م.
٦١. الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، د.عبد الستار فتح الله سعيد، ط١، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٨٩م.
٦٢. فجر الإسلام، أحمد أمين، ط١٠، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٦٩م.
٦٣. الفدرالية الخطر القادم، د. عبدالله الرشيد، (د.ط)، (د.ن)، ٢٠٠٥م.

٦٤. فصول من تاريخ العدوان الأمريكي الصهيوني على الأُمَّة العربية: شفيق السامرائي وآخرون، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٩٠م.
٦٥. الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي، ط٤، دار الفكر، دمشق ، (د.ت).
٦٦. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة ،١٩٦٤م.
٦٧. الفكر الإسلامي تقويمه وتجديده، د. محسن عبد الحميد، ط١، دار الأنبار، ١٩٨٧م.
٦٨. الفكر الإسلامي في تطوره، محمد البهي، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة ، دار التضامن، ١٩٨١م.
٦٩. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، د. محمد البهي، ط٣، مكتبة وهبة، القاهرة ، ١٩٨٢م.
٧٠. الفكر الإسلامي وقضايانا السياسية المعاصرة: د. أحمد الريسوني، ط١، دار الحكمة، المنصورة ، ٢٠١٠م.
٧١. الفكر الإسلامي، د.محمد محمد إسماعيل، (د.ط)، مكتبة الوعي، بيروت ، ١٩٥٨م.
٧٢. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ت(٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في المؤسسة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ٢٠٠٣م.
٧٣. قضايا في الفكر المعاصر، د. محمد عابد الجابري، ط١، نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٧م.
٧٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري(٦٣٠- ٧١١ هـ)، (د.ط)، دار صادر، بيروت ، (د.ت).
٧٥. لمحات في الثقافة الاسلامية، عمر عودة الخطيب، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٧٩م.
٧٦. المجتمعي في الوطن العربي، د. مولود زايد الطبيب، ط١، المركز العالمي لدراسات وبحاث الكتاب الأخضر، بنغازي ، ٢٠٠٥م.
٧٧. مدخل إلى الاعلام وتكنولوجيا الاتصال في عالم متغير، د. محمد نصر مهنا، (د.ط)، (د.ن)، (د.ت).
٧٨. مشكلة الثقافة ، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط٤، دار الفكر، بيروت ، ٢٠٠٠م.
٧٩. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت(٧٧٠ هـ)، (د.ط)، المكتبة العلمية، بيروت ، (د.ت).
٨٠. المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية ، تصدير الدكتور إبراهيم مدكور، (د.ط)، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ، ١٩٨٤م.
٨١. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، تحقيق: مجمع اللغة العربية،(د.ط)، دار الدعوة،(د.ت) .
٨٢. معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية: مناع القطان، ط١، مكتبة الوهبة، القاهرة ، ١٩٩١م.
٨٣. مفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت(٥٠٢ هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (د.ط)، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٦١م.

٨٤. منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، ط١، مركز السنة النبوية والدراسات المعاصرة، ٢٠٠٥م.
٨٥. منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، محمد أبي الفتح البيانوني، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٩٥م.
٨٦. الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ناصر عبد الله القفاري، وناصر عبد الكريم العقل، ط١، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.
٨٧. المورد قاموس انكليزي-عربي، منير البعلبكي، (د.ط)، دار العلم للملايين، بيروت ، ٢٠٠٨م.
٨٨. الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، (د.ط)، بيروت ، ١٩٨٦م.
٨٩. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، ط٥، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض ، ٢٠٠٣م.
٩٠. نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، ناجي معروف، (د.ط)، مطبعة الأزهر، بغداد ، ١٩٦٦م.
٩١. النظام الإعلامي الجديد، د. مصطفى المصمودي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد(٩)، ١٩٨٥م.
٩٢. الوجودية وواجهات الصهيونية، د. محسن عبد الحميد، (د.ط)، دار العربية للطباعة العربية، بغداد ، ١٩٧٧م.
٩٣. الوحدة الإسلامية، محمد أبو زهرة، (د.ط)، دار الرائد العربي، بيروت ، (د.ت).
٩٤. وسائل الاتصال نشأتها وتطورها، خليل صابات، ط٦، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٩١م.

الحَرْبُ النّاعِمةُ في الخِطابِ الدّيني

خطابُ الشّيخِ مُحَمّد اليَعقوبيّ انموذجا

د. سعد جاسم لفته الكعبي

جامعة الكوفه / كلية الفقه

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين :

إنّ الهدف الذي تسعى له الدول والقوى العالمية اليوم هو فرض سيطرتها السياسية والاقتصادية على مراكز صناعة القرار والمراكز الاقتصادية ، بل التأثير في تشكيل الهوية الاجتماعية والسلوكية الفردية .

وقد اتجهت هذه القوى اتجاها جديداً يبتعد عن القوة العسكرية والتدخل المباشر في قيادة الشعوب وهذا الاتجاه هو التأثير الثقافي والتبعية الفكرية مما يجعل تلك الدول مهيمنة على غيرها من دون التورط بالعمل العسكري وتحمل نتائجه الباهظة بشريا وماديا وأطلق على هذا النوع من أساليب فرض الهيمنة بـ (الحرب الناعمة) .

وانطلاقاً من المسؤولية الشرعية والوطنية تحتم على العلماء الوقوف عند هذا المنعطف الخطير ، و بيان حقيقة هذه الحرب ، وأدواتها ، وطرق معالجتها المستوحاة من القرآن والسنة ، والتوجيه بأخذ المبادرة ، وتوظيف هذا النوع من القوى لتعزيز المجتمع المسلم ، وإيصال رسالة الإسلام لبقية شعوب الأرض .

وقد كان لسماحة الشيخ اليعقوبي عدة خطابات بيّن فيها خطورة هذه الحرب ومصاديقها التي تستهدف المجتمع المسلم وثقافته ، كما بيّنَ فيها سبل وآليات توظيف القوى الناعمة المشروعة للدفاع عن الإسلام والمسلمين .

المبحث الأول : الحرب الناعمة تعريفها ومصادرها

المطلب الأول : تعريف الحرب الناعمة :

إنّ تحديد الحرب الناعمة كعبارة تركيبية يتوقف على وضوح مفهوم (الناعمة) ، والمقصود منها الحرب التي تستعمل فيها القوة الناعمة في مواجهة الغير ، وقد عُرّفتْ القوة الناعمة بأنّها : " القدرة على الحصول على ما تريد ، عن طريق الجاذبية بدل الإرغام ودفع الأموال ، وهي تنشأ من جاذبية ثقافة بلد ما ومُثُلِهِ السياسية وسياساته "[١]، وبصياغة أخرى : " هي اجتذاب الآخرين تلقائيا إلى نظام ما باستخدام الإغراء الخالي من الترغيب والترهيب " [٢] ، وباختصار هي جعل الآخرين يريدون ما تريد ، بل هي إعادة تشكيل تفضيلات الآخرين[٣].

ومن خلال التدقيق في التعريف ، نجده يركز على نقاط القوة في الذات المؤثرة في اجتذاب الآخر ، وهذا يتحقق في الحرب والسلم ، فحتى الصديق يمكن أنْ تستعمل معه موطن القوة الجاذبة .

لكن مفهوم الحرب يتضمن طرفي صراع يحاول كل منهما حسم المواجهة لصالحه ، وهذا الأمر يستدعي تقوية نقاط التأثير في طرفه وإضعاف نقاط القوة في الخصم ، لذا عرّفتْ الحرب الناعمة " بأنّها استعمال القوة الناعمة للتأثير على العقائد والقيم الأساسية لفرض الإرادة وتأمين المصالح[٤].

وعُرّفتْ : بأنّها الجيل والنمط الرابع من حروب المستقبل التي تستهدف السيطرة على الناس من خلال الدبلوماسية العامة والاتصالات الاستراتيجية وعمليات المعلومات والتلاعب بالمفاهيم والمشاعر[٥] .

الأمر الذي يستدعي استعمال الإعلام في التمويه من خلال إظهار نقاط قوة مزيفة ، أو إخفاء نقاط الجذب الموجودة في الخصم .

ومصطلح (الحرب الناعمة) وإنْ كان مصطلحاً حديثاً إلّا أنّه أسلوب قديم في الصراعات سواء كانت فردية أم أممية " فمنذ الازمنة الأولى كانوا يستفيدون منها في الإعلام المضلِل ، وقلب الحقائق ، وتزييف الوقائع ، وبث الاشاعات لإحباط الخصم وتثبيط معنوياته وإحداث حالة الرعب والإرباك لديه وتشويش أفكاره ومعتقداته وتحويله إلى أداة طيّعة لما يريدون منه ، ومن الشواهد التاريخية على ذلك التورية التي كان يستعملها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يخرج إلى غزواته ليضلل الخصم، ومنها المكر والخداع الذي كان يمارسه الأعداء حتى مزّقوا جيش أمير المؤمنين والإمام الحسن (عليهما السلام) فقعدوا عن القتال، ومنها الإشاعات الكاذبة التي كانوا يبثّونها كإشاعة مجيء جيش الشام واستباحته لدماء وأعراض أهل الكوفة حين حاصر

---

(١) جوزيف س ناي ، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية ، ترجمة د. محمد توفيق المخزومي ، دار عبيكان ، ط١ : ١٢.

(٢) محمد حمدان ، الحرب الناعمة ، دار الولاء ، ط١ : ٢٤.

(٣) ظ : القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية : ٢٦.

(٤) الحرب الناعمة قراءة في أساليب التهديد وأدوات المواجهة ، مركز قيم للدراسات : ١٢.

(٥) آنا سيمونز أستاذة مادة التحليل الدفاعي في كلية الدراسات العليا للبحرية الأمريكية ، نقلا عن كتاب (الحرب الناعمة – الأسس النظرية والتطبيقية ، مركز الحرب الناعمة للدراسات:٥٧ .

مسلم بن عقيل والآلآف من الموالين عبيد الله بن زياد في قصر الإمارة، فانتشر الرعب في أوساط أهل الكوفة وانسحبوا وتركوا مسلما وحيدا ولم يكن مع ابن زياد داخل القصر إلّا بضع عشرات" [١].

المطلب الثاني : موارد الحرب الناعمة :

هناك ثلاثة موارد للقوة الناعمة تمثل الموارد الرئيسة للحرب الناعمة وهي :

ثقافة البلد في الأماكن التي تكون جذابة للآخرين .

القيم السياسية للبلد عندما تطبق بشكل مخلص وعادل في المجتمع ومع بقية الشعوب .

سياسته الخارجية عندما يراها الآخرون مشروعة[٢] .

إذا لاحظنا النقاط الثلاث وقيودها نجد أنّ هذه الموارد تستعمل كقوة ناعمة في التأثير على الأفراد والشعوب التي تعتقد بحقانية مفردات تلك الثقافة وفي الموارد التي يؤمن بها البلد .

أمّا البلدان التي تنفر من تلك العادات والتقاليد والسلوكيات فستشكل نقطة ضعف في مواجهتها وبالنتيجة تضطر أطراف الصراع إلى تلميع ثقافاتها وسلوكياتها ليراها الآخرون جذابة وصحيحة وتشويه ثقافة وسلوكيات الخصوم لتكون نقاط ضعف تقلل من فرص انتصاره .

وقد صَرَّحَ جوزيف ناي بأنّ أمريكا وبريطانيا مارست هذه الخدعة من أجل تقوية قواها الناعمة ، فإنّ الثقافة الأمريكية والبريطانية ليست جذابة في كثير من الشعوب لذا عمدت إلى ترويج قيمهما من خلال خلق هيكل من القواعد الدولية يتماشى مع طبيعتها الليبرالية[٣].

كما أنّ استقطاب الطلاب والشباب للدراسة والعمل في أمريكا سيرسخ القيم التي ترسمها الثقافة الأمريكية[٤] .

إنّ هذه الموارد تبتني على فكرة أنّ حقيقة القوة الناعمة تكمن في الجذب والتنفير المستند للثقافة السائدة في المجتمعات .

وقد ذكر الشيخ اليعقوبي أنّ هناك موارد للقوة الناعمة غير ملتفت لها منها ما يدخل ضمن آلية الجذب كالأخلاق الحسنة [٥]، كما ورد عن المعصومين (عليهم السلام) مثل وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعمه العباس بن عبد المطلب (إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)[٦]، وقد دخل كثير في الإسلام والإيمان بسبب تأثّرهم بأخلاق وسيرة أئمة الإسلام وقادته وعلمائه، روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم

---

(١) اليعقوبي ، محمد ، خطاب المرحلة (القوى الناعمة والمنبر الحسيني) خطاب رقم (٤٢٦)
http://yaqoobi.com/arabic/index.php/5/1/index.4.html.

(٢) القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية : ٣٢.

(٣) ظ : المصدر نفسه.

(٤) ظ : المصدر نفسه : ٣٥.

(٥) القوى الناعمة والمنبر الحسيني ، خطاب رقم (٤٢٦) الموقع الرسمي لمكتب المرجع اليعقوبي
http://yaqoobi.com/arabic/index.php/5/1/index.4.html.

(٦) المجلسي ، محمد باقر ، بحار الانوار ،دار إحياء التراث العربي ، ط٣ ، ٦٨ : ٣٨٣ .

ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير فإن ذلك داعية).[١]، ومن القوى الناعمة (المنبر الحسيني والشعائر الحسينية) التي أثْبتت أنها قوة عظيمة للجذب إلى الحق والتأثير في الشعوب لأنها تستمد قوتها من قوة مواقف الإمام الحسين (عليه السلام) النبيلة وتضحياته العظيمة ومبادئه السامية ويكون التأثير أكبر لو أتعب الخطباء أنفسهم ليكونوا أهلاً لتحمل مسؤولية الانتساب إلى هذا الموقع الشريف .

أمّا الموارد التي تكون أوسع من مفهوم الجذب وتدخل ضمن مفهوم التأثير في الغير فعديدة منها :

الدعاء :

الذي ورد فيه أنه يدفع البلاء وقد أُبرِم إبراما أي تمت كل مقدمات نزوله وتنفيذه على أرض الواقع، فهذه وسيلة غيبية للتأثير في الحوادث.

وكذلك (الصدقة) التي تفعل نفس الفعل، عن الإمام الصادق قال: (داووا مرضاكم بالصدقة وادفعوا البلاء بالدعاء واستنزلوا الرزق بالصدقة)[٢]، فموارد الحرب وتخطيط الأعداء يندرج ضمن البلاء المحدق بالأمة فيكون الدعاء و الصدقة من القوى التي يستثمرها المجتمع المؤمن في حماية أبنائه من تلك المخططات ، وقد وظفه الإمام السجاد (عليه السلام) كطريق من طرق مواجهة العدو[٣] .

ومما يمكن إضافته كقوى ناعمة تسهم في الجذب أو دفع مخططات الأعداء هو الثقة المطلقة بالله تعالى والتوكل الكامل عليه ، قال تعالى : ﴿ **وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ [٤] ، فهذه الآية صريحة في أنّ الله تعالى يدفع مخططات الأعداء عن أوليائه مهما كانت خطيرة .

كما ورد قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾ [٥].

المبحث الثاني : مواجهة الحرب الناعمة في خطاب الشيخ اليعقوبي :

إنّ العراق بعد ٢٠٠٣ أصبح ساحة للصراع بين القوى الدولية من جهة ومن جهة أخرى أصبح هدفاً يراد استقطابه من خلال إقناعه بهذه الثقافة أو تلك ، ولأنّ الشعب العراقي شعب مسلم احتاجت القوى الغربية للهيمنة عليه ثقافياً إلى مرحلتين :

الأولى : سلخه عن قيمه وتقاليده الإسلامية عبر زعزعة ثقته بمبادئه ورموزه الدينية .

الثانية : إقناعه بالثقافة الغربية بكل ما فيها من سلوكيات .

---

(١) الحر العاملي ، محمد ، وسائل الشيعة ، مؤسسة آل البيت ، ط : ١٥ / ٢٤٦ ح١٣.

(٢) الكليني ، محمد بن يعقوب ، الكافي ، دار الكتب الإسلامية ، ط٣: ٤ / ٣ ح٥.

(٣) الصحيفة السجادية ، مطبعة آثار ، ط١ : ١١٠.

(٤) الأنفال : ٣٠.

(٥) الأنفال : ٦٢-٦٣.

يقول الشيخ اليعقوبي : " لقد عَوّدَنا الغرب على تعظيم ما عنده وإعطائه هالة مقدسة ، والتقليل من شأن ما عندنا ليرسخ فينا التبعية له حتى يسهل سلخنا من ديننا وأخلاقنا ومبادئنا " [١].

وقد اتبعت القوى الغربية لتنفيذ كلتا المرحلتين خطوات ممنهجة شخصها الشيخ اليعقوبي في خطاباته وبين سبل تفاديها كما بين مواردها من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

وسنتناول هذه التشخيصات والمعالجات من خلال مطالب هذا المبحث إنْ شاء الله تعالى .

المطلب الأول : تغيير المفاهيم القيمية عند الأمة :

يتفق المجتمع البشري على صحة العديد من القيم والمبادئ كالصدق والعفاف والحرية وكذلك يتفق على قبح سلوكيات أخرى مثل الكذب والظلم واستغلال الغير ، وقد سعت القوى الغربية إلى إعادة تشكيل تلك المفاهيم القيمية لأجل تطبيق كل المعاني الخيرة على مفردات الثقافة الغربية وإظهار الثقافة الإسلامية كثقافة متطرفة ، ومن هذه المفاهيم مفهوم (الاستعمار) فلفظ (الاستعمار) مصطلح قرآني مثمر وإيجابي ويُغني الحياة بالخير، لكن الدول المستكبرة اختطفته وحوّلته الى معنى معاكس يتضمن القتل والتدمير والخراب والاستحواذ على ثروات الشعوب وتجويعهم والاستيلاء على زمام الأمور في بلدانهم، ككثير من المصطلحات التي شوهوها كالحرية التي تعني الانعتاق من أغلال الأهواء والشهوات والتعصّب والعبودية الخالصة لله تعالى فأصبحت تعني عندهم الانفلات من كل الضوابط الأخلاقية أو السياسة التي تعني رعاية مصالح البلاد والعباد وصلاح أمورهم[٢].

ومن المصطلحات التي حاولوا إعادة تشكيلها وفق ما يريدون مصطلح (الحرية) فأخذوا يطبقونه في موارد كانت حتى عهد قريب تمثل شذوذا عن الفطرة الإنسانية ، فقد أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة حكماً يوم الجمعة ٢٠١٥/٦/٢٦ يقضي بمنح الحق للمثليين جنسياً في الولايات المتحدة كافة ، وهو الحكم الذي وصفه رئيسهم أوباما بأنّه انتصارٌ لأمريكا وانتصارٌ للحب. وتدّعي أمريكا أنّها القوة العظمى في العالم وأنّ باستطاعتها الهيمنة عليه وقيادته ويوجد عدد كبير من المنبهرين بالقوة الأمريكية المقتفين لآثارها، لذا احتفل الملايين في عدة دول بهذا الانتصار.

أرأيتهم كيف يتبجحون بما تستنكف حتى الحيوانات الهمجية عن فعله وممارسته ناهيك عن منافاته للفطرة الإنسانية والغريزة المودعة، فهبطوا إلى ما دون البهيمية وعادوا إلى الجاهلية الرعناء ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [٣]، فكانوا مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِنْ هُمْ إِلّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [٤]، متذرّعين بالحرية وهي حقٌ مقدّس منحه الله تعالى لعباده لكنها لا تعني الفوضى العارمة في اتباع الشهوات والخروج عن القوانين العقلائية ،

---

(١) الموقع الرسمي لمكتب الشيخ اليعقوبي http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html .

(٢) اليعقوبي ، محمد ، خطاب المرحلة ، خطاب رقم (٤٣٨) مدلول آية (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود ٦١) ، موقع المرجع اليعقوبي http://yaqoobi.com/arabic/index.php/permalink/5757.html .

(٣) النمل : ٥٥ .

(٤) الفرقان : ٤٤.

فشوّهوا بسلوكهم الشائن هذا العنوان الجميل، وهل من الحرية أنْ يُترك المصاب بمرض فتاك معدي يتحرك في المجتمع كيف يشاء ويلوّث الآخرين ويصيبهم بمرضه، أم يُحْجَرْ عليه ويُعالج حتى يشفى، علماً أنْ الأمراض الأخلاقية والاجتماعية أشدّ فتكاً من الأمراض الجسدية[١].

ويمكن عرض سبل مواجهة هذا المحور من الحرب الناعمة من خلال نقطتين :

الأولى : إنّ أمريكا وبريطانيا وكل القوى المادية لا تفكر إلّا بمصالحها أما القيم والمبادئ الإنسانية فهي آخر ما تفكر فيه إلّا بمقدار ما يخدم مصالحها فلا تصدق أنها جاءت لتحررنا نعم قد تلتقي مصلحتها مع مصلحتنا فتفعل ما يبدو أنه خدمة لنا إلّا إنّ الواقع أنّها مملوءة أنانية فلا تفكر إلا في نفسها وهذه الصفة من المرتكزات الأساسية للشخصية الغربية المبنية على الأسس المادية[٢].

إنّ هذه النقطة تعني أنْ لا نسلم للشعارات الغربية وإن بدت ظاهرا براقة ، لأنّ معرفتنا بالسياسة الغربية توضح لنا البعد النفعي فيها ، وبالنتيجة فإنّ محاولتها لإعادة هيكلة القوانين والقيم كما يقول جوزيف ناي لن ينفعها في فرض هيمنتها الثقافية والفكرية علينا .

الثانية : رفض التبعية للغرب والمحافظة على شخصيتنا الأصيلة بكلّ عناصرها سواء في المظهر، أو في العقيدة، أو في الفكر والثقافة، والنظر إلى ما يأتينا منه بعين البصيرة، والالتفات إلى قبائحه ومساوئه والأمراض النفسية والاجتماعية والأخلاقية التي تعصف بمجتمعاتهم[٣].

إنّ التحديدات للمفاهيم القيمية التي تأتي عبر الصياغة الغربية لابدَّ أنْ تخضع في لحظة التّلقي إلى معايير موثوق بها تضمن عدم حصول تزييف للقيم وبالتالي تمثل حصانة للشخصية المحاورة للثقافة الغربية .

المطلب الثاني : استهداف الوحدة المجتمعية :

من المحاور التي تستهدفها القوى الغربية في كيان الأمة هو وحدتها وتماسكها وهو ما لا تستطيع ضربه من خلال القوة العسكرية وبالنتيجة لابد من استخدام قواها الناعمة لإضعاف الثقافة الإسلامية وتوهينها في أعين أبنائها ، فعمدت إلى إشاعة الطائفية ، القومية ، والمناطقية.

وقد توفرت خطابات الشيخ اليعقوبي على جملة معالجات تضمن وحدة النسيج الاجتماعي للعالم الإسلامي :

الالتفات إلى القواسم المشتركة بيننا وهي كثيرة، فربنا واحد ونبينا واحد وكتابنا واحد وقبلتنا واحدة وعدونا واحد وهمومنا واحدة ومصالحنا واحدة ومستقبلنا واحد وأسس ديننا واحدة، وهي ما أشارت لها الآية المباركة ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾[٤]، وأمرت

---

(١) اليعقوبي ، محمد ، خطاب المرحلة ، خطاب مدلول قوله تعالى(إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا) إباحة زواج المثليين نموذجاً . http://yaqoobi.com/arabic/index.php/permalink/5781.html .

(٢) اليعقوبي ، محمد ، كلمات مضيئة ، موقع المرجع اليعقوبي ، . http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html .

(٣) اليعقوبي ، محمد ، كلمات مضيئة .http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html .

(٤) آل عمران : ١٠٣ .

بالاعتصام به وجعلته المحور الذي يجتمع عليه المسلمون، فلماذا نعرض عنها جميعاً ونركز على النقاط الفرعية جداً التي نختلف فيـها[١].

نبذ الفرقة والخلاف باجتناب أسبابه التي أهمها التعصب للانتماءات سواء كانت للأشخاص أو الجهات ومحاولة إلغاء الآخر والتطرف في المعتقدات والتحجر في الأفكار فلابدّ أن نحترم وجهات نظر الآخرين خصوصاً إخواننا في المذهب والدين[٢] .

توحيد خطاب الأمة وتوجهاتها نحو المطالب الحقيقية وعدم التشتت في الرؤية أو التركيز على مطالب جزئية فتضيع الأمة[٣] .

الالتفات إلى القضايا المصيرية التي تهمنا جميعاً على حد سواء فإنّ أعداءكم يحاربونكم لا لأنكم سنة أو شيعة أو مقلدي فلان أو فلان ولا لأنّكم من هذه العشيرة أو تلك أو هذه المدينة أو تلك بل يحاربونكم جميعاً على حد سواء لأنكم مسلمون فاجتمعوا في مواجهتكم لهم على هذا المحور وهو الإسلام ولا تنشغلوا بالخلافات الجزئية وتنازلوا عن الكثير من حقوقكم من أجل عِزة الإسلام ووحدة المسلمين[٤].

المحافظة على النظام الاجتماعي العام وعدم الإخلال به فأنّه من أعظم الواجبات الشرعية .

التحلي بالصبر وسعة الصدر والتسامح والتعاون ولا نتعامل مع الأمور بعاطفية وانفعال وتسرع وارتجال[٥].

النظر لتعدد الرؤى واختلاف المناهج على أنّه أمر طبيعي مادام هناك عقل يفكر ويقتنع بما يتوصل إليه فيجب أنْ ننظر إلى هذا التعدد على أنّه حالة إيجابية باعتباره تنويعاً لآليات العمل التي تصب في الهدف الواحد لتتمكن من استيعاب كل شرائح المجتمع ذي القناعات المتعددة[٦].

المطلب الثالث : استهداف المرأة :

أهمية دور المرأة :

إنّ المرأة عنصر مهم في تربية المجتمع فإن كانت واعية وصالحة وملتزمة فإنّها تكون قادرة على إنشاء جيل صالح لأنّها المربي المباشر للأبناء باعتبار انشغال الرجال في أعمالهم خارج البيت وقد سمعنا عن الكثير من النساء

(١) موقع المرجع اليعقوبي ، كلمات مضيئة .http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) اليعقوبي ، محمد ، كلمات مضيئة .http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) المصدر نفسه.

اللواتي كن سبباً في هداية أزواجهن وبقية ذويهن[١] ، وعلى عاتقها تقع مسؤولية إدارة بناء الأسرة[٢].

أنّ المرأة أداة مهمة في عملية إفساد المجتمع وتدمير أخلاقه فيما إذا أقنعوها بخلع جلباب العفة والحياء والطهارة [٣].

لذا حاول الغرب تدمير عقيدة المجتمع وأخلاقه من خلال تشويه صورة المرأة في الإسلام من خلال التلويح بمصطلحات براقة خادعة كحرية المرأة ومساواتها للرجل[٤].

إنّ معرفة المرأة بحقيقة التشريعات الإسلامية يساعدها على مواجهة هذه الهجمة الشرسة ضدها ، ومن هذه التشريعات الحجاب ، فالحجاب الإسلامي ليس فقط رمزاً دينياً كالصليب والقبعة اليهودية ، بل الحجاب شعار لنظام كامل في الحياة تختطه المرأة المسلمة لأنّ الحجاب يعني إنتاج السلوك النظيف والعفيف الخالي من الخيانة والرافض للخطيئة والذي يمتنع عن الفساد والانحراف وهو تعبير عن الأخلاق الإسلامية العليا ولا يعني حمل الصليب أو لبس القبعة شيئا من ذلك[٥] .

كما أنّ التعرف على التعامل القرآني مع موضوع المرأة يبين المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة قال تعالى ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [٦].

فالمساواة الحقيقة تكون في الحقوق المرتبطة بالإنسانية كحق الحياة والكرامة كما في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [٧]، وهي شاملة للرجل والمرأة .

بينما ركز الغرب على أمور لها تعليلاتها الحكيمة المرتبطة إمّا بأسس توزيع الثروة كالإرث ، أو مرتبطة بأمور نفسية ليس فيها إهانة أو تقليل من شأن المرأة .

المطلب الرابع : استهداف الشباب :

إن أهمية جيل الشباب في الأمة لا تخفى على أحد فهم قادة المستقبل والفئة التي ترسم امتداد الأمة وعلى يدها تتشكل هوية البلد ، فهم يمثلون مقياس صحة الأمة وعافيتها فإنْ كانوا صالحين كان المجتمع كله صالحاً ولأنّهم المؤثر في حياة الأمة[٨] .

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) اليعقوبي ، محمد ، مدلول قوله تعالى (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَان (١) التوبة١٠٩ موقع المرجع اليعقوبيhttp://yaqoobi.com/arabic/index.php/permalink/5767.html.

(٣) اليعقوبي ، محمد ، كلمات مضيئة .http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html .

(٤) اليعقوبي ، محمد ، كلمات مضيئة .http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) البقرة ٢٢٨.

(٧) الإسراء : ٧٠.

(٨) اليعقوبي ، محمد ، كلمات مضيئة .http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html .

ولذا لم يكن التخطيط الغربي ليترك هذه الشريحة من دون استهدافها للقضاء على أي حضارة تتباين مع أفكاره وسلوكياته ، فكانت مشاريعه تحاك عليهم عبر الإعلام والفن والرياضة ليربطهم بأشخاص ورموز وقدوات لا يعبرون إلّا عن الثقافة الغربية وبالنتيجة يصبحون جزءاً منها .

وقد بيّن الشيخ اليعقوبي طريقة مواجهة هذه الهجمة بنقطتين :

توجيه الشباب باتخاذ قدوات صالحة والحذر من الانجرار وتقليد الفنانين والرياضيين لمجرد أنهم مشهورون مع عدم وجود الصفات الصالحة التي تؤهلهم ليكونوا قدوة اجتماعية فقال في بعض كلماته :" آمل أنْ لا تقع عيني على شاب مسلم يصفف شعره على نمط بطل فلم من الأفلام الغربية أو فتاة مسلمة سافرة أو تلبس الحجاب على الطريقة الفرنسية أو الأمريكية أو آخر يلبس الميدالية وربما الصليب في عنقه ويضع الأساور في يديه ويتكلم بكل أنوثة ولا يوجد على ظاهره ما يدل على أنّه ذكر"[١] .

تصحيح المفاهيم التي ركز عليها الغرب في تعامله مع الشباب كمفهوم (الحب) فقد عرّف الحب بمعناه الحقيقي المنسجم مع الفطرة ، وبيّنَ سبب حصوله والتي منها حب المنعم وحب الجمال المطلق وهي متوفرة به تعالى .

إن الحب الإنساني الحقيقي هو ما يتعلق بمن يستحق الحب وهو الله تبارك وتعالى، لأنّ كل ما يوجب المحبة متحقق فيه سبحانه، فالله تعالى جميل ويعرف ذلك من لمساته الجميلة على الكون وما فيه من حولنا .

كما أنّ القلب يحب الجمال والله تعالى محسن الينا وقد تولاّنا بإحسانه ونعمه قبل أنْ نكون وبعد أنْ كنّا، والانسان مجبول على حب من أحسن إليه، والله تعالى يحبنا ويشفق علينا حتى جعل من أحبّ الأشياء إليه تعالى الإحسان الى المخلوقين.

فالحب إذاً نعمة إلهية عظيمة و بالحب تعمر الحياة لأنّ الإنسان إذا لم يحب شيئا فإنّه لا يتحمس لفعله والتحرك باتجاهه، أمّا إذا أحبَّ فإنّه يضحي من أجل حبه ويذوب في محبوبه كالوالدين بالنسبة لأبنائهما، أو القائد الرسالي بالنسبة الى شعبه، وهكذا، لذا ليس غريباً أن نجد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) (هل الدين إلا الحب)[٢] ، إنّ الله عز وجل يقول ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ [٣]، لأنّ الدين محرّك ودافع لكل عمل مثمر يجلب الخير والسعادة له وللآخرين، والحب هكذا أيضا فهما يلتقيان دائما.

لكنّ المشكلة في تحريف هذا العنوان الشريف النبيل وإفراغه من محتواه بل تحويله إلى عكس معناه ككثير من المصطلحات والعناوين التي تناولناها في كلمات عديدة كالحرية والاستعمار والسياسة، فأصبح الحب يعني العلاقات المشبوهة بين الجنسين واتباع الشهوات والنزوات بلا تعقل وروية وخارج إطارها الصحيح مما يولّد مشاكل اجتماعية وآثار نفسية تكون عاقبتها وخيمة وإن بدتْ في أوّلها كأنّها سعادة ومتعة، ويوجد من يغذّي هذا المعنى السّيئ للحب بين الشباب وخصوصا في الجامعات ويهيئون البيئة المناسبة له، ويمجّدون من يقع فيه لاستدراج

(١) المصدر نفسه.

(٢) المازندراني ، محمد صالح ، شرح أصول الكافي ، ١١ : ٤٥٠.

(٣) آل عمران :٣١.

الآخرين وكسر الحواجز الأخلاقية والاجتماعية والنفسية والدينية، وتنتج دور السينما والتلفزيون والمسرح سيلا متواصلا من الأفلام والمسلسلات لتحقيق هذا الغرض وتساندهم وسائل الإعلام المختلفة وهذا كله انحراف عن الفطرة السليمة وخروج عن الروابط الاجتماعية المتينة وتحطيم للأطر الصحيحة التي تنظم العلاقة بين الجنسين، وهذا تشويه لمعنى الحب ومصادرة له وتحويله الى معنى سيئ، وهو ليس حباً اصلاً ولا يمكن تسميته بالحب بل هو اتباع للنزوات والشهوات الحيوانية التي لا يمكن إعطاء عنوان الحب لها[١].

بيان المنشأ الحقيقي للقوة الإيمانية وهو الحركة الواعية التي تستند للعلم والمعرفة وليس الاندفاع العاطفي المؤقت ، قال الشيخ اليعقوبي مشيرا لهذا الفارق ومبينا للآثار المترتبة عليه " أنا لا أنكر تقدم المستوى الإيماني لدى هذا الجيل بفضل الله تبارك وتعالى بشكل أذهل الأعداء وأصاب خططهم بالخيبة والخسران إلّا أنه مع الأسف في كثير من حالاته عبارة عن وهج عاطفي وحرارة إيمانية متدفقة غير مقترن بوعي عميق وتربية راسخة للقلب والنفس مما يجعل هذه الاندفاعة في مهب الريح -والعياذ بالله- إذا لم نتداركها بما يصلحها "[٢].

(١)اليعقوبي، خطاب المرحلة ، خطاب رقم (٤٤٢) مدلول الحديث الشريف (وهل الدين الا الحب) ، موقع المرجع اليعقوبي ، http://yaqoobi.com/arabic/index.php/permalink/5763.html.

(٢) اليعقوبي ، محمد ، كلمات مضيئة .http://yaqoobi.com/arabic/index.php/592/index.1.html .

النتائج

إنّ أمريكا وعلى لسان أحد منظريها في أسلوبها الجديد في الهيمنة على الشعوب تتبع سياسة إعادة تشكيل القيم والقوانين والمفاهيم من أجل ربط الشعوب بالثقافة الأمريكية لتصبح منقادة لها عن طواعية ورغبة فتنفذ كل ما تريده من دون أن تتحمل أمريكا أية خسائر مادية .

إنّ الخطاب الديني للشيخ اليعقوبي شخّصَ هذا الأسلوب والتخطيط ووضحه وبَيَّنَ عواقبه على الساحة العراقية .

بيّن خطاب الشيخ اليعقوبي الفئات والعناوين المستهدفة وهي(الوحدة الاجتماعية ، المرأة ، الشباب) .

فصّل الخطاب آلية مواجهة هذه الهجمة وعرض خطواتها في كل عنوان .

ومما نوصي به هو اعتماد هذه الخطابات كمادة بحثية للمراكز المختصة بالشؤون المجتمعية والأمنية لتعميق سبل مواجهة خطر الغزو الثقافي والمحافظة على أصالة مجتمعنا وقيمه الإسلامية العظيمة .

المصادر

القرآن الكريم .

الصحيفة السجادية ، الامام علي بن الحسين ، مؤسسة طوبى ، مطبعة آثار ط١ .

المجلسي ، محمد باقر ، بحار الأنوار ،دار إحياء التراث العربي ، ط٣ .

الحر العاملي ، محمد ، وسائل الشيعة ، مؤسسة آل البيت ، ط ٣

الكليني ، محمد بن يعقوب ، الكافي ، دار الكتب الإسلامية ، ط٣

المازندراني ، محمد صالح ، شرح أصول الكافي ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ .

جوزيف س ناي ، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية ، ترجمة د. محمد توفيق المخزومي ، دار عبيكان ، ط١ .

محمد حمدان ، الحرب الناعمة ، دار الولاء ، ط١ .

الحرب الناعمة قراءة في أساليب التهديد وأدوات المواجهة ، مركز قيم للدراسات .

الحرب الناعمة – الأسس النظرية والتطبيقية ، مركز الحرب الناعمة للدراسات.

الموقع الرسمي لمكتب المرجع اليعقوبي
.http://yaqoobi.com/arabic/index.php/5/1/index.4.html

الفكر العلماني وانعكاساته السلبية على المجتمع العراقي

م . م. صادق كاظم مكلف

كلية الامام الكاظم(ع) للعلوم الاسلامية الجامعة

ملخص البحث:

في ظل تطور الاتجاهات العلمانية في العراق خصوصاً بعد عام ٢٠٠٣م، لتثبيت افكارهم داخل المجتمع العراقي، وفي ضوء التطورات العلمية الحديثة ووسائل الاتصالات الكثيرة حاولت القوى الغربية المعادية للدين الاسلامي تشويهه في نظر الاخرين.

تترك العلمانية عن طريق قنواتها الرئيسية آثار سلبية في اخلاق وقيم الاسرة والمجتمع العراقي، وهذه القيم السلبية التي تؤثر على الفرد والاسرة، وتقتل طموحهم وتؤدي الى إنحطاطهم في المجتمع وتعرضهم الى جملة مشكلات اجتماعية.

ويهدف هذا البحث الى معرفة حقيقة العلمانية والآثار السلبية التي تتركها في الاسرة العراقية.

ولا شك أن الغزو الفكري او الثقافي يؤثر سلباً في قيم الاسرة داخل المجتمع العراقي، ويكون تأثيره على المعتقدات والقيم وهذه ما يتركه الغزو على مجتمعنا المعاصر، وكما تظهر الظواهر الغزو في هذه العصر كظاهرة الألحاد وغيرها، وإن هذه الافكار قد أثرت على مستوى وقيم الاسرة في المجتمع العراقي، وجعل الله داخل الانسان الفطرة البشرية في الدفاع عن عقيدته ووطنه، وفي سبيل التقدم والازهار داخل المجتمع العراقي والاسرة العراقية.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وقد إعتمد على عدة مصادر ذات الصلة بالموضوع.

ومن الله تعالى التوفيق والسداد، والحمد لله رب العالمين.

المقدمة :

الحمد لله ربّ العالمين وصل الله على سيدنا ونبيّنا خاتم الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

يُعدُّ بحث آثر الفكر العلماني في المجتمع العراقي من الموضوع المهمة، التي تبين لنا معرفة حقيقة العلمانية، والآثار السلبية التي تتركها في الاسرة العراقية، بعد عام ٢٠٠٣م، وهذا بخلاف ما جاء به الدين الإسلامي، الذي أكد على أساس التسامح والعفو في كافة جوانب الحياة، لما له من أهمية كبيرة في بناء المجتمع والحفاظ على وحدته، ومن اساسيات الفكر والعقل ينتج آراء وافكار مختلفة، تبدو مثارةً للإختلاف والفرقة ظاهراً، إلا إنها من الأمور الطبيعية للفكر البشري ودليل إيجابي على النشاط الفكري والعقلي عند البشر، شرط أن لا يخرج عن سبل الصلاح ويؤدي إلى تخريب المجتمع بالأفكار السلبية، وبهذا تعدُ الأسرة أهم خلية يتكون منها جسم المجتمع البشري إذا صلحت صلح المجتمع كله، وإذا فسدة فسد المجتمع كله، في دائرتها يتعلم الإنسان أفضل أخلاق، وهي أول لبنة في بناء المجتمع، هي أساس الحياة الاجتماعية، والمجتمع المتكامل، ويتعلم أفرادها كيفية اكتساب الاخلاق الاسلامية، والعيش الامن داخل المجتمع، وستناولها بنحو من العرض والتحليل في المباحث الثلاثة في هذا البحث.

قسمت البحث الى ملخص ومقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

أمّا المقدمة فقد تناولت فيها أهم المسائل الضرورية للبحث، وهي كالاتي:

والمبحث الأول : بيان العلمانية وصورها.

والمبحث الثاني: العوامل التي دعت الى ظهور العلمانية قبل عام ٢٠٠٣م.

والمبحث الثالث: آثار العلمانية بعد عام ٢٠٠٣م.

وأخيراً ذكرنا خاتمة للبحث لخصنا فيها ما توصلنا إليه من نتائج .

المبحث الاول

التمهيد

المطلب الاول: تعريف العلمانية لغةً واصطلاحاً :

أولاً: تعريف العلمانية لغةً :

أثارت موضوعات العلمانية جدلاً واسعاً بين عموم المفكرين والباحثين على اختلاف معنى العلمانية، هي:(**ترجمة للكلمة اللاتينية secular ومعناها في اللغات الأوربية اللاديني)**[١]، وقد ذُكرت العلمانية على أنها:(**مأخوذة من كلمة (secularism) وتعني الدنيا))**[٢]، وتعني: دنيوي أو مادي، ليس بديني أو ليس بروحاني، ليس بمترهب.

ثانياً: تعريف العلمانية اصطلاحاً :

وبيان معنى كلمة العلمانية، فقد جاءت في قاموس اللغة الإنكليزية، وهي نظرية التي تقول:(**إن الأخلاق والتعليم يجب أن لا يكونا مبنيين على أسس دينية)**[٣].

والعلمانية هي:(**حركة تاريخية حملت الافراد داخل المجتمع الغربي من المجتمع (الثيوقراطي) الديني الى المدنيّة الارضية)**[٤]، وهدف العلمانية: هو السير بأنظمة وضعية وترك أنظمة الدينية، يأتي هذا النفور من الدين نتيجة تغطرس رجال الدين المسيحي في الغرب أبان نشأت العلمانية ولكل فعل ردة فعل.

اذ تبين لنا من العلمانية: هي عزل الدين وقيوده عن كافة مجالات الحياة، لو دققنا بأسباب تلك الحركة الفكرية لو وجدنا السبب الرئيسي هو تغطرس رجال الكنيسة ولو تعمقنا في سبب تغطرسهم هل هو نابع من أنفسهم أو من التعاليم الدينية، لوجدناها من التعاليم الدينية فهيأة التفتيش وصكوك الغفران والعشاء الرباني هي من عقائد الدين المسيحي، ولو رجعنا أكثر هل هذه تعاليم الدين السماوي، بالطبع سنجدها لا صحه لها، اذن هل توجد أيادي خفيه وراءها لها الفائدة من تحريف الدين، نعم هم اليهود فأول الاسباط بولس الإسخريوطي كان يهودياً، وانهم قد حرّفوا الديانة النصرانية الى المسيحية لينفروا الناس منها، وفي المحصلة أن اليهود وراء كل حركات دينيه متعصبة التي تدعوا لنبذ الدين، حيث هي:(**التأكيد على فصل الدين عن الدولة بمعنى أن تسيير آليات الحكم بمعزل عن النفوذ الديني وراء رجال الدين)**[٥].

---

(١) العيسمى، شبلي، العلمانية والدول الدينية، ط١(الناشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – العراق، ١٩٨٦م)، ص١٩.

(٢) الزيات، احمد حسن واخرون، المعجم الوسيط، ج٢/٦٤.

(3) The new Encyclopedia Britannica , Helen tterning way publisher, USA , 1974, vol, lx , p.19 ؛ منير البعلبكي، المورد، ط ٨ (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٥م، ص ٨.

(٤) أنعام احمد قدوح، العلمانية في الاسلام، الطبعة الاولى،(مطبعة بضعة الرسول، لبنان، ٢٠١٢م)، ص٩.

(٥) دوريندا اوترا ، ترجمة ماجد موريس ابراهيم، التنوير، الطبعة الاولى، (مطبعة دار الفارابي، بيروت – لبنان ، ٢٠٠٨م)، ص٣١.

المطلب الثاني: الفكر لغة واصطلاحاً :

الامر الأول: الفكر لغةً :

إنّ كلمة أو مفهوم الفكر في اللغة العربية مأخوذة من كلمة (فكَّر)، ويقول الفراهيدي:**(اسم التفكر، فكَّر في امره وتفكر، ورجلٌ فكّيرٌ: كثير التفكُر، والفكره والفكر واحد)**[١].

الامر الثاني: الفكر اصطلاحاً :

إن مفهوم الفكر اصطلاحاً هو:**(اسم لعملية تردد القوى العاقلة المفكرة في الإنسان، سواء كان قلباً أو روحاً أو ذهناً بالنظر والتدبر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الإحكام أو النسب بين الأشياء)**[٢]، أن للعقل واجب يقوم به عندما يتعرض لأمر مجهول فيذهب للمعلومات المخزنة في داخله ليطابق بعض مفرداتها ويركب بعضها ببعض للوصول لمعرفة الامر المجهول ليخرج بنتيجة يقتنع بها، واذا لم تكن المحصلة من تلك العملية فيذهب لأهل الاختصاص في مجال ما يجهله من ذلك الامر، ولكن ليس كل البشر يذهبون لأهل الاختصاص، لأننا نجهل كثيراً من الامور ولم نتحرَّ عنها إن الفكر ثقافة على الثقافة أو في الثقافة وحولها وبها، وهو التفكير موضوعة الفكر أو الثقافة، فالفكر هو اللغة الشارحة للثقافة، والتفكر[٣].

إن عملية التفكير تولد معلومات جديدة لدى العقل وتساعده على فهم الامور المجهولة التي تدعو للتفكر بها وتزيد من ثقافته، والفكر اصطلاحاً هو نشاط إنساني عام لا يختص بحضارة معينة بذاتها أو قومية أو زمن أو مكان، أو أهل ديانة محددة فهو كالماء أو الهواء ولا يختص بشخص من دون آخر فهو ما نحتاجه أو لا يمكن الاستغناء عنه ويتميز الفكر عن كل فكر آخر حسب دين أو ثقافة ذلك الشخص أو مكانه مثل فكر المسلم يختلف عن فكر باقي أفراد الديانات الاخرى سواء أكانت وضعيه أم سماوية' أنّ للدين تأثيراً على ثقافة الفرد وتصرفاته، فطريقة تفكير المسلم تختلف عن طريقة تفكير الكافر كون الاول يخضع لضوابط وحدود نصت عليها شريعة الدين وبذلك تخضع نتائج التفكير لضابط الدين الاسلامي حسب معلوماته الإسلامية فإنْ وافقت مبادئ الاسلام أخَذَ بها وانْ لم توافق لا يأخذ بها[٤]، وبذلك يمكن عرض صورة للعلمانية على النحو التالي:

المطلب الثالث: صور العلمانية :

للعلمانية قسمان هما:

أولاً: العلمانية الملحدة: وهي التي تنكر الدين كله: وتنكر وجود الله الخالق، ولا تعترف بشيء من ذلك، بل وتحارب وتعادي من يدعو إلى مجرد الإيمان بوجود الله، وهذه العلمانية على

(١) الفراهيدي، كتاب العين، ج٣ ، فكر، ص٣٣٤.

(٢) العلواني ، طه جابر، ألازمه الفكرية المعاصرة بين القدرات والعقبات، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، ط٤، الرياض، السعودية، ١٩٩٤م، ص٢٧.

(٣) ينظر: زيعور ، علي ، انحرافات السلوك والفكر في الذات العربية، مطبعة الدار البيضاء، ط١، بيروت ، لبنان، ١٩٩٢م، ص٥١.

(٤) ينظر: عمارة ، محمد ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، مطبعة روز اليوسف ، مصر،٢٠٠٣م ، ص١٥.

فجورها ووقاحتها في التبجح بكفرها، إلا أن الحكم بكفرها أمر ظاهر ميسور لكافة المسلمين، وإن كان لها خطر عظيم من حيث محاربة الدين الاسلامي ومعاداته.

ثانياً: العلمانية غير الملحدة(١)، وهي علمانية لا تنكر وجود الله، وتؤمن به إيمانًا نظريًا، لكنها تنكر تدخل الدين في شؤون الحياة، وتنادي بعزل الدين عن الحياة، وهذه العلمانية أشد خطرًا من حيث الكفر واللحاد داخل المجتمع الاسلامي، فعدم إنكارها لوجود الله، وعدم ظهور محاربتها للتدين، ولذلك تجد أكثير الأنظمة الحاكمة اليوم في بلاد أنظمة علمانية، والكثرة لا يعرفون حقيقة ذلك(٢).

إن العلمانية بصورتيها السابقتين كفر بواح لاشك فيها ولا ارتياب، وأن من آمن بأي صورة منها وقبلها فقد خرج من دين الإسلام، وذلك أن الإسلام دين شامل كامل، له في كل جانب من جوانب الإنسان الروحية، والسياسية، والاقتصادية، والأخلاقية، والاجتماعية، منهج واضح وكامل، ولا يقبل ولا يُجيز أن يشاركه فيه منهج آخر، قال الله تعالى مبينًا وجوب الدخول في كل مناهج الإسلام وتشريعاته: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (٣)، وقال تعالى مبينًا كفر من أخذ بعضًا من مناهج الإسلام، ورفض البعض الآخر﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤)، والأدلة الشرعية كثيرة جدًا في بيان كفر وضلال من رفض شيئًا محققًا معلوماً أنه دين الإسلام.

---

(١) العلمانية في جميع صورها وأشكالها هي في الحقيقة ملحدة، سواء منها ما ينكر وجود الله، وما لا ينكر؛ لأن أصل الإلحاد في لغة معناه: العدول عن القصد، والميل إلى الجور والانحراف، وإنما قلنا علمانية ملحدة، وغير ملحدة، جريًا على ما اشتهر عند الناس اليوم: أن الإلحاد يطلق على إنكار وجود الله فقط. ينظر: محمد شاكر، العلمانية، د. ن، ط١، مكة المكرمة، ص٧-٨.

(٢) كثير من الناس لا يظهر لهم محاربة العلمانية غير الملحدة للدين؛ لأن الدين انحصر عندهم في نطاق بعض العبادات، فإذا لم تمنع العلمانية مثلاً الصلاة في المساجد، أو لم تمنع الحج إلى بيت الله الحرام، ظنوا أن العلمانية لا تحارب الدين، أما من فهم الدين بالفهم الصحيح، فإنه يعلم علم اليقين محاربة العلمانية للدين، حيث قال مرجع الطائفة الإمام السيّد محسن الحكيم فتواه الخالدة بأنّ: (الشيوعية كفر وإلحاد وترويج للإلحاد)، والإلحاد: هو يعني الميل عن القصد، وألحد في الدين أي حاد عنه، ويخطئ بعض الناس فلا يكاد يذكر عنده الإلحاد إلا ويتبادر إلى ذهنه الكفر، والحق فيما يظهر لي أن بين الكفر والإلحاد خصوص وعموم ؛ فالإلحاد أعم من الكفر؛ إذ كل كفر إلحاد وليس كل إلحاد كفرًا، اي الإلحاد في الدين، بمعنى العدول عن الدين الحقّ إلى غيره. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٣/ ٣٨٨-٣٨٩؛ الرومي، فهد عبد الرحمن، اتجاهات التفسير في القرن الرابع، د. ط،(الناشر مؤسسه الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، د . ت)،١٠٥٧/٣؛ احمد الحسيني، الامام الحكيم، ص٨٥-٨٦؛ صبري محمد حسن، نحن والشيوعية، (مطبعة القضاء – النجف، ١٩٥٩م)، ص٩٤-٩٥؛ محمد شاكر، العلمانية، ص٩؛ محمد هادي الاميني، الشيوعية، ط/١،(منشورات مخزن الاميني- النجف، ١٩٦٠م)، ص٦٤.

(٣) سورة البقرة: الآية٢٠٨.

(٤) سورة البقرة: الآية٨٥.

المبحث الثاني :العوامل التي دعت الى ظهور العلمانية قبل عام ٢٠٠٣م

حين ندرك ان العلمانية جاءت تنشد منحاً تغييرياً لحالة البلدان الأوربية، يتعزز لدينا اقتناعاً بإن حالة تلك البلدان لم تكن على أحسن حال، او يكون افضل او يتجه نحو الاحسن متباعداً عن اوضاع سابقة كانت دافعاً أساسياً في ولادته ونشأته، فقد عُرفت أوربا سابقاً انها كانت تعيش نظاماً دينياً متعصباً من قبل الكنيسة ورجالاتها فكانوا يرسمون كل مخططات الحياة في أوربا وفق أهوائهم الكهنوتية، وكانوا يضيقون الخناق على كل فكر متحرر بل يكاد معدوماً، وهذا السبب جعل من أوربا تبحث عن مخرَج من ما هي فيه، وسنلخص الجوانب التي دعت لنشوء العلمانية.

اولاً: الجانب الديني :

للجانب الديني دور رئيسي لنشوء العلمانية، فبشكل عام يمكن ان نقول: أن نظام الحكم في أوربا كان دينياً، فالمذهب الكاثوليكي كان دين الدولة الرسمي، وقد تعدى إلى أن يكون دستوراً للحياة في اوربا، وعلى القائمين في كل مجالات الحياة أن يستمدوا تعاليمهم منهُ، فكان رجال الدين الكاثوليك مهمتهم رعاية مصالح الدولة وتنشيط الحركة الدينية وحمايتها وتقييد الناس بأحكام الكنيسة وقوانينها[١].

ومكافحة كل خروج على تعاليم الكنيسة، فكانت الغالبية العظمى من الروم من الاميين السذج وكان هؤلاء على درجه عالية من الضحالة الفكرية نتيجة الخضوع المستمر لتعاليم الكنيسة التي كانت تدعو مواطنيها الى التجرد من الدنيا والانقطاع للآخرة، فقد استغل رجال الكنيسة بعض الآيات من الانجيل تدعو الى التجرد من ملذات الدنيا وعدم اكتناز الاموال ومنها:**(الحق اقول لكم انه يعسر ان يدخل غني الى ملكوت السموات*اقول لكم ايضاً ان مرور جمل من ثقب ابره ايسر من ان يدخل غني الى ملكوت الله)**[٢]، **وايضاً:(لا تقتنوا اذهباً ولا فضه ولا نحاساً في مناطقكم*ولا مزودا للطريق ولاثوبين ولا احذية ولا عصا...)**[٣]، فقد استخدم رجال الكنيسة النص الديني في غير محله اجحافاً بالرعية لكي تبقى الاموال بيدهم، وقد سيطرة الكنيسة على معظم شؤون الغرب المسيحي فالكنيسة تنصب الملك وتعزله وهي من تدير أمور البلاد وكانت الكنيسة تبشر بأن الديانة المسيحية هي قادره على ان تأخذ بالإنسانية نحو الهدف المنشود وان رجال الكنيسة هم مقدسون ويجب طاعتهم والولاء لهم والايمان بما يقولون وتلبية جميع مطالبهم:**(إن الوضع القديم كان يعطيهم قداسه وميزة تجعلهم انصاف آلهة على الارض وهم وحدهم ينفردون بالمعرفة الالهية)**[٤]، فعلى الناس الخضوع لأفكار رجال الدين لأنها مستمده من السماء حسب تصورهم واخذ رجل الدين الكنسي يستغل الجانب الديني للوصول الى مبتغاه والحصول على المال والجاه بل وصل الامر بأن يأمروا الرعية بالنيابة عنهم في اعمال الزراعة بدون مقابل، وتعدت على فكر الرعية وتكميم الافواه ومحاربة كل فكر يتعارض مع تعاليم الكنيسة، فقد قتلوا العلماء والمفكرين والفلاسفة، فَنَفَرَ الناس من الكنيسة وثاروا عليها ودعوا لنظام حكم بعيداً عن الدين وهذا من اهم جوانب ظهور العلمانية، فبعد ان بينا ان الجانب الديني كيف

---

(١) ينظر: قدوح، انعام احمد، العلمانية في الإسلام، ص٢٤.

(٢) الانجيل المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط، ١٩٩١م، أنجيل متى، الاصحاح التاسع عشر، آية/ ٢٤-٢٥.

(٣) المصدر نفسه، الاصحاح العاشر، الآية /١٠-١١.

(٤) فاضل، علي رمضان، العلمانية، ص١٨.

ساعد على ظهور العلمانية فللجانب العلمي دور ايضاً لظهور العلمانية في بلاد الغرب، وسنتطرق للجانب العلمي بإيجاز[١].

ثانياً: الجانب العلمي :

إن الجانب العلمي له أهمية في ظهور العلمانية، فقد دعى العلماء والمفكرين إلى قيام ثورة وترويج فكر يخالف تعاليم الكنيسة، لان رجال الكنيسة كانوا يضيّقون الخناق على المفكرين والعلماء بل كانوا يُشرفون على نتاجاتهم، فاذا كان ضمن انتاج المفكر شيء يخالف تعاليم الكنيسة وما يملونه على الناس كان مصير ذلك النِتاج الحرق وفي بعض الاحيان يحُرق هو ومؤلفه، وكانت الابتكارات قليله او شبه معدومة لان الاهتمام كان يصب في مجال علم اللاهوت، وكان اصحاب الفكر يتحاشون التصادم مع الآراء الدينية كونها مقدسة ولا يجوز المساس بها، وكان التعليم بيد رجال الدين داخل الأديرة فقط، ويتناول اللاهوت والناسوت وأما باقي العلوم تكاد أن تكون مختفيه[٢]، والتأريخ حافل عن حروب رجال الكنيسة الكاثوليكية للعلم والعلماء في القرون الوسطى وكانت حروب تمتاز بالجرائم والإبادة الجماعية في حق الانسانية، بحيث كانت تمسك بيدها سلطة القرار وفرضت سيطرة شبه كاملة على أوربا لمدة ألف عام، وفي هذه الفترة أتسمت بعدم التسامح والتعصب الديني وأخذَ العلماء نصيبهم من هذا التعصب من قتل وسجن وتعذيب وحرق، وكانت هذه المأساة هي الغالبة على تعامل الكنيسة مع العلماء مما عطّل أدوات البحث والاجتهاد في الغرب عندما فرضَ رجال الكنيسة قيوداً على العلماء وحرمهم من مزاولة أي نشاط خارج حدود الكنيسة، وكانت نتيجة ذلك أتهام الكثير من العلماء بالهرطقة[٣]، وممارسة السحر، وبعد ان بينا كيفية محاربة الكنيسة للعلم والعلماء والمفكرين مما دعا لنبذ سلطان الكنيسة والدعوة إلى الكنيسة، سنتطرق لجانب الحكم في أوربا الذي مارستهُ الكنيسة.

ثالثاً: جانب الحكم (سلطة الكنيسة) :

أن رفض رجال الديانة المسيحية ديانة الاسلام وعدم قبولها كرسالة سماوية مكملة لديانتهم، واضافت تحريفات التي ملأت الانجيل، هذا الامر دفع رجال الكنيسة إلى تطبيق وتسويغ أحكام تقف بالضد من الديانة الإسلامية ورفضها، وكانت النتيجة خروج إلى حيز الوجود حكم عُرف بالثيوقراطي[٤]، وحكم الدولة رجال دين يدَعون انهم يحكمونها بأوامر ونواصب من السماء الأنهم بأتصال مباشر مع السماء، وساد التخلف في اوربا جراء ذاك الحكم عدة قرون وقد ولدَ هذا قلق ونفير لدى الفرد الاوربي فظهرت رغبه دفينه في ابعاد هذه السلطة عن حياتهم، فكانت الكنيسة تنصب الملوك وتعزلهم ولا يسمحوا للملوك بتولي مهامهم دون الرجوع للكنيسة، وعندما اراد:(**هنري الرابع ملك المانيا، اراد ان يستقل بتعيين الاساقفة، فأختلف مع البابا غريفورس السابع عام ١٠٧٥م حول هذه المسألة مما دفع البابا إلى أصدار الحرمان الديني عليه ، فقاطعه شعبه، وأضطر إلى الحضور إلى البابا خاشعا راكعا مطالبا منه العفو وإلغاء الحرمان**)[٥]، فكانت

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص١٨.

(٢) ينظر: قدوح، انعام احمد، العلمانية في الإسلام، ص٢٦.

(٣) الهرطقة: ويطلق عليها أيضاً الزندقة وهي تغيير في عقيدة او منظومة معتقدات مستقرة، وخاصةً الدين بأدخال معتقدات جديدة عليها أو أنكار أجزاء اساسية منها، بما يجعلها بعد التغيير غير متوافقة مع المعتقد المبدئي الذي نشأت فيه هذه الهرطقة .

(٤) ينظر: قدوح، انعام احمد، العلمانية في الإسلام، ص٢٨.

(٥) العيسمي، شبلي، العلمانية والدولة الدينية، ص٢٠.

الكنيسة تمارس دورها بإجحاف بكل أمور الحياة في الغرب وتهيمن على القرارات كلها التي تهم شؤون البلدان التي تخضع لسلطانها، فكانت الأنظمة في دول أوربا قائمة على رجال الدين المسيحي ولهم أمتيازات الأقطاعين كما كانت في بلداننا الشرقية، ولهم حرية في سن القوانين التي تلائم أهوائهم تحت غطاء ديني، فكانوا يستخدمون الناس بجمع الضرائب والعشور وبيع صكوك الغفران لمن يريد الخلاص من النار ودخول الجنة[١]، هذه الاوضاع وغيرها دعت المفكرين يطالبون بنظام بديل عن نظام سلطة الكنيسة وقد أنقسم الشعب الاوربي بين مؤيد للكنيسة وبين معارض، وقد اشتعلت حروب طاحنه لمدة ثلاثين عاماً وبعد معاهدة (ويستفاليا)، اصبح نظام الحكم بيد الشعب، وعزل نظام الحكم عن الطقوس الدينية لتحل العلمانية بدل سلطة الدين الكنسي، وإن الجانب الديني كان له دور رئيسي في نشوء العلمانية ولا نقلل من الجانب العلمي إذ كان له دور أيضاً، فبحثَ المفكرون الغربيون في الخروج من المأزق الذي يعيشونه فوجدوا إن خروجهم من قبضة الكنيسة هو الحل والعلمانية كفيلة بخروجهم من مأزقهم، ولهم الحق في ذلك كوننا تعرفنا على واقع الغرب في تلك الحقبة وبينا تغطرس الكنيسة على رقاب الغربين، نتيجة فساد العقيدة النصرانية وتحريف الانجيل، إلا إن يوجد اختلاف جذري بين بيئة نشوء العلمانية في الغرب وبين واقع البلدان الإسلامية، لإن في الغرب أيادي شوهت الدين النصراني وجعلت الفرد الغربي يعيش في طقوس بعيده عن روح الدين الحقيقي، وأرادة منه أن يتجرد من الإيمان بالغيبيات ويؤمن بالعصر المادي ومتطلباته، وبعد أن نجحت تلك التجربة التي قادها اليهود ضد الدين النصراني وجميع الديانات الاخرى:(**فيجب علينا أن نكنس جميع الاديان الاخرى على اختلاف صورها**)[٢]، فقد جردوا الفرد الغربي من ديانته وجعلوه ينفر منها، ولم يكتفوا بهذا بل صدّرت العلمانية لبلدان المسلمين أو أستوردها أتباعهم من المقيمين في بلاد المسلمين.

(١) ينظر: فاضل، علي رمضان، العلمانية، ص٢٦.

(٢) نويهض، عجاج ، بروتوكولات حكماء صهيون ، ط٩ (الناشر مكتبة دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق – سوريا ، ٢٠٠٥م) ج٢، البروتوكول الرابع عشر، ص٢٤٣.

المبحث الثالث :آثار العلمانية بعد عام ٢٠٠٣م

المطلب الاول: الآثار السلبية للعلمانية :

إن من أخطر سلبيات العلمانية على الاسرة العراقية، هو زرع مفهوم أو فكر، إن الدين لا يصلح لقيادة الحياة العصرية، أو حصر الدين بداخل الروح فقط، وأن متطلبات العصر والزمان لا تتلاءم مع النص الديني، يوجد في كل مشروع الفكر العلماني في بلاد الإسلام، وراءه هدف تشويه الإسلام وجرهُ الى ميدانهم المادي، وأن رواد المادية الذين روجوا للعقل والمادة هم كانوا تلامذة الماسونية اليهودية التي قامت على انقاض الدين المسيحي[١]، وقد غزَت افكار هؤلاء المفكرين بلدان العالم الإسلامي فتبنى البعض الفلسفة المادية التي كانت احد روافد الالحاد ونكران الخالق، أو ان العلمانية تعطي الضوء الاخضر للعيش دون الالتفات للدين او جعله امراً ثانوياً، بل يريدون تطبيق النظرية او التجربة على الانظمة وليس على الافراد، ليصبح النظام مادي دون رادع اخلاقي او ديني للتحول الى ميدان لا يعطي وزناً للدين في ادارة شؤون الحياة، يريدون إخفاء شرع النبي محمد(صل الله عليه وآله وسلم)، وحصره في داخل اروقة المسجد فقط، ويريدوا علمنة الاقتصاد وجعل ضوابط الاقتصاد من منظمة التجارة العالمية، وليس من شرع الله، ويريدوا علمنة الصناعة لتصبح تجارة تعود بالربح إليهم حتى لو كانت على حساب قيمة وسلامة البشر، كما يؤججوا الحروب لبيع منتجاتهم العسكرية، ومصالح مصانع التسليح العسكري، عكس قانون السماء، الذي يُحرم بعض الصناعات العسكرية، مثل السلاح النووي والسلاح الجرثومي، كونه يُدمر الانسان والطبيعة، العلمانية عدو للفكر الإسلامي، لكنه عدو متخفي بغطاء العقلانية والتطور ولا يمكن الجمع بينهما.

ومن سلبيات العلمانية أيضاً ما يلي:

١. انهاء الحواجز المقفلة بين عالمي الروح والمادة.
٢. لا تنظر الى القيم الروحية نظرة ايجابية.
٣. تحكم على الانسان بالتشتت.
٤. تتناقض مع نفسها عندما تريد فصل الدين عن السياسة لإن هذه أداة غير اخلاقية.
٥. العلمانية تعتقد بأن الدين بعيد عن السياسة[٢].

إن هدف المفكر العلماني، هو عزل الدين الإسلامي عن حياة المسلمين لكي يخفوا الإسلام من قيادة الحياة، وإذا فُرِغَ المسلم من إيمانه بالإسلام، أصبح أرض هشة لزرع أفكار تأتي بها عجلة الحياة والغزو الفكري، والتطور المزعوم من مفكري العلمانية، وبالتالي يبقى المسلم مفرّغ الجوهر يركض خلف أصحاب الفكر المادي، بداعي أن الفكر الانساني متجدد والدين ثابت، ولا يتلاءم الدين الإسلامي مع متطلبات العصر والزمان، فقد نشر الاستعمار قوانين علمانية في بعض الدول الإسلامية المستعمرة.

ففي كل موقع من البلدان الإسلامية قامت فيه للإستعمار سلطة ودولة، أخذَ هذا الإستعمار يحل النزعة العلمانية في تدبير أمور الدولة وحكم المجتمع، محل الاحكام والتدابير الإسلامية ليقتلع

(١) ينظر: قدوح، انعام احمد، العلمانية في الإسلام، ص٥٢.

(٢) ينظر: العيسمي، شبلي، العلمانية والدولة الدينية، ص٦١.

شريعة الإسلام وفقه معاملاته، وأدخل الاستعمار الغربي قانون العلمانية[١]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٢]، فهذه القسمة الشبيهة بالمفهوم العلماني لشعار الدين لله والوطن للجميع، هي سوء حكم الجاهلين بدين الله وقد سفهها القرآن، وقال اتباع الفكر العلماني:(**لقد التزمنا امام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كله امام اوربا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاما حريصا قاطعا اما العالم المتحضر باننا سنسير سيرة الاوربيين في الحكم والإدارة والتشريع**)[٣]، وهذا اكبر أثر على وعي المثقف المسلم داخل المجتمع العراقي، وكيف تناغم مع العلمانية ويروج لها، أنها تحل محل الشريعة الإسلامية، وإذا تهاونا بمثل هذه الأفكار لدخلت كل يوم أفكاراً جديدة لتزاحم الفكر الإسلامي، وإن العلمانية بهذا المعنى تعتبر محاولة من محاولات سوء التفاهم الكثير التي لا بد أن يقع المسلم في غياهبها بإعتبار أن يختار بنفسه التنحي عن طريق الله ومنهجه في الحياة، وبالأخير يشعر إنه بعيد عن نهج رب العالمين، ومضطر إلى إبتكار من تلقاء نفسه، وهكذا تظهر علينا كل يوم مناهج وضعية ما أنزل الله بها من سلطان[٤].

المطلب الثاني: آثار الغزو الفكري على الاسرة داخل المجتمع العراقي :

يترك الغزو الثقافي الاجنبي عن طريق قنوانه الرئيسة آثار سلبية في قيم الاسرة الاسلامي داخل المجتمع العراقي، وذلك يحمل الفرد على التخلي عن القيم الايجابية كالصدق والامانة والدين والشجاعة والغيرة والصراحة والعدالة...، ويقودهم بأساليب خبيثة وضارةً لهم، وهذه القيم السلبية التي تصدع شخصياتهم وتقتل طموحهم وتسئ الى تكفيرهم في المجتمع وتعرضهم الى جملة مشكلات اجتماعية.

ولعل من اهم ما يؤديه الغزو الفكري الثقافي الاجنبي في تخريب سلوك الفرد داخل المجتمع وتجاهل القيم الاسلامية والدين وعدم الالتزام بفروضه وأوامره والخلاعة والمجون والتخنث والتبرج وعدم احترام الكبار والتطاول عليهم والنيل من مكانتهم وعزتهم وكرامتهم، ومع الترافع على الاسلام وتقليد الغرب واقتضاء طريقة الدعارة والفساد والخمر والميسر والاعتداء على الخرين وغمط حقوقهم والاساءة إليهم وتشويه سمعتهم، وهذا ينقسم على النحو التالي[٥].

أولا : تأثير الغزو على الاسرة والفرد في الوقت المعاصر :

لا شك أن الغزو الفكري او الثقافي يؤثر سلباً في قيم الفرد داخل المجتمع العراقي، وهذا تأثير يكون في سلوكهم وعلاقاتهم مع بعض، ويكون تأثيره على المعتقدات والقيم وهذه ما يتركه الغزو

(١) ينظر: عماره، محمد، العلمانية بين الغرب والإسلام، ط،(الناشر دار الدعوة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٦م)، ص١٠.

(٢) سورة الانعام: الآية/١٣٦.

(٣) حسين، طه، من الشاطئ الاخر، ترجمة وجمع عبد الرشيد الصادق المحمودي،(بيروت – لبنان، ١٩٩٠م)، ص١٩١.

(٤) ينظر:خليل،عماد الدين، (الدكتور) تهافت العلمانية، ط١،(الناشر دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق– سوريا، ٢٠٠٨م)، ص٦٧.

(٥) ينظر: الحسن، إحسان محمد، تأثير الغزو الثقافي على سلوك الشباب العربي، ط١،(الناشر أكاديمية نايف العربية للعلوم، ١٩٩٨ م)، ص١٨٠.

على مجتمعنا في الوقت المعاصر ويجعل الفرد في معتقدات سلبيه لا تليق في الاسرة العراقية[١]، كما تظهر الظواهر الغزو في هذه العصر كظاهرة الألحاد وغيرها، وإن هذا الافكار قد أثرت على مستوى وقيم الاسرة في الوقت المعاصر[٢].

وإن هذه تحدياتٌ التي تواجه الاسرة العراقية، والتي لها علاقة بالبيئة الداخلية للمجتمع، وهي تحديات متعددة وقد تختلف باختلاف هذه البيئة، وأهم هذه التحديات:

أولاً: التحديات التي تتعلق بالفرد، ومدى نموها واستعداداتها الفطرية لمراحل الفرد، وهي أحدَ الأسباب الرئيسية التي تدفع الفرد إلى التعلم وارتقاء سلم التعليم الجامعي بنجاحٍ وتفوق، وبالعكس قد تدفع به الإعاقة إلى محاولة الانعزال والهروب من واقعه.

ثانياً: ضعف التنشئة الاجتماعية والعلميَّة في الأسرة والمدرسة في سنوات التعليم الأولى والمتوسطة، إذ تبرز أهمية الأسرة في العناية بالطفل في المراحل المبكرة من تكوّن معالم شخصيته، حيث تزوده بثقافةٍ متكاملةٍ بالتعاون مع المدرسة طوال سنوات طفولته وشبابه مما يسهمُ في إكسابه المناعة الثقافية المستقبلية، كما أنَّ دور التعليم الإلزامي والثانوي يبدو جلياً في إعدادِ الطالب وبناءِ شخصيته للسنوات اللاحقة، وهذه المرحلة تعزز لدى الطالب حبَّ المعرفة الذاتية، لذلك يواجه الشاب تحديات التخلف الأسري من جهلٍ، وأميَّة، وفقر، ومرض وغيرها كالتفكيك الأسري.

ثالثاً: دور الجامعات في التأكيد بمناهجها وطرائق تدريسها وأهدافها على إتمام معالم الشخصية الواعية المتمثلة بأهداف أمتَّها، والمنفتحةِ على الواقع الإنساني بعيداً عن التقَليد الأَعمى بكافة أنماطه والمُلِمَّة بأساليب البحث العلمي ومناهجه.

رابعاً: التحدي الذي يواجها الشاب أثناء رغبته الدراسية في اختيار كلية أو اختصاص علمي لا يتوافق و رغبة الأهل، على الرغم من أنَّ اختيار الأهل لن يجعلَهُ بارعاً في هذا المجال لأنه ربما لا يتلاءم و ميوله ورغباته، الأمر الذي سينعكسُ مستقبلاً على مدى إبداعه في هذا المجال، فعلينا أن نؤكدَ حق الشاب في اختيار مهنةٍ واختصاصٍ مناسبٍ، وخير مثلاً على إنَّ أينشتاين الذي كان كسولاً في دروس الرياضيات برع في الحساب، ولو أننَّا قيمناه تبعاً لدراسته لما كنَّا تمتعنا بمعرفة شيء عن النسبية[٣].

خامساً: إنَّ معظم المناهج الدراسية لا تولي اهتمامات الشباب قدراً كافياً من العناية ، ولا تجيب عن الأسئلة التي تدور في رؤوسهم ، ولا تمكنّهمْ من فهم الواقع بل تقدّمُ لهم المعلومات والأفكار بأسلوب لا يصلح معه إلا الحفظ عن ظهر قلب، في حين أننّا في عصرٍ نحتاج فيه ملكات الإبداع والابتكار والقدرة على إيجاد الحلول للمشكلات التي تعترض طريقنا بشكل منطقي وواعٍ وهي ملكات يعجز نظام التعليم الجامعي بأساليبه التقليدية عن منحها للشباب داخل المجتمع العراقي، وهذا يعني أنّ بعض الجامعات العراقية بمناهجها ونظمها لا تؤدي هذا الدور المهم المنوط بها.

سادسا: معظم افراد الاسرة لا يجدونَ فرصٍ عملٍ تتلاءم واختصاصهم الأمر الذي انعكس على المقررات التي يدرسونها في الكليات، إضافةً لازدياد نسب البطالة بين صفوف الشباب حيث أكد

(١) ينظر: الحسن، إحسان محمد، تأثير الغزو الثقافي على سلوك الشباب العربي، ص١٨٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص١٨١-١٨٢ .

(٣) ينظر: الريحاني، راميا، تاثير الأعلام على الشباب العربى إحباطات الواقع وأمال المستقبل، ص١٠-١١.

الدكتور علي بو عناقة أنَّ الإحصاءات التي تصف وضع الشباب تشيرُ إلى أنّه:(**ضمن ١٧مليوناً من المتعطلين الحاليين عن العمل ونسبتهم٤٠%، تقل أعمارهم عن ٢٥ سنة)**[١].

سابعا: عدم وجود تنسيق ثقافي بين الأجهزة التربوية وغياب التنظيمات المسؤولة عن الشباب في عدد من البلاد العربية، الأمر الذي يحرم الشباب من التعبير عن آرائه ومعاناته الحقيقية.

ثامنا: وتعد الحالة المادية لمعظم دخل الفرد في الاسرة، هي من أخطر التحديات التي يواجها المجتمع، لأنها قد تعيق الفرد عن إكمال دراستهم الجامعية، أو دراسة الاختصاص الذي يرغبون في إحدى الجامعات الخاصة[٢].

ثانيا: مشكلات العالم المعاصر :

إن عالمنا اليوم يواجه مشكلات كبيرة ومعقدة، ولابد أن تنتهى به الى التحول والتغير، بل لا بد أن تسقط هذه الحضارة الغربية تحت هذه المشكلات، ويحصل التحول، ونحن نأمل ان يكون هذا العصر عصر ظهور الامام الحجة (عج)، فقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام، أن هذا عصر الظهور لأن المشكلات التي يواجها الانسان، وهي مسألة التضاد بين طبيعة الشعارات والمفاهيم التي يرفعها الانسان، ويتحرك فيها في هذا العصر من ناحية ثانية، والواقع الذي يعيشه من خلال هذه المشكلات، ويفرض وجود هذا التحول المستقبلي في وضع العالم، ومن يكمن ان نعرف أهمية هذه النهضة الاسلامية، داخل المجتمع العراقي.

ثالثاً : مشكلة الأسرة :

في البناء والتصميم الإلهي للمجتمع البشري اخذت الأسرة اولية لهذا البناء الانساني، وعندما نرجع للقران الكريم نجد معالم ذلك منذ خلقة آدم وحواء الى يومنا هذه الأسرة، بحيث أن الأسرة إذا هددت في وجودها فسوف تنزل النقمة والغضب الإلهي على الجميع.

وقضية قوم لوط ترتبط بهذا الموضوع، فقوم لوط ارتكبوا ذنباً، والذنوب الكبائر كما نعلم كثيرة وليست منحصرة بهذه الكبيرة، بحيث ينزل العذاب الالهي على القوم، لارتكابهم لهذه الكبيرة، وإنما القضية مرتبطة بأن وحدة المجتمع البشري أصبحت مهددة، بسبب هذا العمل الذي يقوم به هؤلاء القوم، فنزل الغضب الإلهي، والهلاك المطلق على هؤلاء البشر[٣].

والان تعتبر الأسرة من المفردات التي تواجه مشكلة حقيقية في المجتمع الإنساني وخصوصاً في الحضارة الغربية، وأحد الشواهد العجيبة على هذا الموضوع هو أنه عندما عقد في العصر الماضي والمؤتمر العالمي للأسرة في بكين، وهو أعظم مؤتمر عقد في العصر الحاضر وبحيث فيه موضوع الاسرة فهؤلاء الغربيون الحمقى يرون، أن للأسرة ثماني عشرة شكلاً، ومن جملتها علاقة إنسان بحيوان أو علاقة حيوان بحيوان، فأدخلوا الحيوان ضمن الأسرة البشرية، باعتبار أن الحيوانات تعيش مع الناس وكأنما جزء من حياتهم، بحيث جعلوا هذه الأسرة في صورة ظلامية ضبابية غائمة غير واضحة، كأن لا وجود لها في المجتمع الإنساني، فعلاقة رجل برجل اعتبروها أسرة، وعلاقة امرأة بامرأة اعتبروها أسرة، وهكذا علاقة رجل بحيوان، أو امرأة

---

(١) بو عناقة، علي، الشباب ومشكلاته الاجتماعية في المدن الحضرية، ط١،(الناشر مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه العدد(٦١)، بيروت، ٢٠٠٧م)، ص٤٥.

(٢) ينظر: المصدر نفسه.

(٣) الحكيم، محمد باقر، موسوعة الحوزة العلمية المشروع الفكري والحضاري، ط١،(الناشر مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، النجف الأشرف- العراق ،٢٠٠٥ م)، ١/٢٦٠.

بحيوان، أو حيوان بحيوان، والان توجد قوانين وتشريعات بهذا الخصوص، وكل هذا التحولات لا أخلاقية في المجتمعات الغربية، ولا تطاق المنهج الاسلامي الصحيح[١].

رابعاً: هداية الفرد في المجتمع الاسلامي :

إنّ هداية الفرد أحد المفاهيم الأساسية في الاسلام، والمقصود من هداية الفرد هنا توجيهه في مختلف الجوانب المؤثرّة على نموّ شخصيّة، وكما نعلم فإنّ شخصيّة الإنسان ذات أبعاد أساسية، يمكن عرضها على النحو التالي:

١. البعد العقلي.
٢. البعد الاجتماعي.
٣. البعد العاطفي.
٤ . البعد البدني.

فإذا قمنا بتحليلٍ لسلوك الفرد، فسوف نكون قادرين على تمييز الجوانب الإيمانية، أو الاعتقادية، والعقلية، والاجتماعية، والعاطفية بعضها عن بعض، وسيتجلّى لنا أنّ الجانب البدني أكثر الجوانب محسوسيّة في شخصيّة الإنسان، وهو يتّصل بالجوانب الأُخرى عن طريق الدماغ والأعصاب.

إنّ حبّ الاستطلاع في مجال حقيقة العالم، وتدوين نوع من النظرة الكونية، والطموح نحو الكمال، والهدفيّة، وإعداد وجهة نظر اعتقاديه، وتكوين نظام أخلاقي، كلّها إفرازات تترشّح عن البعد الايماني أو العقائدي للإنسان، وتتغاضى عن آثاره في حياته ونموّه.

فإنّ الحافز لدراسة الكون، وإعداد نظرة كونيّة، وانتخاب أهداف أساسيّة، والسعي لكشف معنى الحياة، والجدّ في تدوين فلسفة أو وجهة نظر اعتقادية له، ومحاولة التنازل عن المسائل الشخصية، وبناء علاقات جوهرية مع الآخرين، وكذلك ترسيخ نظام أخلاقي في شخصيّته، كل هذه الأشياء أُمور واقعيّة حقيقيّة لا سبيل إلى إنكارها، وإنّ اهمال هذا البعد نابع من الأرضيّة الذهنيّة لعالم النفس، وقبول فرضيات سابقة ليس لها نصيب من الواقع في أغلب المواطن[٢].

ثانياً: إنّ أتباع مدرسة السلوك، وكذلك علماء النفس الذين يريدون أن يفسّروا سلوك الإنسان وجميع ممارساته من منطلق بدني أو بيولوجي...، ومضافاً إلى ذلك فإنّ أنصار هذه المدرسة يؤمنون بوجود شيء ذي طابع حسّي في وجود الإنسان، يخضع للمشاهدة والقياس، إنّ قبول هذا المبدأ أوقع علماء السلوك في ورطة عند تفسيرهم لأبسط عمل نفسي، وهو التعلّم، وكذلك التفكّر والإبداع في الإنسان، لا محالة، أنّ هذا الفريق من علماء النفس قاصر عن تفسير السلوك النابع من البعد الإيماني أو الإعتقادي.

يتصوّر بعض علماء النفس أنّ الخوض في البعد الإيماني من وظيفة علماء الدين أو المتكلّمين، بيد أنّهم غافلون عن أنّ مهمّة عالم النفس هي تفسير أكبر قدر ممكن من سلوك الإنسان، وفي ضوء التفسير العلمي ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار كل ما يلحظ على سلوك الإنسان، واذا ما

(١) ينظر: المصدر نفسه ، ١/٢٦٠.

(٢) ينظر: شريعتي، علي، التربية والتعليم في الإسلام، ص٤٧-٤٨.

انبرت نظرية إلى تفسير جانب أو عدد من الجوانب في سلوك الإنسان، وأهملت الجوانب الأُخرى، فإنّ هذا يدل على ضعفها، كما أنّه لا ينفي حقيقة وجود تلك الجوانب(١).

إنّ الإدراك والمعرفة، وعقد مقارنة بين الأشياء، وتمييز الأشياء بعضها عن بعض، والتقويم والخوض في مختلف الأُمور، والتنبؤ والتخيّل، كلّها تدخل ضمن البعد العقلي من الشخصيّة.

أمّا التكلّم، والاختلاط مع الآخرين، والتكيّف الجماعي، والتعاون، والمعارضة، والتوافق، والتشابه، وممارسة الأُمور المهنيّة، فجميعها تعود إلى الجانب الاجتماعي من شخصيّة الفرد.

وأمّا السرور والحزن، والخوف والغضب، والحب والكره، والحقد والانفتاح على الآخرين، وأُمور نحوها فتدخل في دائرة الجانب العاطفي من شخصيّة الإنسان(٢).

إنّ الإحساس، بصورة عامّة، وسائر النشاطات البدنية تشكّل جزءاً آخر من شخصيّة الإنسان.

فما ينبغي أن نأخذه بنظر الاعتبار في هذا المجال هو وجود صلة قريبة بين هذه الجوانب بعضها مع بعض، والنشاطات الحسيّة الملموسة لا تنفصل عن النشاطات العقلية، فتنمو قوّة الإدراك لدى الإنسان، بحجم كبير، في المجال الاجتماعي، اما كسب المهارات الاجتماعية فهي ثمرة من ثمار التعلّم، وكيفيّة ظهور العواطف والسيطرة عليها تتّصل بالجانب البدني من جهة، وتأخذ شكلها في المجال الاجتماعي من جهة أُخرى، علماً أنّ للنموّ العاطفي جانباً عقليّاً، وما يجب أن نأخذه في الحساب هو كيفيّة هداية وتوجيه كلّ واحد من هذه الجوانب(٣).

خامساً : التحدي الثقافي والاجتماعي :

وهي تحدياتٌ تنشأ من خارج المجتمع ولعلَّ أبرز أسبابها الغزو الفكري الثقافي الغربي، حيث يقولون اليهود:**(نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه، ومحركين الفتن فيه وجلادية)**(٤)، ويقولون أيضاً:**(لقد قمنا بخداع وتسفيه وافساد شباب، ... وذلك من خلال تربيتهم على المبادئ والنظريات كلنا نعلم خطأ ومع ذلك شجعناهم عليها)**(٥)، وتيار العولمة الجارفِ، بالإضافة إلى السّرعة المتزايدة في التّقدم التكنولوجي الذي يأتي إلينا من الخارج، في الأوقات التي ليس لدينا فيها ما يكفي من الثقافة والوعي والقدرة اللازمة للتعامل مع هذه التكنولوجيا الباهرة، مما يجعلنا عرضة للتبعية الدائمة للغرب، وسنبقى على هذا الحال حتى نستطيع َاستردادَ زمام الأمور لمواكبة ركبِ التطور، وأهم هذه التحديات هو التحدي الاجتماعي، وهو من أخطر التحديات الثقافية على شبابنا العربي في عصرٍ طغت فيه الثقافة الغربية خاصة الأمريكية، حتى أنَّ بعض الكتب ربط بين العولمة والأمركة برِباط وثيق يقول برهان غليون:**(العولمة تعني إذن بالضرورة الأمركة، إذا قلنا إن للأمركة أرجحية المساهمة الأمريكية في الإنتاج الثقافي المادي والمعنوي ...)**، ويترافق ذلك بأنماطٍ من َالسلوك الاجتماعي الذي تفرضه بطرق مختلفة ، أبرزها مجمل ما تبثّهُ من برامجَ وأفلام لا يكون مضمون مادتها الإعلامية إلا كما وصفته الدكتورة مي العبد الله:**(إنها أفلام تهدف إلَى الغلو واللامنطقية، وإلغاء العقل في فهم الشباب والعلاقات**

---

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص٤٩-٥٠.

(٢) ينظر: شريعتي، علي، التربية والتعليم في الإسلام، ص٥٠.

(٣) ينظر: المصدر السابق، ص٥١.

(٤) نويهض، عجاج، بروتوكولات حكماء صهيون،١٥٣/٢.

(٥) المصدر نفسه،٨٤/١.

والأحداث، ويشمل ذلك مجموعة كبيرة من الأفلام التي تجسد الخرافة، وتعمل بذلك على تمجيد المغامرة الفردية والشعور بالعظمة وقتل الإحساس بالجماعة)[١].

ولا ننسى أبداً أنَّها تُرّوجُ للعنف والوحشية بالدرجة الأولى، وما جرى في لبنان ٢٠٠٦، وفي فلسطين عام (٢٠٠٨-٢٠٠٩)، وما جرى في العراق بعد الاحتلال الأمريكي له، ٢٠٠٣م، ولا يزال أبرز الشواهد التي لا تخفى على أحد في مشارق الأرض، وربما لا نجانب الصواب إذا قُلنا إنها تسعى لنشر ثقافة الفساد في المجتمعات ، بمعظم الأفلام والألعاب، وغيرها، والبرامج التي تنتشر في البلدان العربية ولعلّ هذا يحول العنف الذي تحمله هذه الأفلام أو الألعاب إلى أرض الواقع وحياة الناس، وقد ألمح إلى ذلك الدكتور جابر عصفور بقوله:**(يُنقَل العنف من مفردات اللغة إلى معطيات الواقع، فيستبدل بالكلمة الرصاصة)**[٢].

سادساً: دور الفرد والأسرة في الوقت المعاصر ومواجهة التطرف :

أولاً: دور الفرد نفسه طفلاً ومراهقا وشاباً وشيخا في الوقاية من التطرف وعلاجه، لقد لوحظ أن التطرف لا يتخذ شكلاً واحدا فقد يكون تطرفاً دينياً أو مذهبياً شيوعاً أو علمانياً غير ذلك، كان يتخذ شكلاً لفظيا عقائديا فقط قد يتخذ شكلاً فعليا عمليا كالاشتراك في أعمال التحريض أو التخريب أو معارضة ويما يتعلق بالدور الذي يتعين على الفرد القيام به حيال نفسه وحيال أسرته ووطنه ومجتمعه عليه أن يميز بين الأفكار ويدرك خطورة وأثارها على نفسه وحياته ومجتمعه.

ثانياً: دور الأسرة في مقاومة التطرف :

يقع على الأسرة تقع المسؤولية الكبرى في إعداد الافراد، ذلك خيرات الطفولة تترك بصماتها في الشخصية فيما بعد، حيث تكون الشخصية غضة لينة يمكن تشكيلها وصقلها بسهولة وعليها أن تهتم بغرس القيم الدينية والخلقية والوطنية السليمة مع الاعتدال في نظم تأديب أبنائها فلا إفراط القسوة والشدة والصبر والحرمان ولا تفريط في التزام وإنما الاعتدال وتربية الشاب على الديمقراطية والشورى والمناقشة والحوار.

ثالثا : دور الإعلام في مواجهة الغزو الثقافي :

يتمثل دور الإعلام في البعد عن البرامج والأفلام المثيرة للغرائز والتي تشجع على العنف والجريمة والتي تظهر المنحرفين بالصورة البطولية مما يدفع الشاب إلى تقليدهم واتخاذهم مثلاً أعلى وإفساح المجال الإعلامي لعرض نماذج النبوغ والإبداع حتى تكون القدوة والدافع للأطفال والشباب[٣].

رابعا: دور المؤسسات الدينية في مواجهة العلمانية :

يجب أن تقوم المؤسسات الدينية بدور التوعية والتنوير وتوضيح كافة المفاهيم الغامضة في الشرائع السماوية حتى يكون النشء على بصيرة وعلم ودراية بأمور دينهم ودنياهم ويتطلب ذلك علماء دين أن ويجيبون على تساؤلاتهم التي تطرح من الافكار العلمانية، وعلى المؤسسات الدينية بيان حقيقة الامور التي يجهلها المجتمع والاسرة خصوصاً، وذلك بسبب جهل الأمة لأمور دينها، فاستغفلتها العلمانية إلى حد كبير في نشر افكارها داخل الاسرة العراقية، فترى أكثر العالم الإسلامي لا يحكم بما أنزل الله واستبدلوا بالقرآن بقوانين الشرقية

(١) العبد الله، مي، قضايا الاتصال في عالم متغير، ط١،(دار النهضة العربية، لبنان، ٢٠٠٦ م)، ص٢٥٨.

(٢) صالح ، أحمد محمد، الأصولية والعنف الاجتماعي،(الناشر مجلة الهلال، القاهرة – مصر، العدد٧، يوليو ٢٠٠٩م)، ص٥٠-٥٥ .

(٣) ينظر: نظمي، رانيا، الفراغ الفكري وتأثيراته على الاستخدام السيئ لتقنية الاتصالات الحديثة، ص٣١-٣٢.

فأفسدوا البلاد والمجتمع، من خلال برامج تواصل الاجتماعي وعدم حظر المواقع الاخلاقية، التي لا تليق في الاسرة، ولا في المرأة المسلمة داخل المجتمع العراقي، وبذلك وصل الحد أن الأجيال تطبعت على طباع علمانية يظنها الجهلة[١].

(١) ينظر: شريعتي، علي، التربية والتعليم في الإسلام، ص٥٢-٥٥.

الخاتمة والتوصيات

وفي الختام سنوجز أهم ما توصلنا إليه في البحث بالنقاط التالية:

١. بعد أن أستشعر العالم الغربي الكائن بوقت مبكر الخطر الحقيقي الذي يشكله النظام الاسلامي على وجوده في عالم اليوم، عمل جاهداً وبكل ما يستطيع من قوة وبكل ما يملك من أساليب ودهاء ومكر في سبيل تقويض دور الإسلام في الساحة العالمية وافراغه من محتواه وتعطيل مبادئه وقيمه وتعاليمه ليجْعل منه كياناً هشاً وسهل التأثير فيه.

٢. قامت فلسفة الفكر العلماني على أساس المذهب المادي المعارض لعقائد الدين الاسلامي، إذ أن المذهب المادي يرى أن الوجود قديم وقائم على أساس المادة وهي مصدر كل الكون، وبهذا التعارض قد أتضح لفكر العلماني، ودخلت العلمانية إلى المجتمعات الإسلامية أسوأ الأثر على المسلمين في دينهم ودنياهم، وبعض الآثار السيئة التي جنتها المجتمعات الإسلامية من تطبيق العلمانية:

أولاً: رفض الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، ومحاولة إقصاء الدين الاسلامي عن كافة مجالات الحياة، والاستعاضة عن ذلك بالقوانين الوضعية، واعتبروا الدين الاسلامي متخلفاً.

ثانياً: تحريف النصوص الاسلامية، والتاريخ الإسلامي.

ثالثاً: جعل التعليم خادماً لنشر افكارهم، وبث الأفكار العلمانية في مختلف مراحل التعليم.

رابعاً: إن العلمانية تدعوا الى القومية أو الوطنية، وهي دعوة تعمل على تجميع الناس تحت جامع وهمي من الجنس أو اللغة أو المكان أو المصالح على أن لا يكون الدين عاملاً من عوامل التجميع، بل الدين من منظار هذا الدعوة يعد عاملاً من أكبر عوامل التفرق.

خامساً: تهدف العلمانية الى نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية، وتهديم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية، وتشجيع على قوانين التي تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها وتعتبر ممارسة الزنا والشذوذ من باب الحرية الشخصية، ونشر وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وتلفاز التي تحارب الدين الاسلامي.

٣. وفي الوقت الذي نجد فيه العلمانيين العراقيين يجاهرون في إعلان العداء للدين وللتقاليد فإن العلمانيين الغربيين لم يكونوا على منهج واحد فبعضهم كانوا ينكرون وجود الله أصلاً، وبعضهم الآخر كانوا يؤمنون بوجود الله، لكنهم يعتقدون بعدم وجود علاقة بين الله وبين حياة الإنسان، ومن هنا كانوا يطالبون بفصل الدين عن السياسة وإقامة الحياة على أساس مادي، ولكنهم دعوا أيضا إلى اعتماد مبدأ النفعية البراغماتية (Pragmatism) على كل شيء في الحياة، وهذا يعني أنهم لا يعترضون على نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية وتهديم كيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية، وهي الأمور التي يتملص منها العلماني العراقي حينما تضعه على المحك، ولكنه لا يعترض على من يأتي بها.

٤. **أوصي** الباحثين والمؤسسات العلمية بالإهتمام بالفكر التربوي الإسلامي وترسيخ تعاليم الدين الحنيف في المجتمع العراقي والتأكيد على القيم الأخلاقية السامية لديننا الحنيف والإسهام في محاولة تطبيقها عملياً وفرز الأفكار المسمومة التي تقوم على أساس الإنحراف وهدم القيم وتخريب المجتمع، وتقديم معالجات جادة بالتعاون مع المؤسسات العلمية والتربوية لتقليل الأثر السلبي للأفكار العلمانية والغربية.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن منظور، لسان العرب.
- الانجيل المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط، ١٩٩١م.
- أنعام احمد قدوح، العلمانية في الاسلام، الطبعة الاولى،(مطبعة بضعة الرسول، لبنان، ٢٠١٢م).
- بو عناقة، علي، الشباب ومشكلاته الاجتماعية في المدن الحضرية، ط١،(الناشر مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات الدكتوراه العدد(٦١)، بيروت، ٢٠٠٧م).
- الحسن، إحسان محمد ، تأثير الغزو الثقافي على سلوك الشباب العربي، ط١،(الناشر أكاديمية نايف العربية للعلوم، ١٩٩٨ م).
- حسين، طه، من الشاطئ الاخر، ترجمة وجمع عبد الرشيد الصادق المحمودي، (بيروت – لبنان، ١٩٩٠م).
- الحكيم، محمد باقر، موسوعة الحوزة العلمية المشروع الفكري والحضاري، ط١،(الناشر مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، النجف الأشرف- العراق ،٢٠٠٥ م).
- خليل، عماد الدين، (الدكتور) تهافت العلمانية، ط٠,١(الناشر دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سوريا، ٢٠٠٨م).
- دوريندا اوترا ، ترجمة ماجد موريس ابراهيم، التنوير، ط١،(مطبعة دار الفارابي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٨م).
- الرومي، فهد عبد الرحمن، اتجاهات التفسير في القرن الرابع، د. ط،(الناشر مؤسسه الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، د . ت).
- الريحاني، راميا، تاثير الأعلام على الشباب العربى إحباطات الواقع وأمال المستقبل.
- الزيات، احمد حسن واخرون، المعجم الوسيط.
- زيعور، علي، انحرافات السلوك والفكر في الذات العربية، مطبعة الدار البيضاء، ط١، بيروت ، لبنان، ١٩٩٢م.
- صالح ، أحمد محمد، الأصولية والعنف الاجتماعي،(الناشر مجلة الهلال، القاهرة - مصر، العدد٧، يوليو ٢٠٠٩م).
- صبري محمد حسن، نحن والشيوعية، (مطبعة القضاء – النجف، ١٩٥٩م).
- العلواني، طه جابر، ألازمه الفكرية المعاصرة بين القدرات والعقبات، الدار العلمية للكتاب الإسلامي، ط٤، الرياض، السعودية، ١٩٩٤م.
- عمارة ، محمد ، الغزو الفكري وهم أم حقيقة ، مطبعة روز اليوسف ، مصر،٢٠٠٣م .
- عماره، محمد، العلمانية بين الغرب والإسلام، ط،(الناشر دار الدعوة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٩٦م).
- العيسمى، شبلي، العلمانية والدول الدينية، ط١(الناشر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – العراق، ١٩٨٦م).
- فاضل، علي رمضان، العلمانية.
- الفراهيدي، كتاب العين.

- قدوح، انعام احمد، العلمانية في الإسلام.
- لعبد الله، مي،قضايا الاتصال في عالم متغير، ط١،(دار النهضة العربية، لبنان، ٢٠٠٦ م).
- محمد هادي الاميني، الشيوعية، ط١،(منشورات مخزن الاميني- النجف، ١٩٦٠م).
- نظمي، رانيا، الفراغ الفكري وتأثيراته على الاستخدام السيئ لتقنية الاتصالات الحديثة.
- نويهض، عجاج ، بروتوكولات حكماء صهيون، ط٩ (الناشر مكتبة دار طلاس للترجمة والنشر، دمشق – سوريا، ٢٠٠٥م).
- منير البعلبكي، المورد، ط ٨ (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٥م).

The new Encyclopedia Britannica , Helen tterning way publisher, USA , 1974, vol, lx , p.19,

الأبعاد السياسية والاجتماعية للخطاب الديني ما بعد عام٢٠٠٣م

(خطب المرجعية الدينية الشيعية انموذجا)

أ.د نجم عبدالله غالي الموسوي
جامعـــــة ميسان

م.د شاكر عطية ضويحي الساعدي
كلية الامـــام الكاظـم (ع)/ ميســـان

المقدمة :

لقد كان للخطاب الديني منذ انطلاقته الأولى مكانته وأثره في قول الحق وإحلال الأمن والسلم الفردي والاجتماعي، وقد لا يختص هذا الخطاب بالدين الإسلامي لكونه يعبر عن إرادة السماء وأحكامها، إلا أن الأخير تميّز عن سائر الخطب الدينية السابقة بعدة مميزات تتناسب وحجم المسؤولية والأمانة المكلف بحملها، فضلاً عن حجم المشاكل الحوادث التي يواجهها في مسيرته ودعوته للحقّ.

وهكذا كان الخطاب الديني الإسلامي يدعو الى توحيد الكلمة والكلمة الواحدة، ليتمكن من خلالها ترسيخ القيم والمبادئ الإنسانية وتشريع القوانين والأحكام الإلهية، وتحقيق السعادة والعدالة الكبرى للإنسانية كافة، إذ تمكن من إخراج الناس من بحر ظلمات الجهل إلى نور المعرفة وإحلال الأمن والاستقرار للأمة الإسلامية، بحيث أصبح لها حضارة تتقدم بها على سائر الحضارات العالمية آنذاك، بفضل التعاليم والمعارف الدينية التي جاءت بها، غير أنّ مثل هذا لا يروق لأصحاب النفوس الضعيفة والخبيثة، الذين يلهثون وراء المناصب والجاهات والمكاسب الدنيوية، فبدأت الأمة الإسلامية تخطو خطاها في التقدم والتطور اللامحدود في مختلف المجالات على الرغم من وضع هؤلاء للكثير من العقبات في طريقها للحيلولة دون تحقيق أهدافها وتشويهاً لدعوتها، فمكروا ومكر الله والله خير الماكرين، إذ قوض لهذه الأمة أئمة يحفظ بهم تراثها وقوانينها وتشريعاتها، إلى أن آل الأمر بعد الغيبة الكبرى لصاحب الأمر والزمان(عج) فاختار الله تعالى لها من بينها علماء يرثون الأنبياء (ع) علماً وفقاهة في الدين وحماة له، وقد سعى الجميع كل بحسب قدرته في الدفاع عن الدين وحفظه، فكان لهؤلاء الأعلام بصماتهم على وجه التاريخ الإسلامي، وصوراً رائعة في صفحاته المشرقة، تستحق الوقوف عندها واستلهام الدروس والعبر منها...

وهكذا كان لمراجع الدين وعلمائه مواقف مشرفة في التاريخ في الدفاع عنه وحفظه من الضياع والانحراف بوجه التيارات الانحرافية التي كادت تقضي عليه لولا وجود هؤلاء الأعلام ووعيهم بمكائد الاعداء ومخططاتهم، وقد كان من بين هؤلاء الأعلام الذين تركوا لنا بصمة وأثراً على صفحات التاريخ العراقي السياسي، آية الله العظمى الشيخ محمد تقي اليزدي (قدس) مفجر ثورة العشرين، وآية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر(قدس)، وآية الله العظمى السيد محمد محمد صادق الصدر(قدس)، وآية الله العظمى السيد علي السيستاني(دام ظله الوارف) صاحب المواقف المذهلة لعقول جميع العباقرة وعلماء السياسة والدين وجبابرة العصر وطواغيته، وهذا ما سنتحدث عنه من خلال بيان الأبعاد السياسية والاجتماعية لمواقفه وخطبه الدينية وأثرهما في حفظ الأمن والاستقرار للعراق والمنطقة الإسلامية برمتها.. ومن الله التوفيق.

الكلمات المفتاحية

الخطاب، الدين، البعد ، السياسية، المرجع، المجتمع

التمهيد: مفاهيم هامة :

١.مفهوم الخطاب وأهمية :

الخطاب مصدر للفعل (يخاطب، وخاطب)، وقد جاء من كلمة الخَطب أي الأمر أو الشأن، والخطاب هو سبب الشيء، ويقال للمرء ما خطبك؟ أي ما شأنك، ونَصِفُ بعض الحوادث والأمور فنقول: خطب عظيم أو جليل[١].

وفي الاصطلاح مواجهة الآخرين بكلام قد يكون على شكل رسالة، أو محاضرة، أو تسجيل، أو نص معين، وقد يتعدى الكلام إلى الرموز، وتتنوع أشكاله فمنه اللفظي الذي يستخدم اللغة كأداة له، وغير اللفظي الذي يستخدم العلامات والإشارات والإيحاءات، يعرف مفهوم الخطاب اصطلاحاً أيضاً بأنه مجموعة متناسقة ومترابطة من الجمل والأقوال، تحمل في سياقها معلومات ومعاني تهم المتلقي أو المرسل إليه[٢].

وأمّا الخطاب الدينيّ أو الإسلاميّ هو خطابٌ يستند إلى مصادر التشريع الإسلامي، وهي القرآن الكريم، والسنة النبويّة، ومصادر التشريع الإسلامية الأخرى، سواءً كان هذا الخطاب صادراً من جهة إسلامية، أو مؤسسة دعوية رسمية، أو غير رسمية، أو أفراد جمعهم الاستناد إلى الدين الإسلامي وأصوله كمصدر لأطروحاتهم.

يتميّز الخطاب الدينيّ بالتجديد ضمن إطار عقيدة الإسلام، ويرتبط مضمونه بما يحتاجه المسلمون، ويكون المقصد منه هو حل ومعالجة التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر.

٢.مفهوم الدين :

قال الفراهيدي: (الدين جمعه الأديان، والدين الجزاء لا يجمع، لأنّه مصدر، كقولك: دان الله العباد يدينهم يوم القيامة أي يجزيهم، وهو ديان العباد. والدين: الطاعة، ودانوا لفلان أي أطاعوه).[٣]، وقال العسكري: (ما يطاع به المعبود ولكل واحد منا دين)[٤]، وقال أيضاً في موضع آخر: (وهو ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقربه إلى الله، وإن لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك)[٥]، وجاء لفظ الدين أيضاً في لغة العرب على معان متعددة، منها الطريقة والمذهب والملة والعادة والشأن، كما تقول العرب في الريح "عادت هيفُ لأديانها"، ويقولون: ما زال ذلك ديني وديدني، ومنها الجزاء والمكافأة يقال: دانه بدينه ديناً أي جازاه، ويقال: كما تدين تُدان أي كما تجازي تُجازى بفعلك، وبحسب ما عملت، ومنها سيرة الملك ومملكته، ومنه قول زهير بن أبي سلمى:

---

(١) نقلا عن موقع الثقافة التربوية (www.manhal.net) مقالة تحت عنوان (الخطاب).

(٢) نقلا عن موقع الثقافة التربوية (www.manhal.net) مقالة تحت عنوان (الخطاب).

(٣) الفراهيدي، أحمد، العين، ج٨، ص٧٣.

(٤) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص٢٩٩.

(٥) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص٥٠٩.

لئن حللت بجو في بني أسد دين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ

ومعنى الدين في القرآن لا يخرج عن المعنى اللغوي، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (١)، فدين الله هنا هو الخضوع له والانقياد لحكمه وأمره ونهيه. وقوله تعالى: (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّه)(٢)، فكلمة دينكم تعني ملتكم وتعني كذلك نظامكم وقوانينكم وتقاليدكم التي تسيرون عليها في الدولة. فدين الملك سياسته وقانونه وشريعته ونظامه. وقول الله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣)، يوم الجزاء والحساب والمكافأة.

وقد عرف الدين في الاصطلاح الكلامي بأنّه عبارة عن مجموعة الاعتقادات والأحكام الفردية والاجتماعية الشاملة لجميع جوانب الحياة الإنسانية بما يحقق للإنسان السعادة في الدنيا والآخرة (٤).

٣.مفهوم السياسة :

أمّا السياسة لغة، فقد جاءت في عدة معاني، نذكر منها:

١. (فعل السائس الذي يسوس الدواب سياسة يقوم عليها ويروضها، والوالي يسوس الرعية وأمرهم) (٥).
٢. (القيام على الشيء بما يصلحه)(٦).
٣. سوسوه وأساسوه وساس الأمر سياسة: قام به. والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه)(٧).
٤. (ساس زيد الأمر يسوسه سياسة: دبّره وقام بأمره)(٨).
٥. (سست الرعية سياسة: وسوس الرجل أمور الناس على ما لم يسم فاعله إذا ملك أمرهم)(٩).
٦.(سست الرعية: إذا أمرتها ونهيتها) (١).

ومن جميع ما تقدم من التعاريف التّي تناولتها كتب اللغة لكلمة السياسة يتضح أنّ المفهوم اللغوي للسياسة قد ارتبط بتولي الأمور العامة وانتظام أحوال الرعية وتدبيرها

(١) يوسف/ ٤٠.
(٢) يوسف/ ٧٦.
(٣) الفاتحة/ ٤.
(٤) انظر، بهشتي، د. أحمد، فلسفة دين [فارسي]، ص٤٣.
(٥) الفراهيدي، الخليل بن احمد، العين، تحقيق مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، تنقيح اسعد الطيب، ج٢، ص٧٧٨.
(٦) الطريحي، فخرا لدين، مجمع البحرين، ج٤، ص٧٨.
(٧) ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، ج٦، ص٤٢٩، باب السين.
(٨) الفيومي، المصباح المنير، نقلا عن نظام الحكم في الإسلام، ص٣.
(٩) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، ج٢، ص٩٣٥، باب السين، فصل السين؛ ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، ج٦، ص١٠٨.
(١) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، ج٤، ص١٦٩، باب السين، فصل السين.

والقيام بأمرها ونهيها.

وأمّا السياسة اصطلاحاً، فهي:

١. ما قال البغدادي: (ما كان فعلاً يكون للناس معه أقرب إلى الصواب وأبعد عن الفساد وان لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي)[١]،وهذا التعريف قريب من المعنى اللغوي للسياسة وهو تدبير شؤون الأمة ورعاية مصالحها وإن لم يرد دليل جزئي على ضوء الشريعة الإسلامية، وذلك لأنّ المناط في صحة التعريف هو عدم ورود النقض عليه، والحال أن النقض وارد هنا، إذ إنّ المقياس الصحيح في صحة تعريف السياسة، هو جريانها وفقاً للكتاب والسنة النبوية، وما خرج عنهما فهو واضح الفساد والبطلان، نظراً لشمولية الدين الإسلامي لجميع جوانب الحياة، وعدم إهماله أي مفردة من مفرداتها.

٢. ما قاله ابن نجيم:(فعل شيء من الحاكم لمصلحة يراها وإن لم يرد بذلك الفعل دليل جزئي كقوله (والمريض يرجم ولا يجلد حتى يبرأ))[٢]، وقد أناط هذا التعريف السياسة بفعل الحاكم وفقاً للمصلحة التّي يراها دون غيره وإن لم يرد دليل جزئي من الشرع المقدس على وفقه.

٣. قال ضياء البدران: (هي إعادة ترتيب الأوضاع وفقا للمؤشرات الظرفية مع الاحتفاظ بالثوابت الأخلاقية (بالنسبة للإسلام) ومع الاحتفاظ بالمصالح (بالنسبة لغير الإسلام))[٣]. وهذا التعريف هو القريب عمّا نحن فيه، حيث أناط ترتيب الأوضاع وفقاً للمؤشرات والظروف المحيطة بها مع الاحتفاظ بالثوابت الأخلاقية بالنسبة للإسلام، ومع الاحتفاظ بالمصالح بالنسبة لغيره، لكنه لو أضاف إلى جملة ترتيب الأوضاع جملة أخرى ـ الأوضاع العامة للناس وما يتعلق بحياتهم - لكان أفضل.

٤. ما قاله قال مايل كومبلاند: (السياسة: فن الممكن)[٤]، والسياسة عكس ذلك، إلا السياسة الإسلامية، ففي هذا التعريف اقتصار على فن الممكن، وهو أمر يدعو للتوقف والتأمل بنفس المفردة الواردة في نفس التعريف، وما هو المقصود منها، وهل كل ممكن ويعتبر من فنون السياسة في نظره؟

٥. ما قاله رايموندي:(هي علم الدولة، التّي تبحث عن التنظيمات البشرية وعن تكوين الأحداث السياسية وعن تنظيم الحكومات، وفي فعالية الحكومة التّي لها صله بتشريع القوانين وتنفيذها، وفي علاقتها بالدول الأخرى، وبيان مدى العلاقات القائمة بين الشعب والدولة، وارتباطات الدول بعضها مع بعض، كما تبحث عن تطوّر السلطة السياسية بالنسبة إلى حرية الفرد)[١]،وفيه أنّه اعتبر كل ما يرد في علم الدولة من السياسة، مع أن بعض الأمور التّي تخص الدولة لا علاقة لها بالسياسة، كالتنظيمات البشرية، فهي أمور نظمية وليست سياسية.

٦. ما قاله الحوفي: (هي الحكم، والرجل السياسي هو الذي يمارس أعمال الإدارة المدنية،

---

(١) البغدادي الحنبلي، علي بن عقيل، كتاب الفنون، ص٥١٣.

(٢) ابن نجيم، البحر الرائق، كتاب الحدود ، ج٥، ص١١، ؛ خلاف، عبد الوهاب، كتاب السياسة الشرعية، ص٣.

(٣) البدران، ضياء، مجموعة مقالات (الثورة الإسلامية والمتغير الدولي)، كيهان العربي شعبان ١٩٩٥م/ ١٤١٤هـ.

(٤) مايل، كومبلاند، لعبة الأمم، ص١٠.

(١) رايموندي، كارفيلد، العلوم السياسية، ص١٦.

وهو الحاكم الرسمي الموّجه الناصح)[١]،ويرد عليه، أنه ليس كل حكم هو سياسة، وليس كل من مارس الأعمال المدنية هو رجل سياسي وموجه ناصح.

٤. مفهوم المرجعية :

(المَرجِع) مصدر شاذ، وهو من يكون الرجوع إليه ينتهي عنده.

فقد قال ابن منظور في مادة (رَجعَ) : (رَجَع يرجع رجوعاً ورُجعى ورجعاناً ومرجعاً ومرجعة: انصرف، وفي التنزيل: ﴿إنّ الى ربِّكَ الرُجعى﴾[٢]، أي الرجوع، والّمرجع مصدرٌ على فُعلى، وفيه: ﴿الى اللهِ مَرجِعكمُ جميعاً﴾ [٣]، أي رجوعكم)[٤].

و (مَرجِع): مصدر شاذ، لان المصادر من (فَعَل يَفْعِل(إنما تكون بالفتح[٥]، ومن معاني (الرجع) المطر، كما في قوله تعالى: ﴿والسماءِ ذاتِ الرجع﴾[٦]،ويقال ذات النفع[٧]، كما انَّ كلمة (رَجع) تدل على الردَّ والتكرار، حيث جاء في مجمع المقاييس: (الراء والجيم والعين أصل كبير مطّرد منقاس، يدلُّ على ردٍّ وتكرار، نقول: رجع يرجع رجوعاً إذا عاد)[٨].

أما الراغب الأصفهاني في كتابه مفردات ألفاظ القرآن فقد قال في بيان معنى (الرجوع): (الرجوع: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكاناً كان أو فعلاً، وبذاته كان رجوعه وبجزء من أجزائه، وبفعل من أفعاله، فالرجوع العود)[٩].

وعليه فإنّ المستفادة من كلمات اللغويين في المقام بأنّ المرجع هو من يرجع إليه، والمرجعية هي اسم مصدر. وأما في الاصطلاح فلم نعثر على تعريف للمرجعية في كتب العلماء والمجتهدين، الذين كتبوا في المرجعية ـ على حدَّ بحثنا القاصر ـ ولذلك حاولنا انّ نجمعَ تعريفاً لها من خلال بيان موقعها في نظام شيعة أهل البيت٨، وكذلك وظائفها، وعلاقة الأمة بها، مستفيدين ذلك من كتابي: المرجعية الدينية، وموسوعة الحوزة العلمية والمرجعية لأية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الحكيم (قده)، وإليكم التعريف: (المرجعية: هي الجهة التي تتبوأ الموقع الأول في الهيكل العام لنظام الجماعة [الشيعة] عند غياب المعصوم)[١]، وقال في موضع آخر: (حيث يرجع لها الإتباع في جميع الموارد المتقدمة، وتكون لها القيمومة على مؤسسات عمل الأمة وحركتها[٢]، وقال في كتاب آخر: (والتي تقوم بالوظائف الأساسية للإمامة، وهي الولاية لشؤون

(١) الحوفي، احمد محمد، أدب السياسة، ص٧.

(٢) العلق: ٨.

(٣) المائدة : ٤٨.

(٤) ابن منظور، محمد بن مكرّم، لسان العرب: ج٨، ص١١٤، مادة (رجع).

(٥) الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح: ج٣ ص١٢١٦، تحقيق د. إميل بديع يعقوب.

(٦) الطارق: ١١.

(٧) الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح: ج٣ ص١٢١٦، تحقيق د. إميل بديع يعقوب.

(٨) ابن فارس، جعفر بن احمد ، مجمع المقاييس في اللغة: ج٢، ص٤٩٠، مادة (رجع).

(٩) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد ، معجم مفردات ألفاظ القرآن : ص١١٨، مادة (رجع).

(١) راجع: الحكيم، محمد باقر، المرجعية الدينية: ص٢٢.

(٢) الحكيم، محمد باقر، المرجعية الدينية: ص٦٠.

المسلمين، والإفتاء لبيان مفاهيم الرسالة الإلهية، وإبلاغها والتبشير والإنذار بها ، والقضاء في موارد النزاع والتداعي وفصل الخصومات)[١].

ومما تقدم فإنّ المعنى اللغوي ينطبق على كلَّ شخص او جهةٍ يكون رجوع الناس إليها في مورد اختصاصها او وظيفتها، ولذلك فهو ينطبق على الأنبياء والأوصياء والأئمة ومن عناهم التعريف لبيان معنى المرجعية في الاصطلاح، وهم العلماء المجتهدون عند غياب المعصوم. امّا المعنى الاصطلاحي فقد انصرف الى المجتهدين الذين يقومون بوظائف الإمام المعصوم عند غيبته، ولهذا عندما يُذكر لفظ المرجعية ـ في زماننا ـ تنصرف أذهاننا الى المرجعيات الحالية والتي سبقتها منذ الغيبة.

٥. مفهوم المجتمع :

المجتمع لغة مصطلح مشتق من الفعل جَمَع، وهي عكس كلمة فرق، كما أنّها مُشتقّة على وزن مُفتَعَل، وتعني مكان الاجتماع، والمعنى الذي يقصد بهذه الكلمة هو جماعة من الناس، وهذا رد على من يعتقد أنّها كلمة خاطئة ويقول إنّه ينبغي استخدام كلمة جماعة بدلاً منها، ويُسمّى العلم الذي يُعنى بدراسة المجتمع من جميع نواحيه بعلم الاجتماع[٢].

والمجتمع لغة كما جاء في معجم المعاني الجامع هو عبارة عن فئة من الناس تشكّل مجموعة تعتمد على بعضها البعض، يعيشون مع بعضهم، وتربطهم روابط ومصالح مشتركة وتحكمهم عادات وتقاليد وقوانين واحدة[٣].

وهناك عدة تعريفات للمجتمع من المنظور السياسيّ، والمنظور الاجتماعيّ، والمنظور النفسيّ وغيرها، ويمكن تعريفه اصطلاحاً على أنّه عدد كبير من الأفراد المستقرّين الذين تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة ترافقها أنظمة تهدف إلى ضبط سلوكهم ويكونون تحت رعاية السلطة[٤]، والمجتمع هو مجموعة من الأشخاص الأحياء، وليس مجموعة من الأفكار فحسب، وهؤلاء الأشخاص مكتفون بذاتهم، ومستمرّون في البقاء، ويتنوّعون بين ذكور وإناث، وقد وُصف المجتمع من قبل علماء الاجتماع على أنّه أكبر جماعة يمكن أن ينتمي إليها الأفراد، وله القدرة على التكيّف بذاته، وأن يكون مكتفياً بحيث يستمر إلى اللاّنهاية، ويُعتبر من الصعب أن تُرسم حدود معيّنة وثابتة لأيّ مجتمع معيّن، حيث إنّ هذه الحدود تتغيّر وتختلف باختلاف الأحوال، وحسب الغرض المراد من تحديدها[١].

---

(١) الحكيم، محمد باقر، موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية: ج٢ ص٢٣.

(٢) حسن عبد الرازق منصور (٢٠١٣)، بناء الإنسان (الطبعة الثانية)، عمان- الأدرن: أمواج للنشر والتوزيع، صفحة ١٨٧. بتصرّف.

(٣)"تعريف و معنى مجتمع في معجم المعاني الجامع"، www.almaany.com، اطّلع عليه بتاريخ ٢٠١٨-٣-٥. بتصرّف.

(٤) د. محمد بن علي اليولو الجزولي، "إصلاح المجتمع"، www.alquatan.org، اطّلع عليه بتاريخ ٢٠١٨-٣-٥. بتصرّف.

(١) د. محمد الجوهري، المدخل إلى علم الاجتماع، صفحة ٣٢-٣٣. بتصرّف.

البحث الأول: الأبعاد السياسية لخطب المرجعية الدينية (الشيعية) في العراق ما بعد ٢٠٠٣م

لقد كان من بين الأبعاد السياسية لخطب المرجعية الدينية العليا في العراق ، ما يلي:

أولاً: حفظ الأمن والاستقرار :

إنّ غياب القانون وسيادة السلطة والدولة من بين أهم الأمور التي تخلق الفوضى العارمة في المجتمع الإنساني، فالإنسان السيء عندما لم يجد رادعاً أو قانوناً يحاسبه على إساءته، فإنه سوف يتمادى في الإساءة الى مستوى يؤدي إلى خلق الفوضى والهرج والمرج والدمار في البلد، «فإنّه متى غابت السلطة قلّ الصلاح، وكثُر الهرج والمرج، وفسُدت المعايش، بل إنّ المعلوم أنّه مع وجود الرؤساء وانقباض أيديهم وضعف سلطانهم، يكثُر الفساد ويقلّ الصلاح»[١]، وهذا بخلاف ما لو كان هناك من يحاسبه على فعل الإساء والدمار، أو يجد من يردعه عن التجاوزات التي يرتكبها، أو يريد ارتكابها، وعندها يؤول المجتمع يؤول الأمن والاستقرار الفردي والاجتماعي... وقد كان من بين أعظم الانتهاكات هو ما حصل بالنسبة إلى ممتلاكات الدولة وما لحق بها من النهب والتخريب والتدمير، في الوقت الذي لم تكن هذه الممتلكات خاصة بالدولة فقط، بل هي ملك للشعب وتعود بفائدتها لجميع أبناء الوطن، كالمؤسسات الخدمية والتربوية والصحية والدوائر الحكومية ذاب الطابع المدني، فضلاً عن المؤسسات الاقتصادية والانتاجية، فقد تعرضت جميع هذه الممتلكات العامة الى ما لم يتعرض إليه أقرانها في سائر البلدان العالمية الأخرى، رغم تعرضها لانقلابات وثورات وانتفاضات اطاحت بأنظمتها وغيّرت حكوماتها إلا أن مؤسسات الدولة بقيت بعيدة عن الدمار والخراب، ولذا فقد حرصت المرجعية الدينية الشيعية العليا في النجف الأشرف على حفظ هذه الممتلكات العامة، وعدّت التجاوز عليها تجاوز على الملك العام للشعب، وذلك من خلال بياناتها وخطاباتها وفتاواها بهذا الخصوص، ممّا جعل السيد السيستاني (دام ظله) يساهم في ضبط الشارع العراقي عمّا يمكن أن تؤول إليه الأوضاع الأمنية من تدهور خطير، إذ أصدر في (٢٠٠٣/٤/٢٧م) فتوى تحرّم نهب ممتلكات الدولة والوزارات، وجميع الدوائر الحكومية، ودعا إلى المحافظة على هذه الممتلكات، بوصفها ملكاً عاماً لجميع أفراد الشعب العراقي، ورفض قيام العوائل وإن كانت في عوز أن تستخدم هذه الممتلكات الحكومية[٢]، غير أنها لم تجد من الكثير الاذن الصاغية من الجميع، فالأكثرية قد أصمتها طبيعة الظروف القاسية التي مرّت بها أبان الحكم البعثي الكافر، لدرجة أضحت لا تميز بين الفعل الصحيح من الفعل القبيح، وبين ما يعود بالنفع عليها، وما يعود بالضرر عليها، حتى بات العديد من هذه المؤسسات الى يومنا هذا تعاني من نقص في التجهيزات، مما انعكس على عملها في تقديم خدماتها لابناء هذا الوطن المسكين، بل وصل الأمر نتيجة هذه الاوضاع وما رافقها من انعدام تطبيق القانون الى فقدهم الأمن والاستقرار على كلا المتسويين الفردي والاجتماعي، فبدل أن يحل العمار والازدهار، حل محل ذلك الدمار والتخلف على مختلف الأصعدة الحياتية، فأضحت هذه المؤسسات خاوية على عروشها، تفتقر إلى أبسط مقوماتها، فكانت نتيجتها عدم قدرتها في العطاء والانتاج.

---

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد: ص٢٩٧.

(٢) أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٣٥٧.٣٥٨.

ثانياً: حفظ المال والأعراض والممتلكات العامة :

لقد تعرض الشعب العراقي بمختلف أطيافه ومذاهبه وديانـاته الى موجة من العصف والتيار الجارف، متمثلاً بزهق الأرواح وهتك للأعراض وهدر الأموال، نتيجة ما قام به شرذمة من الانتهازيين والتكفيريين والمتعصبين، بحيث أضحت بعض الطرق والمناطق تعرف بطرق ومناطق الموت، فبات الرعب ونهب الأموال وهتك الاعراض سمة لفترة عصيبة مرّ بها العراق، فلا المال والاعراض محفوظة، بل تجاوز هذا الدمار الى أن يتعدى من المال العام الى المال الشخصي، حتى أصبح الناس فيه سكرى وما هم بسكارى ولكن الأمن مفقود والفاسد يصول ويجول، فلا من رادع ولا من محاسب ولا من مدافع عنهم، سوى المرجعية الدينية التي لم تقف موقف المتفرج على ذلك، بل بادرت بكل ما تمتلك من وسائل وطرق وأساليب للحد من هذه الظاهرة والوقوف بوجهها، وذلك من خلال فتاواها بتحريم جميع أنواع التجاوز والاعتداء على الأموال العام والخاصة، وكذلك حرمة الاعتداء على الأعراض مهما كانت ديانتها وعقيدتها، فكانت على خط واحد من جميع الديانات والمذاهب والقوميات العراقية المختلفة دون أدنى تمييز لطرف على طرف آخر، فقد أصدر السيد السيستاني فتواه الشهيرة بحرمة دم العراقي بكلّ طوائفه، وحرمة الدم السنّي بالخصوص، بل قال: إنّ من واجب الشيعي أن يحمي أخاه السنّي، كما دعا السيد وأكّد على جميع العراقيين بجميع أطيافهم إلى التصدي لعدوّهم الأوّل (الإرهاب) الذي يهدد وحدة العراق، مؤكّداً أهميّة بناء جسور الثقة لتعزيز الوحدة الوطنية والسِّلم الأهلي، فاستطاع السيد بحكمته ورجاحة عقله أن يُبعد شبح الحرب الأهلية التي كادت أن تدخل العراق في بحر من الدماء، الأمر الذي يُظهر بوضوح ثقل ودور المرجع السيد السيستاني باعتباره صمّام أمان للعراق والعراقيين[١].

كما منع السيد أن تقوم حالة من الانتقام والاحتراب الداخلي، وسفك الدماء بحق رجالات النظام البائد ممّن كان لهم يد في قتل الأبرياء، إذ أوجب أن تحال هذه القضايا إلى المحاكم المختصّة في الدولة بعد قيام حكومة مستقلة ومنتخبة تدير شؤون البلاد، كما قام سماحته أيضاً بإيقاف سيل الدماء والحفاظ على أرواح الأبرياء من المدنيين في مدينة النجف الأشرف في آب (٢٠٠٤م)، حين دخلت إحدى الجهات المسلّحة (جيش المهدي) حالة من المواجهة والصراع والاشتباك المسلّح مع قوات الاحتلال، وقد اتخذت من حرم الإمام علي (عليه السلام) مقراً لها، وأرادت قوات الحكومة العراقية الدخول إلى المدينة المقدّسة بمساندة القوات الأمريكية، ممّا يعني حدوث مذبحة كبيرة، ناهيك عن انتهاك حرمة المدينة المقدّسة وما لها من مكانة في نفوس المسلمين عموماً والعراقيين بوجه خاص، فقد بادر السيد إلى حلّ النزاع بعد لقاءات متعددة بين الأطراف المتنازعة قام بها ممثلون عن سماحته، وقد أثمرت جهوده المباركة بحل الأزمة بعد أن عجز عن حلّها كثيرون من أهل العلم والجاه والساسة[١]،وبذلك استطاع حفظ الأمور وصيانة الاعراض عن الانتهاك والتعدي بحجة الانتماء الديني أو المذهبي أو السياسي أو العرقي أو القومي.

---

(١) أُنظر: الظالمي، صالح، المرجعية والمواقف الصريحة السيد السيستاني أُنموذجاً، بحث منشور في مجلة آفاق نجفية، العدد الثاني، ٢٠٠٦م: ص٧٨.

(١) أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٧٦.

ثالثاً: حفظ العراق من الاحتلال الخارجي :

ذلك من خلال الوقوف بوجه المخططات العدائية لتفريق الصف واقتتال ابناء الشعب الواحد على أسس قومية أو عرقية وأو مذهبية أو دينية، التي سعى الاحتلال الامريكي إلى إيجادها في الأوساط العراقية عبر شبكاته وسائله الاستخبارية الخبيثة، غير أنّ وعي المرجعية وما تتمتع به من حنكة سياسية وحكمة في العمل حال دون تحقيق اهدافها الخبيثة، لذا عدّ السيد السيستاني وجود القوات المحتلة في العراق غير شرعي، وهذا الموقف لا غبار عليه عند القاصي والداني في العراق وخارجه، ولكنه (دام ظله) يرى أنّ المعركة من أجل استقلال العراق بحاجة إلى العقلانية، وإلى مرجعية سياسية وطنية ومرجعية دينية، تتظافر جهودهم مع كلّ أطياف الشعب واتجاهاته السياسية والاجتماعية، ومن خلال استخدام الأساليب المتحضرة والديمقراطية والمدنية سبيلاً لتجنيب العراق المزيد من الدماء، وطريقاً لنيل الاستقلال الكامل لكلّ أرض العراق، إذ يرى وجوب أن يعمل كلّ المعنيين بالمسألة الاستقلالية وحركتها الوطنية بكلّ السبل والإمكانات، من أجل إخراج الاحتلال بأقل الخسائر البشرية والسياسية من العراق، وأن يبقي نفسه على مسافة واحدة متساوية من جميع الفرقاء والقادة والاتجاهات في الساحة العراقية، إذ نلاحظ هذا الدور من خلال اهتمامه(دام ظله) بصورة كبيرة وملحوظة بموضوع الانتخابات البرلمانية وتشكيل الجمعية الوطنية، وذلك الاهتمام نابع من كون المجلس يمثّل المؤسسة الأقوى في الدولة، وهو الممثّل الشرعي للشعب العراقي[١]، ومن هنا كان السيد من أشدّ المناصرين لإجراء الانتخابات، وذلك لما للجمعية من أهمية في رسم ملامح المستقبل السياسي للعراق الجديد، إذ سعى بكلّ ثقله لإنجاح الانتخابات رغم المعارضة السنّية الواسعة[٢].

رابعاً: الدعوى الى تشكيل الحكومة :

لقد أكد السيد السيستاني المرجع الأعلى(دام ظله) من خلال خطب الجمعة إلى الاسراع بتشكيل الحكومة المنتخبة وفق أسس المستحقات الانتخابية مع الابتعاد عن المحاصصة السياسية والحزبية ، إذ يرى هناك حاجة ماسّة جدّاً لسلطة عُليا تقوم على إدارة شؤون المجتمع وتسيير أموره العامّة، وذلك لتحقيق التناسق بين الاحتياجات الاجتماعية المتفاوتة، وأساليب إشباع هذه الاحتياجات، وتجميع القوى الفعّالة وتوجيهها الوجه التي تؤهلها لخدمة المجتمع على النحو الأكمل، كما أنّ هذه السلطة ضرورية لإشاعة العدل بوجه الظلم والاعتداء على الآخرين وحقوقهم، وبالتالي يحتاج المجتمع إلى الموقف فيها رأياً موحداً يمتلك القاطعية والواقعية، والقدرة على التنفيذ[١]، فإنّ ضرورة حفظ النظام العام في الدولة ككيان تجتمع فيه الأفراد والجماعات، والذي يتم من خلاله إرساء مبادئ العدل والسلام، وأحقّية العيش الكريم، ضرورة تتفق عليها كلّ الآراء والأفكار الإسلامية من حيث النتيجة وإن اختلفت في شكل النظام السياسي السائد، وحدود الممارسة السياسية، والمعالجة الميدانية للحوادث في هذا البلد أو ذاك[٢]، ولذا كان للسيد السيستاني موقفاً واضحاً في رفضه سياسة الاحتلال، وقد بيّن ذلك في مواقف عدّة، منها: رفضه

(١) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، فكرة الديمقراطية عند المرجعية الدينية في النجف الأشرف، بحث منشور في كتاب إشكاليات التحوّل الديمقراطي في العراق: ص٩٧.

(٢) أُنظر: عبد الرزاق، صلاح، المرجعية الدينية في العراق والانتخابات البرلمانية وتعزيز الوحدة الوطنية: ص٧٥.

(١) أُنظر: الحائري، كاظم، المرجعية والقيادة: ص٣١.

(٢) أُنظر: النبراوي، خديجة، حقوق الإنسان في الإسلام: ص٢٩٨.

استقبال الحاكم المدني بول برايمر لمرّات عدّة، لعدم وجود ما يستدعي هذا اللقاء[١]، إذ أُشير لهذا الأمر في ردّ على أحد أسئلة صحيفة اسهاي اليابانية ونصُّ السؤال هو: ما هي العلاقة بين الحكومة المؤقتة وبينكم؟ هل تتلقون الدعم منهم؟ أم ماذا؟ وكان جواب مكتب السيد ما يلي: «لا علاقة بيننا وبين السلطة المؤقتة، وأمّا الحكومة المؤقتة، فلم تتشكل بعدُ»[٢].

لقد أكّد السيد على أبناء العراق الذين يمتلكون الكفاءة والمؤهلات أن يتصدّوا لإدارة البلاد، وليس عليهم أن يفعلوا ذلك تحت أيّ سلطةٍ أجنبيةٍ، ورفض السيستاني كلّ أشكال التدخل في الشأن العراقي، ووجوب نيل العراق لاستقلاله بصورة كاملة غير منقوصة[٣].

خامساً: الدعوة إلى كتابة الدستور الالتزام به :

لقد ترك النظام البعثي المنحل دستوراً جائراً، ذبح تحت مقرراته وتشريعاته الكثير من الشرفاء العراقيين، وانتهك تحت مظلته الحقوق، استقوى به الظالم على المظلوم، حرم في البائس الفقير من أبسط حقوقه وممارسة حرياته، ولذا كان سقوط النظام الدكتاتوري إيذاناً ببداية مرحلة سياسية جديدة، تقوم على أساس المساواة في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية وغيرها، لكن هذا التغيير السياسي للأسف الشديد في العراق رافقه مرحلة من الاحتلال العسكري الأجنبي، حاول هذا الاحتلال تجيير المرحلة لصالحه، بُغية الحصول على مكاسب، وفرض قوانين وتشريعات وآليات حكم تنسجم مع آيديولوجيته وتضمّن بقاء وجوده على أرض العراق بشكل أو آخر[٤]، فكان على المرجعية الرشيدة التي أدركت خطورة هذه المرحلة باعتبارها تمثّل عودة للدكتاتورية تحت غطاء الديمقراطية، ولذلك أكّدت المرجعية على أهمية كتابة الدستور بأيدي أبناء العراق، وليس عن طرق آليات توضع من قِبل المحتل وبعض رجالات السياسة من العراقيين، الذين لا تهمهم هموم ومطالب أبناء الشعب العراقي، وقد جاء تأكيدها هذا من خلال العديد من البيانات التي تؤكّد عدم وجود أيّ جهة مخولة لكتابة الدستور ما لم يتم انتخابها من أبناء الشعب، عن طريق آلية الانتخابات الديمقراطية[٥]، وعليه فلم تقف المرجعية موقف المتفرج على المذبوح وهو يلفظ آخر أنفاسه، بل بادرة من خلال دعوتها إلى كتابة الدستور العراقي الجديد، بالنحو الذي يؤمن الحقوق لكافة أطياف الشعب العراقي ، حيث جاء ذلك في معرض جواب سؤال وجّه من قِبل (جمع من المؤمنين) إلى مكتب سماحته في النجف، وكان السؤال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أعلنت سلطات الاحتلال في العراق أنّها قررت تشكيل مجلس لكتابة الدستور العراقي القادم، وأنّها ستُعيّن أعضاء هذا المجلس بالمشاورة مع الجهات السياسية والاجتماعية في البلد، ثمّ تطرح الدستور الذي يقرّه المجلس للتصويت عليه في استفتاء شعبي عام. نرجو التفضل ببيان الموقف الشرعي من هذا المشروع، وما يجب على المؤمنين أن يقوموا به في قضية إعداد الدستور العراقي.

---

(١)أنظر: الظالمي، صالح، المرجعية والمواقف الصريحة، السيد السيستاني أُنموذجاً، بحث منشور في مجلة آفاق نجفية، العدد الثاني، ٢٠٠٦م: ص١٤.

(٢) الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٤٤.

(٣)أُنظر: مقابلة مع السيد محمد رضا السيستاني نجل المرجع علي السيستاني، جريدة الحياة: العدد (١٤٦٣٤)، ٢٠٠٣/٤/١٨م.

(٤) أُنظر: الظالمي، صالح، المرجعية والمواقف الصريحة، السيد السيستاني أُنموذجاً، بحث منشور في مجلة آفاق نجفية، العدد الثاني، ٢٠٠٦م: ص١٣،١٤.

(٥) أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٣٢٥.

وكان جواب السيد السيستاني بخصوص هذا الأمر ما نصّه:

«إنّ تلك السلطات لا تتمتع بأيّة صلاحية في تعيين أعضاء مجلس كتابة الدستور، كما لا ضمان أن يضع هذا المجلس دستوراً يطابق المصالح العليا للشعب العراقي، ويعبّر عن هويته الوطنية والتي من ركائزها الأساسية الدين الإسلامي الحنيف والقيم الاجتماعية النبيلة، فالمشروع المذكور غير مقبول من أساسه، ولا بدّ أوّلاً من إجراء انتخابات عامّة، لكي يختار كلّ عراقي مؤهل للانتخاب مَن يمثّله في مجلس تأسيسي لكتابة الدستور، ثمّ يجري التصويت العام على الدستور الذي يقرّه هذا المجلس، وعلى المؤمنين كافّة المطالبة بتحقيق هذا الأمر المهم، والمساهمة في إنجازه على أحسن وجه، أخذ الله تبارك و تعالى بأيدي الجميع إلى ما فيه الخير والصلاح، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[١].

وكان الموقف الأوّل الواضح الذي صدر من المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف أن رفضت بشدّة إلغاء دور الشعب، وتعطيل إرادته الحرّة في اختيار دستور لبلاده عبر ممثلين، تضمّهم جمعية وطنية تختصّ بكتابة دستور جديد دائم للبلاد[٢]، وبذلك استطاع السيد السيستاني أن يحمي التجربة العراقية وأن يصون حقوق الشعب العراقي دون انغلاق على الحكم وإن لم يعلن الإسلام كياناً للدولة، وأنّ الأسباب التي تدعوا المرجعية لدعم هذه التجربة، هي أنّ السلطة أصبحت شرعية بصندوق الاقتراع وليست قهرية، كما أنّها تعمل وفقاً لدستور ارتضاه الشعب[٣].

وهي بذلك تريد بذلك أن تحقق وتؤمن للشعب العراقي بكافة أطيافه ومذاهبه حقوقه كل بحسب استحقاقه وما له وما عليه من واجبات اتجاه البلد الذي ينتمي إليه بحسب هوية العراقية.

المبحث الثاني: الابعاد الاجتماعية لخطب المرجعية الدينية (الشيعية) في العراق ما بعد ٢٠٠٣م

أولاً: فض النزاعات والاختلافات فيما يرتبط بحكم البعث المنحل :

لقد ترك الحكم البعثي المقبور لوعة في صدور الشعب العراقي ، وذلك نتيجة ما قام به من جرائم بحق جميع أبناء الشعب العراقي أثناء فترة حكمه الجائر، فلم تسلم من سطوته شريحة من شرائح المجتمع العراقي على مختلف مستوياتهم العلمية والثقافية، فكما أن المعارض له من أبناء الشعب قد طاله سوط التعذيب والتنكيل والإعدام والزج في السجون، كذلك طال المخلصين له بالولاء ممن يسمونهم بالرفاق الحزبيين وقادة الجيش والشرطة ورجال الأمن، بل وصل الأمر إلى قتل كبار المسؤولين في الدولة والمقربين إليه والمدافعين عنه لاختلاف بسيط بين زعيم الحزب ورئيسه في العراق، أمثال قتل النائب الاول للقائد العام للقوات المسلحة عدنان خير الله نتيجة ارتكابه لخطأ بسيط في نظر القائد العام ورئيس مجلس قيادة الثورة صدام أنه جريمة يعاقب عليه بالاعدام، إذ كانت جريمته العفو عن الهاربين عن الجيش، إلا أن هذا العفو جوبه بالرفض من قبل صدام وراح ضحيته المئات من الأبرياء الذين انخدعوا بالعفو وسلموا انفسهم للجهات

(١) أُنظر: الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية: ص٢٢٥.

(٢) أُنظر: السيد سلمان، حيدر نزار، سلطة النصّ الديني وبناء الدولة السيد السيستاني أُنموذجاً: ص٤٤.

(٣) أُنظر: البغدادي، عمار، مبادئ الدولة والقيادة لدى مراجع الحوزة العلمية مقاربة في رؤى الخميني . النائيني . الصدر . السيستاني: ص١١٣.٩٧.

المختصة، كما طال الاعدام أقرب الناس إليه نسباً ومنصباً ـ الذي طالما دافع عنه بنفسه وارتكب الجرائم لأجله ـ المعروف بابن عمه حسين كامل، فضلاً عن مجزرة الرفاق الحزبيين الأوائل شاهد على هنجهية هذا الحزب وقياداته وجرائمه، وأما بالنسبة لما تعرض إليه الخيرة من أساتذة الجامعات ورجال العلم والطب والهندسة والتربية والتعليم فذلك غير خفي عن أحد، إذ لم يسلم أحد من جرائمه النكراء ، هذا على مستوى الأفراد والجماعات. وأما على مستوى القوميات والاقليات وما تعرضت له أثناء حكمه فتكفينا جرائم الانفال وما رافقها من تهجير الاطفال والنساء ودفن الغالبية الكبرى منهم أحياء في الصحراء الغربية ، وما حادثة الدجيل التي راح ضحيتها من الأبرياء من النساء والأطفال كاف في إثبات هذه الجرائم، وقد كان لما يعرف عنهم بأعضاء الفرق والشعب والفروع الحزبية ورجال الأمن والمخابرات وغيرهم من أجهزة النظام البعثي القمعية الظاهرة والمخفية، دور كبير في القضاء على هذا الشعب المسكين الذي بابت يعيش الرغب والخوف في قرارة نفسه، وكأنه يتخطفه الطير، فلم يؤمن أحد على معاشه وحياته وأمواله وأعراضه، نتيجة هذه الممارسات القمعية الظالمة الجائرة، التي باتت لا تفارق الشعب ليلا ونهاراً، علناً وخفاءً، وقد ملئت هذه الجرائم قلوب الأحرار من أبناء هذا الشعب المظلوم، حتى بقي يتحين الفُرص للانقضاض على هذا الحكم وأزلامه، وقد جاهد بنفسه بتعريضها الى خطر الموت، وضحى بخيرة شبابه في انقلاب عرف عنه بالانتفاضة الشبعانية في عام ١٩٩٠م، ولكن غياب القيادة والتخطيط والتنسيق وحضور الأعداء ووقوفهم الى جانب الطاغية وحزبه الكافر، لم يوفق الشعب في انتفاضته من تحقيق أهدافه في القضاء على هذا الحكم والسيطرة على زمام الأمور، فدفع الثمن غالياً بسبب ذلك حتى أن الأحصائيات بلغ مبلغ موهلاً يقدر بخسارة أكثر من خمس ملايين شهيداً من خيرة الشباب الشيوخ والنساء والاطفال، فضلاً عن هروب أكثر من خمسة ملايين إلى خارج العراق بحثاً عن الأمن والأمان والاستقرار، حتى أضحى العراق خالياً من أبنائه، ومرتعاً لجلاوزة البعث ورجال الأمن، وحل ما حل بالعراق من الدمار والجوع ونقص في الأموال والأنفس، ولكن من خرج عنه لم يكن بعيداً عما يجري في العراق، بل راح يخطط لإسقاط النظام من خلال استراتيجيات وبرامج يعدها ويعمل بها سائر المكونات والفصائل والأحزاب من خارج العراق، إلى أن جاء اليوم الذي يقتص به من هذا النظام بقيام دول التحالف العالمي بالهجوم عليه وإسقاطه، ومن ثم العمل على إلقاء القبض على كبار رجاله ومنهم طاغيته الكبير هدام حسين، الذي قتل شر قتله، ليكون أضحية لجميع الشهداء الابرار من أبناء هذا الشعب المسكين المغلوب على أمره.

وهنا سنحت الفرصة للاقتصاص من هؤلاء المجرمين ممن تلطخت أيدهم بدماء العراقيين وتنسجت أنفسهم بأعراض المساكين، وحلت الفوضى في غياب القانون الحاكم، فلم يبق سواء المرجعية الدينية قانوناً يلتجأ إليه الناس في تأمين حقوقهم، ومعرفة أحكامهم ،وتشخيص مواقفهم ووظائفهم، ازاء ما حل بهذا الشعب وأبنائه الشرفاء على أيدي هؤلاء المجرمين، ولأجل أن لا تكون الفوضى حاكمة على الجو العام، وتراق الدماء أكثر مما أريقت سابقاً، وبما أن الشعب العراقي تحكمه مجموعة من الروابط الاجتماعية تحكمها مجموعة من الأعراف والرسوم والأحكام عشائرية ، ولئلا تراق الدماء ولأجل فض النزاعات والاختلافات بين القاتل والمتقول، ولأجل إحلال الأمن والسلام بين أبناء هذا الشعب، وجهت المرجعية الدينية خطابا دينياً معتدلاً يعتمد الاسس والمبادئ الشرعية في حقن الدماء وصيانة الأموال والأعراض، ودعت الشعب إلى محاكمة هؤلاء المجرمين الى القانون العادل، فإن ثبت ما يدعيه المتضرر وتورط الضار بذلك اقتص منه بالقانون، إما بالقصاص العادل، وإما بدفع الدية لأهل المقتول، وعندها بدأت الأوضاع

تقترب نحو الهدوء، والعمل وفق القوانين والموازين الشرعية.

قد دعت المرجعية إلى التفكير بما حصل بالعراق والهجمة العدائية والاحتلال لأرضه واستغلال ثرواته تحت غطاء الحماية والنصرة لأهله، إذ بات العراق بين مرارتين مراة المحتل، ومراة الحكم المنحل والقضاء عليه، فإن له خلايا تعمل بالخفاء ضد هذا الشعب وتتآمر عليه بجميع أنواع المؤامرة للانقضاض عليه بأمل العودة والرجوع الى الحكم مرة أخرى تحت مختلف المسميات وبشتى الطرق والاساليب المعاصرة، وهكذا وبعدة فترة وجيزة من سقوط النظام واحتلال البلاد من قبل قوى الاستكبار العالمي المتمثلة بقيادة أمريكا ومخططاتها لتدمير جميع النبى التحتية للعراق، بحيث نجحت أيما نجاح في خلق الفتن والنزاعات الطائفية والمذهبية والحزبية بين مكونات الشعب العراقي، ليصفو لها الجو في تمرير مخططاتها وتنفيذ خططها، وقد انشغل ابناء هذا البلد الجريح فترة طويلة بالاقتتال والنزاع فيما بين مكوناته راحت ضحيته الالاف من الأرواح البرية، فضلاً عم حصدته السيارات المفخخة والتفجيرات في مختلف مدن العراق، وبالخصوص المناطق التي يكثر فيها التواجد الشيعي، إذ هو المستهدف الأول من وراء جميع هذه الهجمات بتدبير وتخطيط أمريكي صهيوني سعودي. فكان لتلك الخطابات الدينية من مكتب سماحة المرجع الأعلى آية الله العظمى السيد علي السيستاني(دام ظله الوارف) صداها وأثرها الإيجابي في حفظ الأمن والاستقرار وحقن الدماء وصون الأعرض في المناطق الشيعية بما يرتبط بعملية الاقتصاص من أيتام البعث المقبور، إذ فضت الكثير من النزاعات والاختلافات بدفع الدية، أو العفو عنهم عند عدم قيام الدليل على إثبات تورط البعض منه في مثل هذه الجرائم العظيمة بحق أبناء هذا الشعب المجاهد.

ثانياً: فض النزاعات والاختلافات المذهبية بين المكونات العراقية :

لقد وقفت المرجعية الدينية موقف عادلاً ازاء جميع مكونات الشعب العراقية بما فيهم من يختلف معها في الدين والمذهب، إذ لم تجعل الاختلاف الديني والمذهبي عنوانا لحركتها وحراكها ازاء ما يرتبط بالأوضاع المأساوية التي يمر بها أبناء العراق المجاهد، وبالأخص ما يعصف به نتيجة الخلافات المذهبية التي كانت وراءها المخططات والمؤامرات الامريكية الصهيونية، التي تعذى بفتاوى علماء الفتنة، من علماء الوهابية وحكومة آل سعود المجرمة بحق الشعوب الإسلامية الشيعية المتحررة، فضلاً عمن يقوم بها من أزلام البعث المقبور ورجال أجهزته القمعية، قلم تصدر فتوى من المرجعية العليا في النجف الأشرف بقتل ومحاربة أهل السنة ولا سائر الديانات الاخرى التي باتت هي الأخرى ضحية لفتاوى التكفير، حالها حال الشيعة في العراق، على الرغم من أن العراق عاش حالة من الرعب والقتل والتنكيل بأبنائه من قبل أغلبية أبناء المذهب السني في بغداد وأطرافها، حتى أضحت بغداد تصبح وتمسي على دوي السيارات المفخخة وأصوات سيارات الاسعاف والاطفاء وسيارات فرق الانقاذ، فضلاً عن نصب السيطرات الوهمية على الطرق العامة باسم المجاهدين ورجال المقاومة من أهل السنة الدواعش، الذين تركوا المحتل يعيث الفساد وينهب الخيرات ويتوجه بفوهة بنادقه الى صدر أخيه، الذي لم يأل أدنى لحظة عند استصراخه وانقاذه من شتى المصاعب والازمات، ولم يعبأ بالمخاطرة بنفسه من أجله، فقد حصدت تلك المؤمرات والعمليات الارهابية أرواح الألاف من الشيعة وسائر المكونات الدينية الأخرى، ولم تسلم منها الأماكن المقدسة ودور العبادة، فقد أعادوا بأفعالهم هذه أفعال أسيادهم الوهابيين في هجمتهم على العتبات المقدسة لكربلاء الشموخ والتضحية.

ولكن على الرغم من ذلك كله وحصد آلاف الأرواح من الأبرياء من الشيعة والاعتداء على دور العبادة كالمساجد والحسينيات وأهلها، فضلاً عن الاعتداءات التي تعرضت لها الأضرحة المقدسة في كربلاء والنجف وسامراء، وقتل الخيرة من علماء العراق وخبرائه، إلا أن المرجعية الدينية في النجف الأشرف كانت على وعي تام بهذه المخططات والمؤامرات ومن رواءها وما هي أهدافها، فراحت تخاطب القاتل المغرر به، أنكم لستم أخواناً فحسب، بل أنتم أنفسنا، وهي كلمة لا يقولها إلا من أدرك عظم المؤامرة وأرادة تفنيدها وتفنيد أهدافها وزرع اليأس في قلوب أصحابها، في الوقت الذي تسمع وترى علماء الفتنة في العديد من البلدان العربية بإطلاق فتوى الإرهاب والقتل والتنكيل بالشيعة، وبالأخص شيعة العراق، وتجنيد الالاف من أبنائها لما يسمى بالجهاد في ارض الإسلام ضد الروافض من شيعة أهل البيت (ع)، بل الأدهى من ذلك تسمع الأصوات وترى الشخصيات من علماء أهل السنة من العراق وهم يصطفون جنبا إلى جنب قادة الإرهاب ويهتفون بقتل الروافض والشيعة في ساحات الفتنة ومنصاتها في الأنبار والتكريت والموصل وغيرها من المدن، التي أضحت ساحاتها أبواق ومزامير لأرباب الفتن وقادته، ولكن ذلك لم يغير من موقف المرجعية الدينية العليا، التي أخذت على نفسها أن تقف سداً منيعا وصمام أميناً أمام جميع الفتن، لتفويت الفُرص على أهلها من دعاة الفتنة وطلابها ومن يخطط ويعمل لأجل إثارتها بين مكونات الشعب العراقي، مهما كلف ذلك من الثمن الباهظ، إذ بوأدها وتفنيدها أفضل وانجع من الخوض والوقوع فيها، فعلاج السبب أنجع من علاج المسبَبَ، فبالقضاء على السبب يتعافى المسبب، ثم يشفى منه ولا يعود إليه، هذا هو ما كان نتيجة لفعل المرجعية، إذ بات الشريف من أهل السنة المغرر بهم في السابق يحسدون الشيعة على ما أنعم الله به عليهم من هؤلاء العلماء الأفذاذ من ذي العقول الراجحة، حتى أصبحت أقواله وخطبه وبياناته تصغي إليه الآذان منهم، وأضحى العدو بالأمس مسالماً له يقف إلى جنبه ويعمل بفتواه، كالتي أيقضت ضمائر الجميع (فتوى الجهاد الكفائي) واصطف الجميع للقتال تحت مظلتها والاستشهاد والتطوع والالتحاق بصفوف المجاهدين من ابناء الحشد الشعبي والعشائري، وقام ببذل الغالي والنفيس لأجل الخلاص من عدو الإنسان قبل الدين (دواعش العصر) ربائب مثلث الانتقام امريكا والصهيونية والوهابية، حتى انتهى الأمر بقتل وأخراج جميع الدواعش التي دنست أرض العراق بأفكارها وأفعالها، إذ لم يسلم منها لا النسل والحرث، مكروا ومكر الله والله خير الماكرين، فباءوا بعارها وشنارها، وانتصر الأشراف من العراقيين بجميع مكوناتهم بفضل قيادتهم ومرجعيتهم الدينية الحكيمة، وخرج العراقي مرفوع الرأس يحمل بشائر الانتصار ورسائل السلم والسلام والإسلام للعالم برمته، فلم يكن من موقف يشهد له كموقف الحشد الشعبي، ولا قيادة حكيمة كقيادة المرجع الأعلى في النحف الأشرف في العراق، على الرغم من جميع المخططات والمؤامرات للحد من حركته وتفريق الناس عنه، إلا أنّ حبّه بات في ضمير كل عراقي شريف، يريد الخير ويحبّه لأهله، فجعل الله الخلاص من هذه المؤامرة الكبيرة على يده فشهد له القاصي والداني، ومات العدو بحقده وضغينته، وبقي يتحين الفرص للبحث عن وسيلة أخرى غير المواجهة الميدانية، ولا زال يبحث ويجرب شتى الطرق والأساليب لإيجاد فجوة بين القيادة والمرجعية الدينية وأبناءها من الشرفاء والأصلاء من جميع مكونات الشعب العراقي، بغض الطرف عن دياناتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم الحزبية والطائفية، فالحذر كل الحذر من شيطان يبحث عن مدخل يدخل به مرة أخرى، ليزرع الفرقة والخلاف ويعمل على تأجيج الفتنة بين أبناء هذا المكون والنسيج الواحد بفضل قيادته الحكيمة.

ثالثاً: فض النزاعات والاختلافات العشائرية :

إنّ من بين الكوارث والحوادث المهلكة للحرث والنسل، التي لا تقل خطورة عن كوارث وحوادث التفرقة المذهبية والنزاعات الدينية، هي ما يتعرض له بلد المقدسات في مختلف مناطقه ـ على حد سواء ـ من نزاعات بين العشائر والقبائل العراقية في ظل غياب تطبيق القانون وتحكيمه، من نزاعات واختلافات تنتهي في أغلبها إلى الاقتتال والتهجير ونحو ذلك، فقد باتت العشيرة التي كانت بالأمس مأوى الضيف وصمام أمام الحوادث والنزاعات والحيلولة دون حصولها قبل وصولها إلى حالة الاقتال وزهق الأرواح البرية، عن طريق تفعيل بعض العادات والتقاليد التي اعتادها زعماؤها عليها، كالهدنة وأخذ العطوة، لئلا تتوسع المشكلة وتنحو منحى آخراً، فكانت تحل بالطرق الشرعية والقانونية والعرفية العادلة، ولكن غياب القانون أو تطبيقه والتجاوز على بعض الأعراف والعادات القبلية والعشائرية في الآونة الأخيرة مع امتلاك انواع الأسلحة الفتاكة وسوء استخدامها من البعض، أدى إلى حصول كوارث عظيمة بين مكونات الشعب بطابع عشائري مقيت، إذ إنك تجد العشيرة برمتها تقف الى جنب الفاعل ظالماً كان أم مظلوماً، ممّا أدى إلى حدوث الصراعات والصدامات كثيرة راح ضحيتها عشرات الأبرياء وزهق فيها الأنفس المحترمة، بل تعدى الأمر وتجاوز حدوده العرفية، فلم يسلم ـ كما كان سابقاً ـ من حصول هذه الحوادث العشائرية الأموال والمساكن ونحوها، إذ بدأ البعض بنهب أموال الخصم وحرق بيوته وهدمها وتلف ممتلكاته ونحو هذه الأفاعيل، التي لم ينزل الله فيها من سلطان، وعلى خلاف ما اعتاد عليه في الأعراف السابقة، بل تجاوز ذلك كل القيم والمباديء الانسانية، إذ لم تبق حرمة لمن يريد لهم الصلاح والستر، أعني بمن يتوسط لهم بأخذ الهدنة والعطوة، فقد تجاوز البعض عليهم مستهيناً بجميع القيم والمبادئ الأخلاقية والإنسانية، مستخفاً بجميع ذلك، فيبدو بالغدر والخيانة بعد أن أعطى الأمان والعطوة لبعض العشائر التي سعت لأطفاء الفتنة وأنهاء النزاع والاقتتال، كما أن من صور التجاوز على الأعراف والمبادئ العشائرية المطالبة بأخذ الدية بما يتجاوز حدها الشرعي والقانوني، مما يثقل كاهن العشيرة الأخرى، حتى أذ وصل الأمر الى وقوف رئيس عشيرته بوجه وعدم القبول بذلك، انسلخ عن عشيرته وانفرد بمطالبته دون أدنى احترام للقيم والمبادئ التي تمليها عليه عشيرته وسنن العشائر الأخرى، مصراً على فعله ومطالباً بنفسه دون رضا عشيرته، متنصلاً بذلك عن جميع تلك القيم والمبادئ والأعراف ويقول قولته التي تعارف عليها في المجتمعات العشائرية (أخذ بختي) ظناً منه بأن ذلك من أفعال الرجال وقدرتهم في الظلم، ونسي قدرة الله عليه، ولأن للظالم سيفاً ينتظره، وعندها يستغيث فلا يغاث، ويستصرخ فلا مستصرخ له، ويستنصر فلا ناصر له..

وعلى أية حال فإن ما حصل بعد عام ٢٠٠٣م من مصائب وحوادث وكوارث نتيجة النزاعات العشائرية والاصتدامات بينها ما لا تحمد عقابه، ومنها ما يندى الجبين لها، لخستها وخسة فاعلها، غير أن هذا لا يعني أن المرجعية الدينية غائبة أو بعيدة عن هذه الحوادث، ولم يكن لها موقف إزاءها، بل بادرت المرجعية الدينية من خلال خطبها في الجمعة، وبياناتها الموجهة، وسفراءها المرسلة إلى رؤساء العشائر، بتصحيح المسار والعمل وفق الموازين الشرعية والحفاظ عليها، لأن العشائر تمثل في نهجها وتشيعها خط أهل البيت (عليهم السلام) ، فهم الأولى في العمل بمنهج أئمتهم (عليهم السلام) وهم من دافعوا عن الدين والمقدسات وقارعوا الظلم والظالمين وطهروا البلد من دنس الدواعش والمحتلين من قوى الاستكبار العالمي على مر التأريخ، ولهم من المواقف المشرفة في الأخذ والعمل بفتوى المرجعية الدينية في النجف

الأشرف، فبدأت المرجعية تخاطبهم خطاب الأب الروحي لابنه المشفق عليه، فالتزم البعض وأخذ بقولها وتردد البعض من مشاكلها العويصة، من خلال إرسال وفود خاصة من قبلها لفض نزاعاتها المستعصية على فضها وانهائها من قبل سائر العشائر الأخرى، وعجز عنها قانون الدولة ورجالها، فلم تقف المرجعية الدينية إزاء هذه الحوادث العصيبة موقف المتفرج عليها، وهذا هو دأب المرجعية العليا كما عهدنا في زمننا الحاضر وحاجة المجتمع إليها.

رابعاً: رعاية المؤسسات الاجتماعية والخدمية والصحية :

هناك عدة مؤسسات خدمية واجتماعية ظهرت بعد عام ٢٠٠٣م كان للمرجعية دور كبير في ايجادها من قبيل مؤسسة العين لرعاية الايتام ورعاية الفقراء والمحتاجين للعلاج ممن ليس لدية قدرة على مواصلة العلاج أو اجراء بعض العمليات الجراحية الكبرى وعمليات النظر ونحوها، فلم يكن للمرجعيات السابقة دوراً بارزاً كهذا الدور الذي قامت به مرجعية السيد علي السيستاني (دام ظله الوراف) بعد عام ٢٠٠٣م، نتيجة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يمر بها بلد المقدسات العراق، مما دعى بها إلى الإشراف الخاص لمتابعة عمل هذه المؤسسات الخدمية والاجتماعية ، وذلك من خلال تشكيل لجان خاصّة تعمل تحت اشرافها ووفق توجيهاتها وارشاداتها الابوية.

علاوة على هذا قامت بالإشراف على البرامج والخدمات التي تقوم بها العتبات المقدسة، وعلى وجه الخصوص العتبتين الحسينية والعباسية في كربلاء من مشاريع اجتماعية وخدمية واقتصادية كبيرة ساهمت بشكل كبير في توفير وسائل الراحة للزائرين، كالمدن الزائرين التي أقيمت لهذا الأمر، والمستشفيات ومراكز الصحة ودور الضيافة ونحوها، إذ لم يكن قبل عام ٢٠٠٣م أي دور للعتبتين المقدستين في تأمين وتوفير مثل هذه الخدمات الكبيرة.

خامساً: دعمها للتكافل الاجتماعي :

لقد تجلى هذا الأمر عندما سمحت المرجعية بالاذن في صرف اموال الخمس لدى المؤمنين على فقراء العراق والمحتاجين وسائر وجوه البر، دون ان تقوم باستلام هذه الاموال من ثم القيام بتوزيعها بحسب ما تراه من وجوه البر، بل كان ذلك العمل خطوة نحو التكافل الاجتماعي بين ابناء البلد الواحد، وقد ساهم بدور كبير في معالجة العديد من مشاكل الفقر وسد الاحتياج لدى الفقراء والمساكين، بل وشجع ذو المال على اخراج حق الخمس من اموالهم ، لانهم يرون ذلك خطوة نحو الاصلاح وطهارة النفوس والاموال، دون ان تراودهم ادنى الشكوك ووساوس الشيطان.

الخاتمة

النتائج والمقترحات

أولا: النتائج النهائية :

لقد توصلنا إلى مجموعة من النتائج الكلية، نذكر منها:

١. إنّ المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف بعد عام (٢٠٠٣م) لم تكن بعيدة عما جري ويجري في العراق بعد الإطاحة بنظام الحكم البعثي الطاغي آنذاك، دون أن يكون لها أيّ دور كبير وبارز إزاء ما يحدث في العراق، بل كانت مع الأحداث قلباً وقالباً.
٢. إنّ موقفها إزاء الأحداث التي جرت في العراق بعد عام (٢٠٠٣) لم تشهده سائر المرجعيات الأخرى في بلدان العالم الثالث عند حصول مثل هذه الانقلابات والتغييرات في الحكم.
٣. إنّ مسؤوليتها كانت كبيرة وعظيمة توزعت على مختلف المجالات الحياتية، وهي بذلك صمام الأمان لهذا البلد الجريح، وتسجل موقفاً مشرفاً يضاف إلى مواقفها المشرفة في التاريخ الإسلامي لمرجعيات مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، بل يعدّ تحولاً جديداً في مسارها ومسؤوليتها الدينية والاجتماعية متحدية بذلك جميع الخطط والاستراتيجيات العدائية للعراق بجميع أطيافه وطوائفه وعلى مختلف الأصعدة الحياتية، هذا من جانب.
٤. لقد أزالت الستار عن وجه العمل الديني ومسؤوليته الإلهية ازاء التحديات والمواقف العدائية والاحداث الاجتماعية والسياسية، وبذلك فتحت أفقاً جديداً لمن يتصدى للمرجعية الدينية العليا، وفيما عدا ذلك لا يستحق التمثيل والمسؤولية الدينية الكبيرة ازاء الجميع.

ثانياً: المقترحات والتوصيات :

١. نرى أنَّه من الواجب الإنساني والوطني والديني أن نقف جنباً الى جنب المرجعية الدينية العليا في مواجهتها للهجمة العدائية التي تحاوت فصل الأمة عنها، والتقليل من أهميتها ودورها السياسي والاجتماعي، وذلك من خلال التعريف والتشييد بمنجزاتها ومعطياتها ومواقفها ضد المخططات الاستعمارية للدول الاستكبارية ومن يقف معها من دول الأخرى بهدف ضرب وحدة العراق وتدميره ونهب خيراته ورزع التفرقة بين مكوناته المختلفة.
٢. ربط الأمة بمرجعيتها وبالأخص الطبقة الشبابية المثقفة، من خلال إقامة المؤتمرات والندوات والأنشطة الثقافية بما يرتبط بتعريفهم بأهمية المرجعية الدينية ودورها.

فهرست المصادر

القرآن الكريم
١. ابن فارس، جعفر بن احمد ، مجمع المقاييس في اللغة، نشر المكتب الاعلام الاسلامي ١٤٠٤هـ.
٢. ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، باب السين، نشر ادب الحوزة، قم، ١٤٠٥ هـ.
٣. ابن نجيم، البحر الرائق، كتاب الحدود، نشر دار الكتب العلمية بيروت ، ١٩٩٧م.
٤. أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤١٢هـ.
٥. البدران، ضياء، مجموعة مقالات الثورة الإسلامية والمتغير الدولي، كيهان العربي شعبان ١٩٩٥م/ ١٤١٤هـ.
٦. البغدادي الحنبلي، علي بن عقيل، كتاب الفنون، در الفكر،بيروت.
٧. البغدادي، عمار، مبادئ الدولة والقيادة لدى مراجع الحوزة العلمية مقاربة في رؤى الخميني ـ النائيني ـ الصدر ـ السيستاني.
٨. بهشتي، د. أحمد، فلسفة دين [فارسي]، دار الكتب الاسلامية ، طهران.
٩. الجزولي، د. محمد بن علي اليولو "إصلاح المجتمع"، www.alquatan.org، اطّلع عليه بتاريخ ٣/٥/ ٢٠١٨.
١٠. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح: تحقيق د. إميل بديع يعقوب.
١١. الجوهري، د. محمد المدخل إلى علم الاجتماع، طبعة بيروت.
١٢. الحائري، كاظم، المرجعية والقيادة، نشر مكتب اية الله العظمى السيد كاظم الحائري، قم.
١٣. حسن عبد الرازق منصور، بناء الإنسان الطبعة الثانية / ٢٠١٣، عمان- الأدرن: أمواج للنشر والتوزيع.
١٤. الحكيم، محمد باقر، موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية، طبعة قم.
١٥. الحوفي، احمد محمد، أدب السياسة ، طبعة بيروت.
١٦. الخفاف، حامد، النصوص الصادرة عن سماحة السيد السيستاني في المسألة العراقية .
١٧. خلاف، عبد الوهاب، كتاب السياسة الشرعية.
١٨. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد ، معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة رجع .
١٩. رايموندي، كارفيلد، العلوم السياسية، طبعة مصر.
٢٠. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
٢١. السيد سلمان، حيدر نزار، سلطة النصّ الديني وبناء الدولة السيد السيستاني أُنموذجاً
٢٢. السيد سلمان، حيدر نزار، فكرة الديمقراطية عند المرجعية الدينية في النجف الأشرف، بحث منشور في كتاب إشكاليات التحوّل الديمقراطي في العراق.
٢٣. الطوسي، محمد بن الحسن، الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد ، دار الفكر بيروت.
٢٤. الظالمي، صالح، المرجعية والمواقف الصريحة السيد السيستاني أُنموذجاً، بحث منشور في مجلة آفاق نجفية، العدد الثاني، ٢٠٠٦م .
٢٥. عبد الرزاق، صلاح، المرجعية الدينية في العراق والانتخابات البرلمانية وتعزيز الوحدة الوطنية .
٢٦. الفراهيدي، الخليل بن احمد، العين، تحقيق مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، تنقيح اسعد الطيب.

٢٧. الفيومي، احمد بن محمد بن علي، المصباح المنير، دار الهجرة، قم، ١٤١٤هـ.
٢٨. مقابلة مع السيد محمد رضا السيستاني نجل المرجع علي السيستاني، جريدة الحياة: العدد ١٤٦٣٤)، ٢٠٠٣/٤/١٨م.
٢٩.موقع: " تعريف و معنى مجتمع في معجم المعاني الجامع"، www.almaany.com، اطّلع عليه بتاريخ ٣/٥/ ٢٠١٨.
٣٠. النبراوي، خديجة، حقوق الإنسان في الإسلام، طبعة بيروتـ الطبعة الاولى.

تشكيلات الأنا والآخر في الشعر النسوي العراقي المعاصر ديوان "أندلسيات لجروح العراق " لبشرى البستاني... مثالاً".

الأستاذ الدكتور مُحمّد عويّد مُحمّد السّاير
كلية التربية الأساسية / جامعة الأنبار

***المدخل: مفاهيم الدراسات ومصطلحاتها:**

١. **التشكيل:** يُفيدنا المعجم اللغوي بأن كلمة الشكل هي " شكّل تشكيل لا شيء يصور، وشكله: صوره، وأشكل الأمر: ألتبس، وأمور أشكال ملتبسة وبعضهم أشكله"[١].

وبناءً على هذا المفهوم، يعدُّ الشكل " الصورة اللفظية المنطوقة أو المكتوبة على مستوى كل جزءٍ من الأجزاء التحليلية للتعبير الكلامي، أو على مستوى التعبير الكلامي "[٢]، ويتضمن الشكل خواصاً مشتركة مع كل الجملُ والصيغ اللغوية والنحوية التي تساهم في معرفة ذلك التعبير الكلامي[٣]، وهذه المساهمة هي التي ترسم صورة التعبير، ومن ثمّ صورة النص، وما يريده المبدع من أفكار ومعانٍ وصور أحسّ بها، وأراد نقلها إلى القارئ والمتلقي.

ومصطلح الشكل قديمٌ في الاستعمال والدلالات، أُستعمل في الفلسفة القديمة[٤]، وغاية هذا الاستعمال هو ربط الشكل بالجمال، وأن يدركَ من قبل العقل، ويفهم من جرّاء العاطفة.

وللشكل وماهيته قيمة كبيرة في الجنس الأدبي الإبداعي، إذ هو محاولة براد بها خلق الأشكال السارة لمعبرة عن ذات (المبدع)[٥]، وهو القالب أو البنية أو الصورة أو المنظومة أو الصياغة، التي ترافق ذلك الخلق، وترسم دلالته في النص والتعبير[٦].

وأما وظيفة التشكيل فهي كامنة في " بعث الروح الجمالية فيما هو غير جمالي أصلاً، حيث تكشف طريقة العمل النسيجي الداخلي لفعاليات التشكيل عن رؤية جمالية وظيفية لا يمكن للنص أن يحصل عليها من دون حضور أصيل لنص الشكل في مراحل إنتاج النص"[٧].

ومصطلح التشكيل دخل غريباً إلى النص الأدبي، ولاسيما النص الأدبي الحديث في الشعر والنثر، والسرد والرواية. إذ طار هذا المصطلح من الفنون الجميلة، ومن مهام الرسم إلى الأدب. وهو المصطلح الذي يهيئ فعالية التداخل الحقيقية بين الرسم وبين النص الأدبي، ويشكّل البعد الدلالي الواضح الذي يدُلّ على الحالة الشعورية لمنتج ذلك النص[٨]،ومن هنا يبرز دور مصطلح التشكيل في ترتيب العلاقة بين القارئ والنص، وكشف موطن الجمال والتأثير في ضوء هذه

---

(١) لسان العرب (مادة: شكل): ٣٥٧/١١.

(٢) أقسم الكلام العربي" من حيث الشكل والوظيفة" : ١٨٠.

(٣) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص: ١٧٥.

(٤) ينظر: م. ن. : ١٨٠.

(٥) ينظر: نظرية الأدب:٣١٨.

(٦) ينظر: مناهج الدراسة الأدبية الحديثة:١٩٤.

(٧) التشكيل النصي: الشعري، السردي، السير الذاتي:١٩٦.

(٨) ينظر: م. ن. : ١٩٦.

العلاقة[١]،ومن هنا كان مصطلح التشكيل أحد العناصر الأساسية في تكوين الخطاب الأدبي بمتنه النصي، ولابد من إدراكه وفهمه وتحليله إذا أردنا فحص ذلك الخطاب في مجاله النصي، وبعده الدلالي، وتأثيره الجمالي[٢].

وفي دراستي هذا يتعالق التشكيل، الوظيفة والقيمة الفنية الجمالية مع الذات في تصوير الآخر، ورسم تشكيلاته المختلفة كما تريدها الشاعرة بشرى البستاني، وكما هو واضح في نصوصها الشعرية في ديوانها " أندلسيات لجروح العراق". هذا العنوان يدلُّ تشكيلاً ورسماً على دلالات كثيرة ظاهرها الحزن والبكاء والألم والمرارة، وظاهرها المثاقفة في الرسم مع الأندلس، المكان الحضري التاريخي العربي المفقود، وباطنها الآخر الذي يسبب ذلك الحزن وذلك الألم وذلك البكاء وتلك المرارة، وباطنها الآخر الذي سبب ضياع ذلك البلد الجميل، والصقع البهي، ومازال يتسبب في ضياع المزيد من البلدان والأوطان في كل مكان والتشكيل في نصوص الشاعرة بشرى البستاني في ديوانها " أندلسيات لجروح العراق"، يرمز إلى الذات (الأنا)، وإلى الآخر بأشكاله التي جاءت في هذه الدراسة.

لقد حاولت محاورة النص محاورة نقدية جمالية تكشف عن عمق وهذا الرسم هذا التشكيل عند الشاعرة لبستاني في ديوانها هذا، واستفدت من تطبيقات مناهج الدرس النقدي المعاصر، ولاسيما البنيوي، ببعض الخطابات، وبعض الرسم مع النص، إذ رأيتها مهمة إلى حدٍّ ما في كشف دلالات النص، وفتق مكنون المشاعر عند الذات (الشاعرة)، وهي تعبّر عن نفسها، وترسم الآخر جمالياً وفنياً وشعورياً، وتقدمّه إلى القارئ كما عرفته، وما احسّت به في نفسها، ونصّها، ولوحات ذلك النص، وقيمة ذلك النص في البناء، والتعبير عن كنه المشاعر التي تختلج الذات وهي تبدع، وتكتب، وتنظم، وهذه هي وظيفة النص الأدبي، وهذه هي وظيفة التشكيل والرسم... أيضاً.

٢. **الأنا ← الذات:** جاء في المعجم الوسيط أن الذات هي: " النفس والشخص، يقال في الأدب نقد ذاتي يرجع إلى ذات الشخص وانفعالاته "[٣]،وتلعب دلالة الأنا ← الذات، لعبة دلالية مفاهيمية ذات رؤية تختلف باختلاف النص، أو بأختلاف وجهة الناقد أو الدارس وفلسفته، وثقافته المعرفية، والفكرية. ومن هنا فمصطلح الأنا، أو الذات " مصطلح مراوغ يستعصي على التعريف والحد الاصطلاحي لأنه يدخل في مشاركة كبيرة في أغلب الفروع الإنسانية مثل: (الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلوم العربية... ألخ)[٤]، وأمّا في الاصطلاح فالذات ← الأنا، هي الانبعاث النفسي لوجود الذات الذي يحدده شخص ما، أو يرسم مشاعرها تجاه هذا الانبعاث حدث ما، ويحكي هذا الرسم الانطباعات الذاتية التي تقع على الأنا، وكيف بإمكانها نقل هذه الانطباعات إلى الآخرين على سبيل البوح عن المشاعر، أو من باب المشاركة الكبرى مع ذلك الآخر، في هذه المشاعر مهما كانت حزناً أو فرحاً، سلباً أو إيجاباً.

إن التركيز على مفهوم الذات وكنه مشاعرها، هو الطريق المُعبّد الواضح الذي يوصل إلى فكّ رموز النص الأدبي الشعري، وفهم دلالاته. إن الذات المبدعة لتعيش صراعها مع الذات المبدعة في سبيل إنتاج النص الأدبي الشعري، وهي بهذا الصراع تعبّر عن مشاعرها، وتشكّل

(١) ينظر: م. ن. : ١٦٣-١٦٤.

(٢) ينظر: التشكيل النصي: الشعري، السردي، السير الذاتي: ١٦٨.

(٣) المعجم الوسيط: (مادة: ذات): ٣٠٧/١.

(٤) الأنا في الشعر الصوفي (ابن الفارض أنموذجاً): ١٨٧.

الآخر الذي يساهم اسهامة حقيقية كبيرة في هذ التعبير، ويترك النص في وجهته الصحيحة السليمة في الدلالة والتعبير. ومن هنا فالذات هي "الوجه العميق الذي يتطلب اكتشاف بعض ملامحها وسماتها الباطنية مجهوداً معرفياً وجمالياً، وتجربة حياتية صميمة متجذرة في تربة الواقع ومتواشجة مع هموم البسطاء وانشغالاتهم وعذاباتهم"[١]، ولعلّ هذا الوجه، وهذ الاكتشاف هو ما نريده من دراستنا هذا في تشكيل هذه الذات وملامحها وسماتها، وقيم أدائها الفنية والجميلة من خلال الآخر، وتأثيره عليها وعلى هذه القيم في نصّها الشعري.

٣. **الآخر:** يتولّد الآخر في المعاجم العربية على كثير من المصطلحات اللغوية والفلسفية والنفسية التي ترتبط دلالة وبناءً مع هذا المصطلح الواسع والكبير في الدراسة والتعريف، فهو في معجم العين: " هذا آخر، وهذه أُخرى،....، والآخر الغائب، وأمّا جماعة أُخرى ".[٢]، وأما في الصحاح فقد جاء بمعناه اللغوي الذي هو : " الآخر بالفتح أحد الشيئين، وهو اسم على أفعل، والأنثى أُخرى، وأخرَ جمع أُخرى، وأخرى: تأنيث أخرَ...".[٣]، وأما ما ورد في اللسان[٤]، فهو لا يخرج عمّا قدمنا فيه القول من المعاجم اللغوية العربية التي سبقت صاحبه، في المعني والدلالة.

وفي الاصطلاح، فلا بُد لنا أن ندرك أن الحديث عن الآخر هو الحديث عن أنا أُخرى لها منظور تعريفي تطبيقي من خلال الأنا الأولى"، "الذات المبدعة". فالآخر هو " جزءٌ من الذات، وإن نفيه فيه بترٌ للذات... على الرغم من أنه ضروري لاكتشافها، وإن تصور الذات لا ينفصل عن تصور الآخر" [٥]، ومن هنا فإن الذات هي التي تبني مفهوم الآخر، أو بمعنىً مغاير تقريباً، إن الذات هي التي ترسم تشكيلات الأنا تجاه الآخر، وتساهم في تقديم صورة الآخر إلى المتلقي والقارئ والجمهور. وبناءً على هذا المفهوم ترتبط الذات ← الأنا، بروابط أساسية جدلية مع الآخر، الذي يمتاز من خلال هذا الترابط بالتنوع في العلاقة، والشمول في الفهم، فالآخر قد يكون القرابة، أو الصداقة أو الجوار، أو المنافسة والخصومة والعداء، وهذا التنوع في العلائق بين الذات والآخر هو الذي يحدد دلالات النص ومشاعر المبدع، ويقصُّ علينا طبيعة العلاقات بين الأنا (الذات ← الداخل)، وبين الآخر(الخارج ←التأثيري)، على صعيد الوعي أو في حقل السلوك والفعل[٦] . فالآخر "المطروح في السجالات والندوات هو الآخر في الهوية، والآخر في الحمولة الايدلوجية، والآخر في الدين، والآخر في الموقف السياسي، والآخر في الذوق النفسي، والآخر في المدرسة النقدية، والآخر في النهج المعرفي، والآخر في الجنس، والآخر في اللون"[٧].

تشكيلات الأنا والآخر في ديوان "أندلسيات لجروح العراق" :

أ. الأنا (الذات) ...الآخر (الرجل).

(١) الصورة الشعرية وأسئلة الذات:٩٨.

(٢) العين: (مادة: أخر): ٣٣/١.

(٣) الصحاح في اللغة والعلوم:(مادة: أخر): ١٢/١.

(٤) لسان العرب: (مادة: أخر): ٣٣/٣-٣٤. وينظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم: ٢٨/١.

(٥) صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه: ٢٢.

(٦) ينظر: في معرفة الآخر:٥.

(٧) صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه: ١١١.

لا شكّ في أن هذه العلاقة هي أول العلائق التي تربط بين بني البشر، علاقة المرأة بالرجل، وعلاقة الرجل بالمرأة. هذه العلاقة السردية الأزلية التي شاعت وعُرفت منذ سيدنا آدم (عليه السلام)، والسيدة حوّاء وإلى يومنا هذا. تشوبها الكدر أحياناً، والخصام أحياناً أُخرى، والانتقام حيناً ثالثاً، إلّا إنّ جوهرها الحب، وأصلها الوئام، وفراقها الندم والحسرة والبكاء. ولا أدلّ على غرض الغزل في ذلك تبياناً وتوضيحاً، ولا أكبر من الرثاء لأحد الشخصين حين يموت، والشعر العربي كفيلٌ بذلك وهو به زعيم في كل عصر ومصر.

وهكذا إلى عصرنا اليوم، والحديث عنها عن الشواعر والكواتب العربيات والعراقيات على وجه التحديد، بقي الرجل المثير لعواطف المرأة حباً أو كرهاً، سلباً أو إيجاباً، بُعداً أو قرباً. ولكل نوع من هذه العواطف مثيرات، ودوافع، كما إن لكل نوع من هذه الأنواع تأثيرات وتبعات تركت بصمتها على الذات وأدبها، ونصوصها الشعرية والنثرية والسردية. ومن ذلك ما رأيته في ديوان الشاعرة بشرى البستاني " أندلسيات لجروح العراق"، تبعات وتجليات وتأثيرات جمة لهذا الآخر←الرجل، وتشكيلات متنوعة للأنا، تعكس مشاعر الذات، وأزماتها النفسية المتشنجة وهي تبوح بها من خلال النص الأدبي الشعري.

في النص الشعري الأول الذي يحمل عنوان الديوان " أندلسيات لجروح العراق"، تبدو صورة الآخر← الرجل عند الشاعرة في إحدى لوحات النص، في آخر هذه اللوحة. وتُظهر الأنا مزيداً من الجراح، ومزيداً من البكاء، ومزيداً من الألم من خلال الألفاظ والتراكيب اللغة الشعرية، ومن خلال الصورة التي ترسمها هذه الألفاظ، وهذه التراكيب للذات. وما ذلك إلّا بوجود المحتل، البغيض، الذي ملّ منه الناس في وطنها، وهم يشاهدونه كل يوم بسلاحه المدجج، والمكره الذي لا يوصف. تقول:

دباباتُ الغزوِ تدورُ
يحاصرُها الغَيمُ
وتُربكها الريحُ
غبارُ الصحراءِ المجروحُ يُعاودُ ذبحي
كفني ثوبُ الجبل الفضيِّ
خفيفُ الصفافْ
سدري
تنشقُّ الأرضُ عن الشارةِ
تعطيني وهجَ الزنبقِ في عزّ الظهرِ
وأعطيها قمري..
يتلألأ فوقَ غلائلِ عمري
دمُكَ الياقوتيُّ
أكفُّكَ كانتْ وسط هدير الدباباتِ
تلامسُ خَصري؟![1].

تنظر إلى هذه الذات الباكية المتأزمة المتألمة بفعل هذا الضيف الحقود الظلوم. الأماكن لا تطيق هذه المشاعر، فترفض أن تكون أليفة مأنوسة محببة، لا بل هي مذبوحة، مجروحة، يزينها الدم، وترسم روحها الأغلال التي تعيش فيها كل يوم.

(١) أندلسيات لجروح العراق: ١١٦-١١٧.

أما هو الآخر← الرجل، فيتضح محبوباً، قمراً، يتلألأ في آخر اللوحة، وهو أكفّه، بالجمع للدلة على القوة والإقدام وسط الدبابات، يلامس هذاك الخصر الناحل، انحله الزمن، وجنى عليه الأعداء بلا ذنب.

الرجل هنا هو المحبوب الذي تجد فيه الذات منقذاً، ومخلصاً من هذا العدو الدائر، ومن دباباته التي تقتل وتقتل بلا سحاب. هنا الصورة للآخر ← الرجل، صورة متخيلة ترسمها الذات المتألمة. وهذا وبدن المرأة العربية حين ترى في الرجل، البطل المخلص، والبطل المنقذ، من كل الظروف التي تمّر بها، وبمكانها.

والشاعرة لا تنسى أن تسبغ على هذا البطل بعضاً من سمات العذاب، ومن مظاهر الألم، فتقول فيه:

دمُك الياقوتيُّ

وفيه مع العدو ← السلاح والمكان:

أكفُّكَ كانتْ وسط هدير الدباباتِ
تلامسُ خَصري؟!

الأمكنة من خلال السلاح الدفاعي وبالجمع (الدبابات)، وحركتها (الهدير)، الألوان الدم والياقوت، رسمت صورة الآخر الرجل في هذه اللوحة، أما الأنا فبقيت تحنُّ إلى هذا القمر ← الرجل (الآخر). الذي لن يأتي إلّا مع اكتمال نصابه الشرعي والفلكي، وهو لن يأتي إلّا في صورة رجل، أو كأنه الرجل ، لما تراه هذه الأنا من أهوال ومصائب ومصاعب في بلدها المحتل السليب بلا ذنب. وتستمر صورة هذا الآخر← الرجل، وهذه الأنا←الملتاعة المتأزمة النحيبة في اللوحة التي تأتي بعد هذه اللوحة مباشرة في هذ النص، وفيها تبقى هذه الأنا تعاني من هذا العدو الغاشم وما يفعله في البلاد والعباد، وتبقى الشاعرة والأديبة بشرى البستاني على استنطاق الأمكنة الطبيعية بصورة خاصة، وعلى استنطاق الزمان ولاسيما لفصل الشتاء الذي تتوافر فيه تلك الأمكنة. وهناك رسم مكثف بالألوان لتلكم الأمكنة وما فيها من حركة للطيور، و ما فيها من تشكيل لبعض الفاكهة التي تأتي عرضاً لتذكر القارئ دائماً ببلد النخيل والتمر والرطب، وبما يحدث فيه كل يوم. تقول:

دباباتُ الحقدِ تدورُ
قميصُ حبيبي في أعلى الدبابةِ
أعدو خلفَ عبيرِ العَرَقِ المُتصبَّبِ من كتفيهِ
وراءَ عناقيدِ الرطب المصلوبِ على عينيهِ
حبيبي يركضُ خلف رُواقٍ أخضرَ
خلفَ شتاءٍ صهوتُهُ الحبُّ
وصبوتَهُ الطيرُ الواكنُ في العشِّ
حبيبي يحملُ وسطَ عويلِ الريحْ
أورادَ الأرضِ
وحكمةَ رّبانٍ مجروحْ ...[1].

هنا أبقت الذات على مشاعرها وعلائقها تُجاه هذا الرجل ←الآخر، ونعتته بالحبيب، وكررت هذا الوصف... حبيبي أكثر من مرة واحدة في هذه اللوحة. وبعدها أي بعد اللفظة

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق: ١١٧-١١٨.

المكررة يأتي الفعل المضارع الذي يدلُّ على الفعل والاستمرارية فيه، وهذا ما تريده الشاعرة من رسم صورتها الحركية المستمرة لهذا الرجل، وهذا الحبيب، الأمكنة بقت طبيعية فيها مظاهر الحركة، الريح وعويلها، الطير والعشّ، الشتاء وصهوة الحبّ، وهذا يتوافق بنائياً ودلالياً مع الأفعال المضارعة التي شاعت في اللوحة، ومع ما تريده الشاعرة من جعل الحياة مستمرة، تدور بشكل انسيابي نحو المستقبل من خلال هذا الرجل ← الآخر، ومن خلال هذه الأمكنة وما فيها من حركات، وما تقوم بها شخوصها من أفعال تدل على الحركة والعمل. هي نفسها تقول عن ذاتها:

أعدو خلفَ عبيرِ العرقِ المُتصّببِ من كتفيهِ
وراءَ عناقيد الرطبِ المصلوبِ عــلى عينيهِ

"العرق المتصبب"، هنا كناية عن التعب من ذلك العدو والجري، عناقيد الرطب المصلوب، تذكرنا بموتٍ بطيء، وبمأساة المصلوب، نشمُّ رائحة التناص الديني مع حادثة الصلب للسيد المسيح – عليه السلام-، وما تثيره تلك الحادثة ولو وهماً، بكل معاني المأساة، وتفاصيل المصائب. هذي هي تشكيلات الأنا والآخر في هذه اللوحة في نص الشاعر بشرى البستاني، إنها تشكيلات رُسمت بدقة من خلال اللغة الشعرية، والصورة ولاسيما في الكناية واللون، لتعطي صورة لآخر الرجل←الحبيب، الذي أبقت فيه شاعرتنا على مشاعر المحبة والتفاؤل، علّها تخرج من واقع مظلم تعيش فيه، ويعيش فيه بلدها وشعبها ومدينتها وجامعتها، وكل ما يدور حولها، كما تدور تلك الدبابات المشؤمة بصوتها الثقيل الذي ينذر بكل معاني التدمير والقتل والإبادة.

وفي لوحة أُخرى من لوحات هذه النص الشعري الذي يبدو طويلاً نسبياً مع باقي النصوص الشعرية التي نظمتها الشاعرة بشرى البستاني في ديوانها هذا، أم في غيره من الدواوين الشعرية، تبدو صورة الرجل بادية من خلال الموروث الثقافي في صورة الرجل العالمي، وما كان عليه من إبداع، وما اشتهر به أعمال بقيت حكاية الأجيال تلو الأجيال، ومثار الفخر والاعتزاز في كل مكان وزمان، مُذ نُشرت وأُشتهرت. صورة الرجل بيكاسو، بابلو بيكاسو، ولوحته الشهيرة (غرينكا) التي تدلُّ على قصف الطائرات المعادية لبدله وشعبه الإسباني المظلوم، بقصد الترويح والاستفزاز لأهالي البلد، وبقصد التدمير والتخريب لهذا البلد الآمن المسالم آنذاك، كانت في هذه اللوحة التي تدلُّ على ثقافة واسعة وتعالق نصي مع هذا الفن التشكيلي الرائع ومع تلك اللوحة ما إن سمعنا بها، حتى أثارت فينا الحقد لهذا العدو، ولأي عدوّ نسمع به، أو نقرأ عنه. هنا تشكيلات الأنا والآخر رُسمت من خلال هذا الرجل، وهو هنا الرجل المبدع المثقف المنافح عن قضيته، وقضية شعبه بإبداعه، وما فتح الله عليه من موهبة بقيت أسطورة الناس لسنين وسنين. الرجل هنا ولوحته، رسما مشاعر الذات ←الأنا، ويكأنّ الشاعرة بشرى البستاني تستدعي هذا الرجل، وتقف بإجلالٍ واحترام أمام إبداعه ليرسم بغداد من جديد، بغداد مع هذا الظلام، ومع هذه الحرية المزيفة، ومع هذا القزم الذي يقتل ويدمر.

ولا تقف الشاعرة بشرى البستاني على التعالق الثقافي مع هذا الرجل وحرفته، وإنما تستنطق تراثها لثقافي والتاريخي وما عُرف في بلدها من موحيات هذه الثقافة، وذاك التاريخ. "بغداد" المكان، الحضارة، التاريخ. هي نقطة التحول في اللوحة إلى الأمكنة التاريخية، وما فيها من تراث، وبطولات، وحضارات. بغداد، تستدعي آشور وسومر، وتبكي معهما بحزن يدمي القلب، ويُوجع الضمير. تقول الشاعرة:

بيكاسو يرسمُ جرنيكا أخرى...
يرسمُ بغدادَ طريحةَ أقدامِ الغوغاءْ
والحرية عوذْ

يعرفهُ القزمُ المؤودْ
ألواحُ متاحفِ بغدادَ بكفِّ الريحْ...
والثورُ الآشوريُّ الباسمُ مرتعبٌ
غادرَ مرتبكاً
وبكى....
في أركان المتحفِ والمنعطفاتْ
كانت قيثاراتْ
سومرَ تغرفُ لحن الحزنْ[١].

الأمكنة هنا تاريخية بإمتياز، وهي من ماضي بلد الشاعر وتاريخها العبق. التعالق الثقافي للمكان وضح في اشطر كثيرة في اللوحة الشعرية، كانت بغداد هي الملهمة الحقيقية والطبيعية لهذا التعالق.

أما الرجل "بيكاسو"، وفنه وإبداعه، فهو الذي رسم صورة الأنا، وهو الآخر المبدع المثقف الوطني، الذي يحب بلده، ويحب الدفاع عنه، برسم صورة الأعداء القبيحة... هو ما تبحث عنه الأنا ← الشاعرة، وهو ما تريد أن تصل به إلى المثقفين المبدعين الرجال من أهل بلدها وبلدتها، ليكونوا كذلك الرجل الإسباني المبدع والفنان، الذي سخّر فنه وإبداعه لوطنه في أصعب الظروف، وأكبر الأزمات.

وأما في نصّها الشعري الآخر الذي نقف عليه لنعرف تشكيلات الأنا والآخر (الرجل)، في ديوان " أندلسيات لجروح العراق"، فهو نصّها المعنون " ما روته دجلة للبحر". وهذا النص ينماز بالصور المكررة المتولدة عن الصورة الرئيسة والأولى في كل لوحة من لوحاته. النص الشعري المدونة الكلامية والإيقاعية هنا ترسم الذات في أبهى الأماكن، وأجمل الأماكن، كيف لا وقد طرح العنوان الامكنة الرومانسية الجميلة، والمبهجة في " دجلة والبحر"؟! ولا تنسى الشاعرة والأديبة بشرى البستاني دائماً أن تذكّر بمآساة بلدها، فتطغى على النص – على الرغم من رومانسيته وجمال أمكنته ودلالاتها-، الأماكن المعادية، والألفاظ التي تدلُّ على القتل، وتشير إلى العداء، تبعاً لهذا القادم من البعيد، المُستوطِن في مكان لا يصحُّ أن يكون فيه، وفي شعب لا يرضى أن يكون محتلاً ، أو مستعبداً... مهما كان العدو. الآخر الرجل، انتشر هنا وهناك بين لوحات هذا النص، حبيبي سرّ كنه الذات←الأنا عند الشاعرة، هنا الذات هي التي تفدي بروحها وشخصها هذ الحبيب، كما تقول الشاعرة في إحدى اللوحات من هذا النص:

حَبيبي على قدرِ بهجةِ حُبكِّ أشعلُ عمري
وافتحُ في الكلماتِ حدائقْ
أُفصّلُ منها القصائدْ...
وأَزرعُ فيها يماماً عصيّاً
وحُزناً بهياً
ونخلاً لا يقاوم...[٢]،

الذات هنا ترسم نفسها أولاً وأخيراً بهذا العنفوان الرجولي الكبير، الذي يأبى الضيم ولا يسكتُ على الظلم. الأفعال: (افتحُ، أُفصّلُ، أزرعُ)، في بدء الأشطر جعل اللوحة في حركة

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١٢١-١٢٢.

(٢) ينظر: أندلسيات لجروح العراق: ١٣٩-١٤٠.

مستمرة، ورسم مشاعر هذه المرأة وما تريد وهي تقاوم، وتقاوم كلما أنشدت شعراً، أو نظمت قصيدة، أو زرعت... أما الآخر← الرجل، فبرز في الشطر الأول، وابتدأ بحبيبي، الذي افتدته الشاعرة بعمرها، الذي يمتز بالعمل والجدة والحركة، كما بيّنته باقيّ الأشطر، وكما أسلفت في الحديث.

في لوحة أُخرى من هذا النص، تفصّل الأنا الحديث عن الجزئيات في هذا الحبّ لهذا الآخر←الرجل. بغداد تبقى الملهمة الحقيقية لمشاعر الشاعرة، ويبدو أنها كذلك مع الجميع، من شعراء ومؤرخين ودارسين في عصرنا الراهن. الأنا هنا ترسم الرجل من خلال الحبّ، ومن خلال لعبة الحرب والبحر، ليس اللعبة اللفظية من خلال الجناس فقط، وإنما اللعبة الدلالية، والشعورية للّفظتين كلتيهما، وفيهما ما فيهما من فوارق ودلالات يعرفها الجميع، وتسعى إلى بيانها الشاعرةُ بشرى البستاني وهي تنظم هذه اللوحة، وتأتي بهذه الألفاظ بوعي شعري وشعوري كامل كامل، كما تقول:

تجيءُ إليّ
وبغدادُ أجملُ
بغداد أشهى...
أفصّلُ قلبي على قدرِ حبّكَ
يشهدُ قلبُكَ
حُبّكَ أكبرُ
قلبي أبهى
ويتسّعان، يضيقُ المدى
في الهزيع الأخيرِ دنا البحرُ،
شبَّ دمُ الحربِ
حينَ دَنا البحرُ
قامت سكاكين خيبرَ
حين نأى البحرُ نامَ الدليلْ
فلا تجرح البحرَ إن الغيومَ تُطهَّرِهُ
وعلى شاطئيه تشبُ الأوجاعُ
ملغومةً باللظى... (١).

على الرغم من الإيقاعات الداخلية المنتشرة في اللوحة الشعرية من الجناس في: (البحر والحرب، شبّ وتشبّ، نأى ونام)، وفي التضاد: (يتسع ويضيق، قام ونام)، وفي التكرار في الألفاظ: (البحر، بغداد، حين)، في العبارات: (دنا البحر)، إلّا إن اللوحة بقت بعيدة عن معاني الحب، ومعاني التفاؤل، وظلت في لغة عالية يشوبها التشاؤم، ويخيم عليها العداء والحقد، وهو ما كان مع خاتمتها ونهايتها. الايقاعات رسمت جوّاً مطرباً في القصيدة، الأماكن عكست أهمية العنوان الأول والرئيس للنص الشعري عند الشاعرة بشرى البستاني في ديوانها هذا، إلّا إنّ تشكيلات الأنا والآخر، أحكمتها صورة الرجل الذي تخفّى أمام الألفاظ الأولى في اللوحة، وبقي هو المثير والمشجع لإكمالها على الوجه الذي ارتضته الشاعرة. الأنا، وقفت تستنطق الليل في هزيعه الأخير، ذلك الأخير الذي فيه نسمات الفجر، ورائحة الصباح لعلّها تبعث على التفاؤل

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق: ١٤٠-١٤١.

والأمل بيوم جديد. الأنا، وقفت أمام التراث الديني، وذلك الموروث الإسلامي الكبير الذي ننسى جُلّه اليوم بخيبر وفتحها، والبشارة بهذا الفتح، وبقدوم جعفر بن أبي طالب (عليه السلام)، والفرح الكبير بذلك الفتح والقدوم، فهل يكون مع فاتح بغداد الجديد؟! ومحررها المغوار؟! متى وكيف...؟!؟! الأنا، بثّت هذه اللواعج، وتلك اللظى الملغومة كناية في النصب والجهد والتعب من الواقع المعيش، ومن المكان المعيش، ومن الزمن المعيش. أمام الآخر فبقي مع كل هذه المشاعر ، في ذلك القلب الكبير، النابض بالحبّ والحياة، والوفاء.

في لوحة أُخرى من هذا النص، يبدو الآخر←الرجل، جلياً بصورته المعتادة. واللوحة هنا اتجهت نحو القاع المزري الذي تمرُّ به البلاد العربية، والعواصم العربية كما في بغداد والشام. الإيقاعات الداخلية موزونة ابقت على نغم مطرب داخل اللوحة، وساعدت في رسم تشكيلات الأنا والآخر من خلال الموسيقى المتحركة داخل الأسطر. الصورة توليدية أُخذت من الأمكنة الطبيعية ولاسيما البحار والشجر والصحاري، أما الزمن فهو زمن الذبح والقتل – كما تصوره الشاعرة-، هو زمن العدو، والقتل. تقول:

حبيبي
اليماماتُ تزرعُ قمحاً بشاطئِ دجلةَ
تغرفُ وِرداً على جُرفها
شجرُ الشِيح يسألُ عن عطرهِ
وتباريحهِ،
عن عناقيدِ صبوتهِ في الظلامْ
وبغدادُ مذبوحةٌ في الطريقِ إلى الشامْ
منفّيةً في الصحارى يواقيتُها
وكواكبُ من حطبٍ حُورُها
دمعُها بجعٌ يابسٌ
وهواها أغتيال...(١).

بكل هذا التشاؤم ترسم الأنا نفسها، تصل القمة في البكاء والنحيب والعويل في قولها:

دمعُها بجعٌ يابسٌ
وهواها إغتيال...

الألفاظ هنا تواجدت مع كلمة "حبيبي"، إذ لا حبيب ولا حبّ؟! أما الدلالات واضحة بيّنة من الأمكنة في بغداد والشام، فأين الحبّ في هذا الزمان؟! وأين من يحبُّ في هذه الأمكنة؟! الأنا ترسم الآخر بكلمة واحدة هي" حبيبي"، هذا الآخر الرجل الذي يغيبُ كليّاً عن النص لفظاً ودلالة وشعوراً، ويبقى في ذاكرة الشاعرة فقط، فهو الذي يفتتح باقي النص، وبذكره تنفتق هذه المشاعر عن القلب، لتكون بكل هذه الألفاظ، وتراكيبها، وصورها، ودلالات، وإيقاعاتها. تشكيلات الأنا الآخر←الرجل، الحبيب، العشيق، في هذا النصف يظهر ويختفي بحسب دلالة كل لوحة. والأنا لا تنفكّ عن قيمها، ومبادئها التي يجب أن يعرفها هذا الآخر← الرجل (الحبيب)، مهما كان، وأنى كان. فهي تريدُ أن تذكره بكل هذه المعاناة، وتريد أن تحاوره، بكل هذه المآسي التي تحدث في هذه البلدان وغيرها، ليكون بقدر التحمل، وبعين المسؤولية، وليبقى الحبيب، والحبيب على كل الأحوال.

(١) ينظر: م. ن. : ١٤٣-١٤٤.

وفي نصّها الشعري الآخر، والذي وضعت له عنواناً هو "صواريخ آخر الليل"، تبدو صورة الآخر الرجل بادية ومنتشرة في لوحات النص هذا، وهي تسمه بـ"حبيبي"، وتسبغ عليه سمات الحبّ، ومظاهر الألفة، وحسن المعشر، وتمضي ترمم مملكة الحبيب هذه، فتأتي بأنهارها، وحريرها، ومكانها. ومن ثمَّ تصفُ وجه الحبيب، وصوته، ومكانته من خلال مشاعر الأنا التي عبّرت عن الآخر الرجل ← الحبيب العشيق، وعن ما تحمله هذه الذات من أزمات في الواقع تحاول الهروب منها، ومنه إلى الآخر ←الرجل، الحبيب، وإلى ذكريات ذلك الحب، وما فيه من علائق المحبة، ووشائج التفاؤل والفرح، ولو في الشعر فقط، ولو في ألفاظه وصوره وموسيقاه فقط. تقول الشاعرة بشرى البستاني في لوحة من نصّها الشعري "صواريخ آخر الليل"، راسمة الآخر←الرجل، واسمته بالحبيب، مملكة ومكاناً ومحبةً ووئاماً:

وحبيبي،
حبيبي...
القطاراتُ،
منتصفُ الليلِ،
وجهك....
منتصفُ القلبِ...
صوتُكَ غابٌ من الأرجوانِ
وليلةُ حمَّى،
ومملكةٌ تتفق أنهارُها لؤلواً
ولهيبَ حريرْ
وصوتُكَ يدفعُ عني حرائقَ غارةِ
فجرٍ ستأتي
عبرتُ...[1].

تمضي الشاعرة بشرى البستاني في رسم تشكيلات الأنا والآخر في هذه اللوحة من هذا النص الشعري الذي حمل العنوان بدءاً معنى العدو، ورسم صواريخه في آخر الليل. صورة الليل الأخير هذه تتكرر عند الشاعرة نوعاً ما في ديوانها هذا، وفي أثناء قصائده ونصوصه الشعرية.
التشكيلات الموسومة للذات والآخر في هذه اللوحة متنوعة مرة بالإيقاع الصوتي الداخلي، الإيقاع المتحرك بأنواعه وفنونه، ومرة بالبيان ولاسيما في الاستعارة، وثالثة بالصور الحسية ولاسيما البصرية والسمعية.

التكرار يبدو جلياً في رسم هذه التشكيلات، يلعب مفارقة صوتية دلالية هذا التكرار في مثل قول الشاعرة في لوحتها هذه:

أمكنة متخيلة (الآخر الموصوف) ← القطاراتُ، / منتصفُ الليلِ / وجهُكَ.... / منتصف القلبِ ← التكرار اللفظي(الذات).

هنا المنتصف في الزمان ← الليل.
والمنتصف في المكان← القلب. تكراران يرسمان الذات وما تعانيه بين الزمان والمكان.

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق: ١٤٦-١٤٧.

وأما القطارات (مكان متحرك صناعي)، والوجه (المكان الطبيعي الإنسان← الرجل)، فهما الآخر الذي تريد الشاعرة وصفه، وتقريبه إلى المتلقي بكل الوسائل. الآخر يبرز من خلال الذات. وهذا ما توحي إليه الفلسفة دائماً، فالغير هو الأنا والذات هو الآخر بكل أشكاله. الصوت هنا لهذا الآخر← الرجل، وما فيه من عنفوان مسكت للجميع، وما فيه من قوة وطاقة تدافع عن الشاعرة بكل الأحوال والمصاعب التكرار والصورة الصوتية السمعية والألوان (الارجوان، الحرائق)، والاستعارات (غابٌ، يدفع عني)، وسائل ومظاهر فنية ساهمت في رسم تشكيلات الأنا والآخر في هذه اللوحة. ولاسيما إذا أعدنا ما قالت:

التكرار اللفظي "الصوت + اللون+ الاستعارة".

صوتُكَ غابٌ من الأرجوانِ
وليلةُ حمَّى،
ومملكةٌ تتفق أنهارُها لؤلواً
ولهيبَ حريرْ
وصوتُكَ يدفعُ عني حرائقَ غارةِ
فجرٍ ستأتي

جمل معطوفة "تكثيف الصورة لرسم الأنا والآخر".

والشاعرة هنا تبقي على أثر الأمكنة المختلفة في رسم ذلك التشكيل الشعوري بين الأنا والآخر، وتبقي أيضاً على أثر الليلة الموشحة بالحمى، ولاسيما أنها ستكون في آخر الليل لتوافق هذه اللعينة، وتوافق تلك الصواريخ التي تسقط آخر كل ليلة، فالشاعرة هنا سخّرت كل الفنون، وأنواع البيان، والمظاهر الدلالية والبنائية لرسم هذا التشكيل الشعوري والدلالي بين ذاتها وبين الرجل، ولعلّها احسنت، ونظنُّ أنها أحسنت.

في نصّها الموسوم بـ:" مائدة الخمر تدور"، تأتي الشاعرة بشرى البستاني في مدونتها الكلامية والإيقاعية، النص الشعري، في آخر لوحاتها بصورة الرجل، وبكلمة " أحبكْ". إنها لا تقول هذه اللفظة مهما كانت إلّا لمن تحب وتخلص له في هذا الحب. والشاعرة ترسم مفارقات لفظية، فيها نوع من أنواع الفلسفة الحياتية المعيشية التي تتركها الثقافة وسعة التجارب في الحياة، وكثرة الاطلاع على الموروث الثقافي العربي ولاسيما الشعري والتاريخي. وهي في تشكيلات الذات والآخر←الرجل في هذه اللوحة تخفي صورة الآخر تماماً وراء مشاعرها، وتأتي به مع كنايات ذوات دلالات بعيدة أحياناً، وتأتي به من خلال الأفعال التي لا يقوم بها إلّا الرجل، من يخرجها من الأرض إلى الأرض، ومن تشعر معه بالأمل لتكتب اسمه وما تشعره به فوق الأقداح، إنه الرجل البطل المنقذ التي تأتي بصوره كثيراً، وتسعى لئن يكون واقعاً نحسُّه، ونطمأن بالعيش معه، ولأجله فقط نقول "نحبك". تقول الشاعر في لوحتها الشعرية هذه:

مائدةُ الصبرِ تدورْ
أستلقي تحتَ سريرِ الريح
فتُخرجني الأرضُ من الأرضِ
وأَخرجُها من كأسي
ترقبني عينُ الصيادِ،
وتقتنصُ الكاسْ
إكتبُ بالخمرةِ فوقَ الأَقداحِ:
أُحبكْ...[1].

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق: ١٦٦.

وأما في نصّها الشعري "أحزان بلقيس"، والذي نشمُّ منه رائحة التناص الديني واستلام معاني ودلالات الآيات القرآنية الكريمة في سورة "النمل"، وأن الذات هنا هي من استوحت الآخر الرجل، وعدتّه المخلص لها والمنقذ من الواقع، ومن الناس من حولها مع ملاحظة الفوارق بين بلقيس وبين الشاعرة وبين سيدنا سليمان (عليه السلام)، وبين الرجل الذي ترسمه الشاعرة بشرى البستاني، أو تريد رسمه للقارئ والمتلقي.

هذا التعالق النصي مع الآيات الكريمة ومن أول العنوان، فتح الباب الواسع لرسم تشكيلات الأنا والآخر←الرجل في هذا النص الشعري. فالرجل هنا هو من تفديه الذات، ومن تسمه بالحبيب. هذا الحبيب الذي صبر على الجوع والضيم، ليلاقي المكافأة السخيّة بهذه الصواريخ، وهذا الموت الذي يحدث كل يوم في أرض الشاعرة ومكانها وبلدها.

الذات هنا، ومن خلال نصّها الشعري هذا تهرب إلى تلك الزاوية المضيئة، وذلك النور الذي يؤثر الآخرين على نفسه، ألا وهو الرجل، هو الآخر، هو الحبيب، هو الصابر المحتسب، هو القاهر للظلام، المقاوم للعدو، هو الذي يموت ولا يُذلُّ.

ويبدو الرسم لهذه التشكيلات، ولهذه اللوحة بصورة واقعية، ليست فيها وسائل الرسم والتصوير التزويقية، من البيان والحواس والألوان إلّا قليلاً. فالشاعرة تعود إلى ذاكرة الحصار الذي مرّ ببلدها وبشعبها، وإلى ذلك الظلم الذي أفقد الكثيرين حياتهم من أبناء هذا الشعب. تبقى بعض الإيقاعات المتحركة، ولاسيما في التكرار تساهم في رسم تشكيلات الأنا والآخر← الرجل في هذه اللوحة، التي أتت بين لوحات النص الأخرى، وتلكم اللوحات تفيض باستعمال التاريخ، وتؤثر الواقعية في الرسم واللفظ، لتكون حسنة التعبير عمّا تشعر به الذات، وما تحسُّه، وما تريده أن تنقله إلى الآخرين، كما شعرت، وأحسّت.

تقول الشاعرة بشرى البستاني في لوحتها هذه:

كان حبيبي يبيعُ قلائدَ عمري ←**حبيبي (الآخر الرجل المنقذ).**
وأسورتي ليرمَّم جوعَ الحصارِ
مياهُ المدينةِ كانت ترواغُ ← **أماكن معادية، ومُشعرة بالعداء.**
كلَّ صباحٍ تنثُّ الصواريخ موتاً جديدْ
والصواريخُ تتبعني
تتربّصُ في كتبي ← **افعال تدلّ على الحركة والاستمرار لهذه الصواريخ.**
وتُشاغل أُمنيتي
وتداهمُ غرفةَ نومي عليّ
الصواريخُ.. آهْ..[1].

وأمّا في نصّها الشعري الآخر في ديوانها " أندلسيات لجروح العراق"، والذي وسمته الشاعرة بشرى البستاني بـ: "النخيل"، فيبدو الرجل، وتبدو صورته طاغية على هذا النص. وتبدو التشكيلات بين هذا الآخر←الرجل، وبين الأنا متنوعة الرسم، والوظيفة والدلالة. والشاعرة هنا تميل إلى البناء الدائري للنص الشعري الحديث. تبدأ النص بلوحة تخاطب فيها هذا الآخر مخاطبة روحية، وتطالبه بعدم المغادرة، وتأتي بألفاظ وتراكيب فيها الفزع والخوف حتى تؤكد لحبيبها جدوى بقائه معها، ولماذا لا تريده أن يغادر من حياتها، مهما كانت الأسباب.

(١) ينظر: م. ن. :١٧١-١٧٢.

هذا ما أباح به مكنون اللوحة الأولى عند الشاعرة بشرى البستاني في نصّها هذا، وهو- من جملة الدلالة والمضمون والألفاظ والتراكيب-، ما كان في مضمون اللوحة الأخيرة في النص الشعري نفسه، وإليك اللوحتان معاً:

تقول الشاعرة في اللوحة الأولى:

لا تغادرْني إلى الظلمةِ
تلتفُّ مع البردِ الحقولْ
بأسها..
وأنا بالوجدِ ألتفُّ
وبالوحشة
والليلِ العَذولْ..
لا تغادرْني
الفصولْ
حفرتْ آخر قبلةْ
فوق جيدي

عداء

عداء

تقول الشاعرة في اللوحة الأخيرة:

لا تغادرْني
ذراعاك شراعٌ فوقَ خصري
لا تغادرْني
تدورُ الأرضُ ما بين منافيكَ..
وصبري
لم تكنْ سجناً
ولا منفىً
ولكني سجنتُ
لا تغادرْني..
أتيتُ.. .

ورأت كيفَ يُراقُ المستحيلْ[١].
لا تغادرْني
أتيتُ [٢].

تنتشر في اللوحتين سمات العداء والألم في الأماكن، والأزمان، والمشاعر، والصور، والألفاظ. والتكرار بـ (لا تغادرني)، هو الذي يسوّغ هذ العداء وهذا الألم حتى تصل الشاعرة إلى إقناع هذ الآخر← الرجل بالبقاء وعدم المغادرة منها. وتبدو اللوحة الأولى قاسية مع الزمن من خلال ألفاظها التي انتشرت فيها مثل: (الظلمة، البرد، الليل، الفصول)، وهذه القساوة تمثلت في رسم هذه الألفاظ ووصفها عند الشاعرة مثل: (البأس، الوجد، الوحشة، العذول، المستحيل). ولعلّ هذه وطأة الزمن المعيش عند الشاعرة، وكيف كانت هذه الفصول، وذلك البرد، وذلك الليل في حياتها، ربما يكون الجميع في ظلام، وبرد، ووحشة، وبأس، كما تريد الشاعرة أن تعبّر عنها في لوحتها هذه.

في اللوحة الأخرى، الأخيرة من نصّها الشعري، تجلّى المكان أيضاً بصورته العدائية، وبألفاظه التي تصوّر الألم والحزن عند الشاعرة، وعند أيّ انسان كان على وجه الأرض. وهذه الأماكن المعادية التي انتشرت وشاعت في هذه اللوحة من نصّها هي:

(المنافي، السجن، المنفى)، وتتكرر هذه الألفاظ ومدلولاتها في هذه اللوحة لتسيطر عليها كلياً، لتؤكد أحقية هذا الرجل بالبقاء مع الذات الباكية المتألمة المتأزمة من الزمان والمكان، وتطلب منه بإصرار وتأكيد عدم المغادرة مهما كان. وتنفرج اللوحتان بكلمة (أتيتُ)، في آخر اللوحة الأخيرة، وهي آخر لفظة في النص، وتعمل معها الشاعرة مفارقة لفظية غايتها التأكيد على عدم المغادرة، وفي الوقت نفسه تبشرنا بقدوم هذا الآخر← الرجل، وفي هذه البشارة ما يدلُّ على

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١٨٠ .

(٢) ينظر: م. ن. : ١٩٠-١٩١ .

البقاء وعدم المغادرة ثانية من قبل هذ الرجل، وهو ما تسعى إليه الشاعرة من أول النص إلى آخره. يتأكد لنا ذلك بقولها:

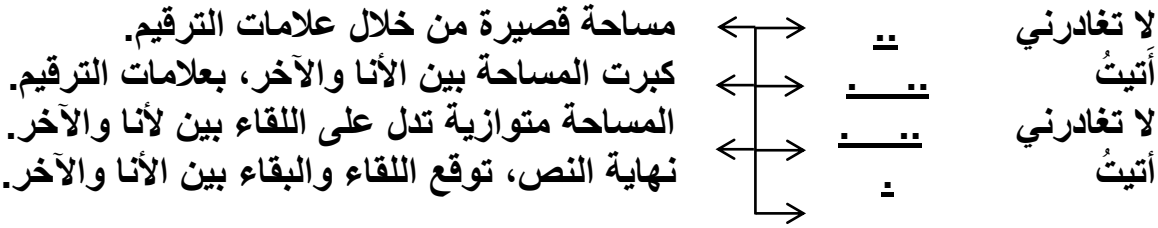

ويأتي الآخر← الرجل، وترسم الشاعرة صورتها من خلال الأنا (الذات) إلى الغير في أكثر من لوحة واحدة في هذا النص-كما ذكرتُ آنفاً-. ففي لوحة أُخرى يأتي الحوار بين الأنا والآخر← الرجل، ليساهم بشكل كبير وواضح في رسم هذه العلائق بين الأثنين، ويوحي بالدلالات المشتركة بينهما التي تكشف هذا الإسهام. تقول في لوحة من لوحات هذا النصّ:

وصوتُه كان يُسرّحُ شعر البوادي
ويضفرُ أَحزانها
صوتهُ كانَ يلتمُّ في الليلِ
يبني لها قبةً من عبيرٍ
أَمجنونةٌ أنتِ
قلت: نعم
واستفاق على صدرهِ قمرٌ من بكاءْ[1].

ويبدو الحوار الداخلي بصورة أكثر من رائعة بين الذات والآخر ← الرجل في لوحة شعرية أُخرى من لوحات هذا النص. هذا الحوار الذي يكشف تشكيلات الأنا والآخر عند الشاعرة، ويساهم في نقل تجربتها الشعورية إلى الآخرين من خلال إحدى وسائل السرد والمهمة ألا وهي "الحوار".

ولا أنسى أن أذكر بالقول إن الشاعر هنا اهتمت بالنواحي الصوتية والإيقاعية في اللوحة وهي ترسم صورة الأنا والآخر← الرجل، إذ تبدو القوافي متداخلة، أفادها التكرار في بعض الألفاظ ليزيدها قوة وشدة. وفي البعض الآخر متراكبة تأتي بالحرف المهوس اللين، ليناسب هذه الجراح، وهذ الصمت، وليوافق مشاعر الأثنين (الذات والآخر) إلى حد كبير، وهما يتحاورن، ويحّبان الموت، ويستعذبان الألم، مادامَ واقعاً في بلدهما، ومكانهما، ومشاعرهما.

تقول الشاعرة بشرى البستاني من لوحتها هذه:

صمتُ زنديكَ على خصري يصيحْ
- هل تحبُّ الصمتَ
- سيدتي عطركِ مرمرَ الروحِ
وإذ أهوي لقاعِ النارِ
أهوي..
لجةُ الموتِ الفسيحْ
نشوةُ الموتِ
وياقوتٌ ينثُّ الضوءَ

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١٨٤-١٨٥ .

فوقَ الجسدِ الفادحِ بالوردِ
وماءِ الجرح
فوقَ القمرِ الطافحِ تفاحاً جريحْ[١].

وأمّا في نَصّها الشعري "الريح"، فيبدو النصّ متشاكلاً كلياً مضموناً وبنية ودلالة مع هذا العنوان، ومع ما تثيره هذه الريح. إذ هبت بعواصف سافية أتت على المشاعر كلّها بين الأثنين، الأنا والآخر←الرجل.

والتكرار بالعبارة "ما قال ..أحبيني.. "، هو من ينقل إلينا هذه التشكيلات التي تريدها الشاعرة، وهو من ساهم في رسم الصورة ودلالاتها، وهو أيضاً ما أباح عن مكنون مشاعر الشاعرة في حياتها ومعاشها تُجاه الآخر←الرجل. تقول في نصها "الريح":

التكرار وعلامات الترقيم ← **ما قال .. أحبيني..**
الصورة البيانية
↓
توليد الصور مع التكرار
ابتسمت عيناهِ
وفرّ الصفوعُ من الأَفلاكِ
ونامَ عبيرُ التاريخْ ..
فوقَ ذراعي..

التكرار وعلامات الترقيم ← **ما قال.. أحبيني..**
الصور الحسية
↓
التكرار وأثره في رسم الصور
شرقت عيناها.
ومضى يقرأ في كفّيها الرملَ
وإيقاعَ الصَّبواتْ

التكرار وعلامات الترقيم ← **ما قالَ.. أحبيني..**
الصورة البيانية
↓
استنطاق الجامد
قال جداري كوني يا سيدةَ الموج،
وفارغة الغاباتْ
لم يسمعْ ما قالته الريحُ،
مضى قبل غوايتها..
أبقتْ بينَ يديه ..
شيئاً من برقٍ
وأنيناً مجروحْ ..[٢].

"الأماكن"
خاتمة
مؤلمة
نهاية مفتوحة

هذي كانت أغلب النصوص الشعرية التي رسمت تشكيلات الأنا والآخر←الرجل، بدا هذا الأخير متخفياً في بعض النصوص، وظاهراً في نصوص شعرية أُخرى عند الشاعرة بشرى البستاني في ديوانها هذا. ومع هذا الخفاء، أو مع ذاك الظهور، رسمت الذات مشاعر مختلفة لهذا الآخر، أغلبها كان في الحب، ونعته بالحبيب، وتمني الحياة بقربه والبقاء معه في حياة لم تعرف طعم السعادة والفرح والتفاؤل إلّا قليلاً. وبقيت هذه التشكيلات، على الرغم من الاتجاهات الوجدانية المحببة التي تربط علاقات الرجل بالمرأة، توحي بالعداء، وتُشعر بالقسوة والحزن والألم، وما ذلك إلّا للواقع الذي عاشت فيهَ الشاعر، والبلد الذي عانى ما عانى من الضيم والظلم والظلام.

(٢) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١٨٨.

(١) ينظر: م. ن. : ١٩٧-١٩٨ .

لقد كانت الشاعرة البستاني صادقة مخلصة لأدبها وموضوعها في طرح علاقاتها مع الرجل، وهذا الآخر هو الذي رسم الأنا التي بدت باكية متألمة في الكثير من أحوالها، وهيئاتها حتى مع الحب، ومع الغزل، ومع الحبيب الذي كان فلسفة خاصة في رؤية الشاعرة والأديبة البستاني في شعرها ونصوصها في ديوانها. فلسفة أُخذت من حياة مريرة في آخرها، ومن ظروف أليمة لم تترك الشاعرة في أمل وابتسام، حتى مع ذلك الحبيب.

ب. الأنا (الذات)... الآخر (العدو).

منذ القدم والإنسان يعيش على هذه الحياة بحرية ووئام وتآلف. تآلف مع جنسه من بني البشر، وتآلف مع الطبيعة بكل مسمياتها، وتآلف مع باقي المخلوقات ولاسيما من الحيوانات، من الدواجن إلى الطيور... وغيرها. ولا يخلو هذا التآلف من منغصّات جمة تفرضها أحياناً مظاهر الطبيعة القاسية، وحكمة الله – سبحانه وتعالى – فيها، ومن تصرفات بني البشر الاستبدادية التوسعية على حساب البعض الآخر، لتنتج هذه المنغصات سمات العداء والكره، مرة للزمان الذي يعيش فيه الناس، ومرة للمكان الذي يحيا عليه بعض الناس، وثالثة لبعض البشر الذين يحاولون اغتصاب حقوق الآخرين، وتملكها بالقوة والبطش والاستبداد. صورة العدو←الآخر، رُسمت بأشكال مختلفة، ووسائل شتى، ولكن هذه الأشكال، وتلكم الوسائل لا تبعد أن تجعل هذا العدو بصورته الحقيقية القبيحة، المستكرهة، التي تستحق منا كل الحقد، والكره، والبغض، والمقاومة والطرد. والشاعرة(الذات ←الأنا)،بشرى البستاني عانت كثيراً من هذا العدو، ومن هذا الآخر. فأصبح جزءاً من حياتها، وكيانها، وشخصيتها، ما تلبث أن تلعنه بمشاعرها الصادقة، وتدعو إلى مقاومته في أدبها، الشعري والنثري، وبكل ما أُوتيت من وسائل المقاومة في هذا الأدب، اللغوية، والفنية، والدلالية، والسردية، والإيقاعية. ومن هنا شاعت الصور القبيحة والمأساوية لهذا الآخر←العدو، ولأفعاله في البلاد، التي لا تخرج عن هوياته المحمودة المعروفة المشهورة في القتل والذبح والسفك والنهب؟!

لقد تمّيزت الشاعرة بشرى البستاني في ديوانها هذا، وفي أغلب نصوصه الشعرية، بالتذكير والحثّ، التذكير لما كان من هذا العدو المحتل من أفعال شنيعة يندى لها جبين الإنسانية الناصع بالمحبة والأُلفة. وكانت أقواله تناقض، وتتضاد مع أفعاله بصورة كلية، والكل يعلم ذلك جلياً. والحثّ على المقاومة، وعلى رسم صورة الآخر←العدو بأبشع الصور، في ميادين الإنسان الإبداعية المختلفة، حتى نوفي حقها ونحفظ لبلدنا وشعبنا كرامته، وحقّه في العيش والبقاء، وكذلك حتى تُوضّح الصورة الحقيقية لهذا المحتل، ولهذا العدو لشعوب وبلدان العالم الأُخرى التي طالما ما يحاول خداعها، بمثل ما خدع به شعبها وبلدها، من شعارات وهتافات جنت على ذلك الشعب، ودمّرت هذا البلد. الذات هنا في نحيبٍ مستمر، دائم، وشكوى عظيمة لما خلّفه هذا الآخر من تبعات ثقيلة أتت على كلّ شيءٍ أخضر في حياتها، وأتت على كل فرح، وأنهت كل سعادة. فالباقي من هذه السعادة لا تعدو المشاعر الآنية التي لا تستغرق إلّا اللحظات، والباقي من هذا الفرح لا يعدو الابتسامة بالوجه والحركات، أما القلب فيه ما فيه، وأما العقل فبه ما به...؟!؟! وديوان "أندلسيات لجروح العراق"، يحمل مشاعر الذات جملة وتفصيلاً تُجاه هذا الآخر، فالأندلسيات ذكرى لذلك المكان الخالد "الأندلس"، ولتلك الحضارة التي بناها وشيّدها الأجداد العظام، وضيعها الاحفاد الصغار. والجروح كثيرة في هذا العراق، لا نملُّ من سردها، والحديث عنها للأجيال القادمة، فمن أين نبدأ، وإلى اين ننتهي من جراحك يا عراق... لا أدري؟!

إنّ نظرة عجلى لما فيه هذا الديوان من نصوص شعرية، لتضعنا أمام تشكيلات الأنا والآخر← العدو، في شعر الشاعرة بشرى البستاني. ولعلّ كثيراً من هذه التشكيلات وضحت في

تشكيلات الأنا والآخر ← الرجل، وستتضح بعضها، أو ما يتبقى منها مع الذات والآخر←المجتمع. إلّا إن التركيز على بعض هاته النصوص في هذا القسم من الدراسة مهم وضروري، ولا أُريد الاستطراد في كثرة النصوص في الشواهد والتحليل في هذا القسم ، فهي تتضح بعداً ودلالة وتركيباً مع القسمين الآخرين، وهي ما تأتي بأكثر المشاعر والصور والدلالات في شعر الشاعرة البستاني، سواءٌ أكان في هذا الديوان الشعري، أم في غيره من الدواوين الشعرية التي نظمتها الشاعرة، ونشرتها واشهرتها للقرّاء. في النص الشعري الأول والذي حمل عنوان الديوان " أندلسيات لجروح العراق"، وهو عنوان هذا النص نفسه، تنفتح اللوحات الشعرية بداخله على تشكيلات الأنا والآخر← العدو، بكل التفاصيل، وأغلب الوسائل. اللوحة الأولى من هذا النص الشعري المحبوك لغة، وصورة، وصوتاً، وإيقاعا، تضعنا الشاعرة بشرى البستاني أمام الذات التي تعمل في هذا الضيم، وفي هذا الظلم، مع هذا العدو، ومع أفعاله التي أصبحت لا تطاق، ولا تُحتمل.

وهذه الذات (الشاعرة)، التي يبرز فيها صوت الأنا، وتعلو فيها صورتها، هي التي ترسم الآخر ← العدو، وتُزيّن تشكيلاته في الصورة واللغة والأصوات، لتكونّ لنا صورة قاتمة لهذا العدو، من أول لوحة من لوحات النص الشعري.

والشاعرة في هذا التشكيل، تستنطق الأمكنة باختلافها، وتأتي ببغداد وآشور، الدنيا والآخرة في نظرها، وأما الافتتاح بالعبارة "دبابات الغزو تدور"، فكان افتتاحاً مُكرراً مع كل لوحة من لوحات هذا النص، تكرار بنائي ينفتح على صور ودلالات عدة في كل لوحة من لوحات لنص، التي تختلف تصويراً ومدلولاً طبعاً، ولكنها تتوحد في المشاعر والأحاسيس لما تعنيه الذات، ولما تحاول رسمه للآخر ← العدو، في أقسى صوره، وفي أفزع أشكاله. تقول الشاعرة بشرى البستاني في لوحتها هذه:

دباباتُ الغزو تدورُ
تُسائلُني الأسلحةَ العزلاءُ عن السرّ
وأسألُها عن نبضِ الفجرِ
وأجثو عندَ خزائنِ بغدادَ وآشور
أمسكُ قلبي من وجعِ التفاحِ
عناقيدُ النخلِ على الأعوادِ
الكابوسُ يعاودني
وأشهقُ في قاع الجبِّ
وأبحثُ عن سيارة أهلي
اسألُ غُصنين ينامانِ
على صدري..
من قصة سيدنا يوسف (عليه السلام)عن سرّ الجبلِ الصامت في قلب الصحراءْ
أرقى درجاتِ الوجدْ
مُغمضة العينين
وأُمسكُ برقَ البلورْ...[1].

الذات (الشاعرة) الباكية ←

الذات (الشاعرة) الوحيدة ←

الذات الشاعرة المتأمّلة بالفرح ←

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١٠٣-١٠٥ .

انتثرت الأماكن هنا وهناك بشكل كبير في هذه اللوحة، وهي واضحة بيّنة في الأماكن الطبيعية، ذات المدلولات التآلفية المعيشة، حتى مع هذا العدو ← الآخر، ومع ما يحدثه فينا من مشاعر تمتاز كثيراً بالحزن والألم والظلم والبكاء.

التعالق النصي مع الآيات القرآنية الكريمة في قصة سيدنا يوسف "عليه السلام"، زاد من تصوير مشاعر الذات، وتركها في وحدة وبكاء، تسعى إليها الشاعرة، وتريدها من خلال المجيء به في أول لوحة من لوحات هذا النص الشعري الطويل نسبياً في ديوان الشاعرة هذا، عمّا في باقي دواوينها.

التعالق النصي هذا، ساهم كثيراً في رسم تشكيلات الأنا والآخر ←العدو في هذه اللوحة، وهو الذي أفاض بكل تلك المشاعر والبوح بها، مما تعانيه الذات (الشاعرة).

ولا أنسى أن أذكّر أن قصة سيدنا يوسف (عليه السلام)، مشهورة ويعرفها الكثيرون حتى من غير ابناء الاسلام، ومن هنا كان هذا التعالق الديني مع النص الأدبي، بؤرة النص، والمثير للأهتمام عند القارئ، كما إنه من أباح عن مكنون مشاعر الذات← وعن سرّ بكائها وحزنها وألمها تُجاه هذا الآخر← العدو، كما كان ذلك الجب، وكما كانت تلك الحادثة التي تثر فينا دائماً وأبداً مشاعر الكره والبغض لما يفعله الأخوة، ولما يفعله الحقد والحسد في قلوب البشر.

وفي اللوحة الشعرية الأخرى التي تلي هذه اللوحة من النص الشعري "أندلسيات لجروح العراق"، تمضي الشاعرة بشرى البستاني في مثاقفة الأمكنة التاريخية. وهذه المثاقفة للأمكنة، استدعت شخصيات وأحداثاً، أُخذت من الموروث الإسلامي، ومن التاريخ العربي التي مرّت به هذه الأمكنة، أو الذي مرّ به شعب هذه الأمكنة، وما فيه من دماء، وترويع وبطش وقهر.

المثاقفة هنا، بالأمكنة، والشخصيات، والأحداث التاريخية الجسيمة التي مرّت على الأمة العربية والإسلامية، هي التي رسمت تشكيلات الذات والآخر ← العدو، وهي التي أباحث عن مشاعر الأولى تُجاه الآخر، الآخر اللعين، المُقرف، الظلوم، في تاريخه وحضارته، في يومه ومستقبله. تقول الشاعرة (الذات) في لوحتها هذه:

التكرار اللفظي ينفتح على الدلالات وبناء النص. ← **دباباتُ القتلِ تدورْ .. .**

بغدادُ ..

سمرقندْ ← **أماكن تاريخية تدلُّ على أحداث مضت.**

غرناطةُ تنهدْ

ثانيةً يوغلُ هولاكو في قمصانِ المدنِ التعبى

ثانيةً يقطعُ هولاكو

شريان الحبر الأسودْ .. .

التكرار يرسم أفعال الآخر ↓ **الآخر العدو**

هولاكو يترصَّدني ... ← **أفعال العدو، ما يثير الذات**

يقطعُ رأسي،

يُودعُه في صندوق مقفلْ .... ← **أفعال العدو**

يرميه في البحرِ ← **ما يثير الذات**

يدورُ البحرُ

اللعبةُ ترتدُّ على نحرِ البارجةِ الامريكيةْ...

تتحرَّرُ من قلبي لُغتي

أُطلقُها نحو الصفصاف

نهاية اللوحة ← **وأبكي ..**

البكاء بلا أمل.

وفي لوحة أُخرى من لوحات هذا النص الشعري في ديوان الشاعرة بشرى البستاني، تستمر هذه المعاناة، وتكبر هذه المأساة أمام ما يفعله هذا العدو الغاشم الحقود. الاستمرارية هنا سوّغها التكرار، ومهّد لها بقولها " دبابات الغزو تدورُ"، نعم إنها تدور في شوارعنا سفكاً، وفي مدننا قتلاً، وفي شبابنا سجناً، وفي أموالنا وثرواتنا نهباً ونهبا. نعم إنها تدورُ لترسم مشاعر الذات←الأنا(الشاعرة)، وتشكّل الآخر بأبشع صوره، وأقسى صوره. هذه الصور التي رسمها البيان، وأدّت فيها اللغة الشعرية عند الشاعرة، وظيفتها الدلالية بعنفوان وقوة، يرجعان إلى عنفوان الألفاظ، وقوة الدلالات التي تسيح منها، وهي لا تخفى على الكثرين ممن يقرأون هذه اللوحة. تقول الشاعرة:

التكرار اللفظي ينفتح على الدلالات وبناء النص.

دباباتُ الغزو تدورُ
يلُوثُ ثوبي نفثُ الدباباتْ
تثقُبُ روحي عينَ الامريكي الرافل بالزَّبدِ
القابع خلف دروع العرباتْ ← **العدو**
أزرارُ قميصِ الأمريكيّ ← **لغة قوية**
في شرح أفعاله الدموية.
دموعُ الليلِ على مُقلِ العذراواتِ
هديرُ الدباباتْ ← **الصورة المختلفة**
يزرعُ في قلب الأرضِ ← **التي ترسم الآخر← العدو**
دموعاً أُخرى..[1].

خاتمة مفتوحة
نتيجة حتمية لتلك الأفعال
الآخر ← العدو.

وفي لوحة أُخرى يساهم التركيب الاستفهامي برسم تشكيلات الأنا والآخر← العدو عند الشاعرة بشرى البستاني في نصّها الشعري هذا. والشاعرة هنا لا تخلو من تفاؤل، وأمل في مشاعرها وأحاسيسها التي نلحظها جلية من خلال هذه اللوحة، على الرغم من هذا العدو ← الآخر، وعلى الرغم من أفعاله سيئة الصيت والوقع في البلاد والعباد.

واللوحة أراها من أهم لوحات النص إن لم نقل من أهم لوحات الديوان في الرسم والتعبير، فأرى أنها نُظمت من شاعرة كبيرة، عرفت الدلالات وعرفت الكلمات المؤثرة في القارئ والمتلقي والناقد والدارس على حدٍّ سواء. كما إنها أحسنت في التعبير عن المشاعر أمام من قَطع هذه الزهرة. ومن أتلف الحياة فيها، ومَن دمر أرضها، ولماذا؟! ومن أعطاها، وأعطاه (البلد) إلى هذا العدو← المحتل؟! وكيف؟!تقول الشاعرة في لوحتها هذه:

تكرار لفظي ينفتح على الدلالات وبناء النص

دبابات الغزو تدورُ
في أعلى الدبابةِ زهرةُ فلٍّ
مِن بستاني
مَن قطع الزهرة
مَن أعطاها الجنديَّ الامريكي ...؟

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١٠٧ .

قالت عن بُعدٍ وهي تفوحْ
من بابِ الشمسِ سأطلعُ ثانيةً لأعودْ
نحو ترابٍ ينهضُ من أرديةِ الحمى
ويلمُّ شظايا الروحْ ...[١].

وأمّا في نصّها الشعري الآخر الذي وسمته الشاعرة (الذات)، بعنوان محبب إلى النفوس عند كل من يسمعه، ويثير الشفقة والبكاء والحزن لكل من يسمعه، العنوان← المكان، العنوان "بغداد"، مدينة السلام والفكر والثقافة والتراث والحضارة والشعر في وقت مضى، مدينة الاشباح والموت والقلق والذعر في وقت الشاعرة وزمانها، تبدو الذات هي هي في المشاعر والآلام. وتبدو القصيدة ويبدو النص هنا صورة كلية كبيرة من الدلالات. والألفاظ، والصور والإيقاعات التي ترسم مشاعر هذه الذات، وتشكّل الآخر، وتقصُّ علينا حكايات هذا المكان، وهذه المدينة، وكيف كانت، وكيف صارت؟!؟! تقول في جزءٍ من بدء هذا النص:

تحطُّ الخيولُ على بابها
تتأهّبُ للموتِ مذبوحةً بالصهيلْ ...
تحطُّ الطيورُ على سورِها
تتأهبُ للشدوِ
مأخوذةٌ بالعبيرْ ..
وينهضُ في سوحها النخلُ
يُرخي الأعنّة فوق عناقٍ يلوبُ،
على شطِّها يكتبُ الحبُّ أمجادهُ
وتدورُ الفصولْ ..
وقلبي يُرتقُ فوقَ حرائقه مَشهداً
لوليمةِ فحرٍ يُؤسِّسُ صخرتَهُ،
في ذُرى قمّةٍ تتأهبُ أن تستردَّ سماواتها
.....[٢].

نلحظ الذات (الشاعرة) هنا متشنجة تشنجاً قوياً، تظهر الأفعال المتشددة، ولاسيما بصيغتها المضارعة التي تروي لنا هذا التشنج العميق، الذي هو المرآة العاكسة لما فيه " بغداد"، المدينة، المكان، العنوان.

أمّا الآخر، فرسمته الشاعرة (الذات)، بألفاظ حقيقية جزلة، وبأصوات انفجارية بقوافٍ مختلفة. طالت الأشطر قليلاً عمّا كانت في النصوص الشعرية الأخرى التي توالت نظماً ونثراً في هذا الديوان. وهذه الإطالة لهذه الاشطر فسحت المجال للتعبير أمام الشاعرة، والبوح بكل ذلك التشنج الذي عانته، وما زالت تعانيه أمام هذا الآخر←العدو، وأمام ما يفعله في بغداد، المدينة، المكان، العنوان. إذا تتبعنا النص الشعري هذا بكامله، بقضّه وقضيضه، وجدناه لا يخرج عمّا قدمنا فيه القول، وما أسلفنا فيه الحديث، فالشاعرة "الذات" ما زالت في هذا البكاء الدائم، والآخر← العدو، مازال في أفعاله الكريهة البغيضة التي تزيد من هذا البكاء، وتعمّق من تلك الجراح، فما تلبث الشاعرة أن تبوح بها من خلال نصّها الشعري هذا.

---

(٢) ينظر: م. ن. : ١٣٠ .

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق: ١٣٣ .

ولا تنسى الذات (الشاعرة)، أن تذكر القارئ ومنه العدو بأهمية بغداد، حضارة وتاريخاً ومكاناً، ،إن أفعاله وتصرفاته لن ينساها الزمن، ولن يمحوها التاريخ، ولن يسامحه وهو يقوم بها يومياً، وفي كل مكان منها، وهي الكبيرة بأطرافها، الكثيرة بأسماء أزقتها وحاراتها وقصباتها. وأما خاتمة النص الشعري هذا، فتتجه فيها الشاعرة (الذات) إلى العراق ككل، تعبر فيه عن حبها له، ووفائها له. وعن تضحيتها له. وهي خاتمة قوية المشاعر، كبيرة العنفوان، تكشف عن شخصية الذات القوية الصابرة أمام هذا الآخر← العدو (المحتل)، وأمام ما يفعله، فستبقى ونبقى، وسيمضي مُذلّلاً بالخيبة والخسران، مهما بقى، ومهما كان من قوة وبطش وهلاك، وهذا مصير الظالمين، وهذه إرادة الشعوب، وإرادة الإنسان التي لا تُقهر على مر الأزمان. تقول الشاعرة في خاتمتها هذه:

وأكتبُ فوقَ صخور العراقِ:
أُحبكَ .. .
أكتبُ لا أشتري عيرَ هذا العذابْ
وطناً لجروحِ اليمامِ بقلبي
وأجنحةً لمناديلِ حبّي
وسِفراً لا يقاوم[١].

في نصّها الشعري " صواريخ آخر الليل"، وهو آخر ما أقف عليه في هذا القسم من دراستي هذه عن تشكيلات الأنا والآخر←العدو، إذ لا فائدة ولا مدعاة من التكرار في النصوص والتحليل وقد وضح كل شيء - كما أعتقد- في الشواهد والنقد. جاءت الأنا(الذات ←الشاعرة) متداخلة مع الآخر← العدو، ومع الآخر← الرجل، والآخر في هذين النوعين عكس تلكم الذات التي تنتظر الرجل، ليقتل العدو، أو لنقل ليطرده من مكانها، وبلدها، ويزيح أغلاله الثقيلة عن كاهل شعبها.

وحتى في هذا النص الذي وضحت فيه كثيراً من تشكيلات الأنا والآخر من خلال القسم الأول من الدراسة، سأقتطع افتتاحيته التي هي كفيلة برسم المشاعر الذاتية للأنا عند الشاعر، وهي الزعيمة بتوضيح تشكيلاتها مع الآخر←العدو. تقول :

رصاصٌ، رصاصٌ، رصاصٌ
صواريخُ ...
منعطفُ الدربِ منكفئٌ
والشوارعُ مُربَكةٌ
وأنا نخلةُ الريحِ
شَعري موسمٌ مَن لا يَدين لهُ
وفراتي مرٌّ
وعلقمُ حبي مناقيرُ تنهشُ جُرحاً يُقاومُ
والليلُ منهمكٌ بالحروبِ يُرتّقها في الظلامْ ..
والصواريخُ مفتونةٌ بمُنى الأبرياءِ
وبالفقراءِ
ومشفوفةٌ بالحضاراتِ تحرقُ أسفارَها[١].

(١) ينظر: م. ن. : ١٣٧ .

هذا هو التكرار: رصاص ←رصاص ← رصاص. ينفتح على دلالات عدائية تشكل النص. الشاعرة (الذات) عبّرت عن مشاعرها صوتاً وصورة ودلالة من خلال هذا التكرار، وما فيه من دلالات معروفة لدى الجميع.

العتبات للمكان، (الشوارع، الدرب، المنعطف)، وتُنبي بأمكنة فيها سمات العداء والظلم والقتل، من خلال الارتباك، ومن خلال الصواريخ التي تقع عليها كل يوم، فترسم الموت على وجه من يمشي بها، ومن يسير عليها لأية حاجة في نفس يعقوب؟! الصورة الذوقية، حلّت ضيفة مُكرّمة على هذا النص الشعري عند الشاعرة بشرى البستاني في افتتاحيتها هذه، بقولها:

وفراتي مُرٌ

وعلقمُ حبي مناقيرُ تنهشُ جُرحاً يقاومُ

الضدية بين الفرات والمرارة، الضدية بين العلقم والحب، رسمت مشاعر الذات، وأفادت في تشكيل صورة الآخر← العدو، من خلال هذه المشاعر إفادة عظيمة لكن تبقى النخلة رمز المقاومة والحرية والبقاء والخلود عند الإنسان العراقي في كل زمان ومكان، وما تستميله فينا والشاعرة، وما تبعثه فينا من مشاعر خين تقول بصورة القوي الشامخ: **وأنا نخلةُ الريح**

مع أي ريح كانت الريح للدلالة على القوة في الهبوب والتدمير والعصف، والنخلة للشموخ والديمومة والحضارة. بكل هذه الأنا ترفض الآخر ← العدو، وتدعو إلى مقاومته والتضحية في سبيل العراق، وفي سبيل المكان، الذي عُرف بهذه النخلة، وعُرف بقوتها، وشموخها، وصبرها، مع كل المحتلين الذين غزوا العراق، وعاثوا فيها فساداً. الذات هنا مع ما قلناه عنها، تبقى أملاً وتبقى عملاً من خلال هذا النخلة، وما ترمز إليه. هذا كان أكثر ما ينبغي لنا أن نقوله، في مشاعر الأنا ← والآخر (العدو)، وفي تشكيلات هذه المشاعر، وكيف جاءت رسماً ودلالة وبناءً في نصوص الشاعرة بشرى البستاني في ديوانها " أندلسيات لجروح العراق"، والباقي من النصوص يدور حول ما قدمنا من تأزّم هذه الذات، وبكائها تُجاه هذا العدو، الذي ترسمه بشتّى الوسائل، وأهم الفنون في الرسم، بشاعة، وبغضاً، وحدقاً... فتتركه صوراً بشعة مظلمة، تردُّ أفعاله السيئة الأجيال على مر السنين، يلعنه التاريخ، ويذمّه الزمان، ويألمُ منه المكان الذي حلّ فيه، وقتل فيه، ودمر فيه، يلعنه الجميع إلى الأبد.

ت. الأنا (الذات) ... الآخر (المجتمع).

لابُدّ للشاعر والأديب والقاص صاحب الإنسان المرهف، والإبداع المقروء أن يتأثر بالمكان، وبمن يسكنُ هذا المكان، وبمن يعيش فيه على مرّ الأزمان، وهذا التأثر قد يكون سلباً أو إيجاباً، بُعداً أو قُرباً، محبة أو كرهاً. فالشاعر والأديب ابن بيئته، وترجمان مكانه، والصورة التي تبدو حقيقية في أكثر حالاتها لمجتمعه، ولبني البشر الذي يحيون معه هذه الحياة، بظروفها وأحوالها ومناسباتها المختلفة. ولا ينفكُّ الشاعر والأديب من التأثر بهذا المجتمع، مهما كان، ومهما كان إبداعه. فنرى كثيراً من الأُدباء والشعراء يوافقون مجتمعاتهم وتكويناتها المتنوعة، ونرى البعض الآخر يرفضون المجتمعات التي يعيشون في ظلّها، ويتمردون عليها، ومن ثمّ يتركوها ويهاجروها عنها، بل ويذموها ويرمون بأقسى عبارات الشتم والسباب والهجاء.

وإذا تتبعنا مسيرة الأدب الكبيرة وصولاً إلى شاعرتنا، نرى إرهاصات المجتمع ووقائعه بداية على أيّ شاعر من شعراء هذا الأدب، من خلال مدونته الكلامية المنشورة، نصّه الشعري. فالمديح، والهجاء، والغزل، والوصف أغراض كتبها الشاعر في ظلّ أي مجتمع عاش فيه، ومع

---

(٢) ينظر: م. ن. : ١٤٦ .

أي حاكم أو خليفة أو أمير أو سلطان ترعرع في بلاطه، ونما لحمه وشحمه في ترف أو جزع تلك البلاط. وما الشعر إلّا مشاعر هذا الشاعر، وما الشعر إلّا تدوين وتوثيق لما يحدث في المجتمعات، وما يعرف عنها من أخبار وأحداث ووقائع. والشعر الاجتماعي في المشرق وفي المغرب، وفي الأندلس، هو الصورة ناصعة البياض، الواضحة وضوح الشمس في الضحى، دلالة ومضموناً ومشاعر، على علاقة الشاعر بمجتمعه وبيئته. فالعادات والتقاليد الاجتماعية، والاحزان والافراح وشعارهما، والملابس، والألعاب، والنواحي الفلكلورية والتراثية... وغيرها، كلّها تدلُّ بوضوح على علاقة الأنا (الذات ← الشاعر)، بالآخر ← المجتمع. ومن ثمَّ تتفرع هذه العلاقة، وترسم التشكيلات ذات الدلالات المختلفة التي تبين تلك العلائق الكثيرة، والواضحة التي أُخذت من صميم التراث الشعر العربي في العلاقة بين الأنا ←الذات(الشاعر المبدع)، وبين الآخر ←المجتمع، بكل ما فيه، وبما فيه ككل.

في تشكيلات الأنا والآخر ← المجتمع عند الشاعرة بشرى البستاني في نصّها الشعري الأول " أندلسيات لجروح العراق"، تبدو هذه الجراح كبيرة وكثيرة تعاني منها الذات وتحاول رسمها من خلال صور المجتمع الذي تبحثُ عنه، وكم تشتهي أن تعود به إلى الماضي الجميل، والتاريخ البهي الذي كان يعيش فيه أبناء مجتمعها في العصر العباسي مثلاً، وهي تقصُّ نكبات النسوة العراقيات وتحكي لنا الآلام والأوجاع التي يشعرن بها في هذا المجتمع، ويسببه هذا المحتل الأثيم. وهذه التشكيلات ترسمها الأماكن التي تنتشر في اللوحة الشعرية التي نتحدث عنها هنا، وتزينها بعض وسائل البيان المحمودة في الرسم، لتأتي اللوحة تحكي مشاعر الذات أمام الآخر، الذات الموجوعة الباكية المتألمة، وتشكل الآخر الذي لا يرقب فينا، ولا في مجتمعنا إلّا ولا ذمة. تقول الشاعرة البستاني في لوحتها هذه:

دباباتُ الغزو تدورُ
معابرُ بغداد...
تبكي
الأنهارُ
الأسماك
الشرفاتْ
تبكي
وقبور بني العباس
أتعبها زحفُ العربات على قلبِ الأرضِ
الآباءْ
يُخفون الطلقاتِ بصدرِ العذراواتِ
ضفائرهنَّ على الرملِ
يُخضّبها الدمْ
وجعٌ في أعينهنّ عراقيٌّ
دمعٌ
وجلٌّ ما كانَ
وما سوف يكونْ
هبطَ المرجانُ من الدوحْ
هل قلتَ: الموتْ...

علمُ السيمياءْ...
خجلٌ من ضوضاءِ الموتى[١].

تبدو الذات قلقة حزينة، متذمرة من مجتمعها الذي تعيش فيه. ذلك المجتمع الذي يستسيغ مرور عربات الاحتلال المدمرة فوق القبور التاريخية الكبيرة التي بنت أكبر حضارة إسلامية في تاريخ العرب والمسلمين إلى يومنا هذا، حضارة بني العباس، وأمجاد الخلافة العباسية، أيام كانت بغداد زهرة تلك الحضارة، وقبلة العشّاق والمبدعين في كل مكان.

تستعذب الذات (الشاعرة) الموت لهذا الوجع من خلال البكاء، ومن خلال النسوة اللاتي، لا حول لهنّ ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم. الوجع في أعينهن، البكاء يؤدي إلى الوجع، والوجع إلى الموت. ضفائرهنّ اللواتي هنَّ رمز جمالهن، وعنوان شبابهن على الرمل الذي تدوسه تلك العربات الملعونة في كل شيء. فأيّ مجتمع هذا تعيش فيه هذه الذات؟!؟! لتصل اللوحة إلى قمة الصراع بين الذات والآخر في قولها:

علمُ السيمياءْ
خجلٌ من ضوضاءِ الموتى

الذي تمثّل تشكيلات الأنا ← والآخر (المجتمع)، والذي يترك النص في لوحته هذه، في قمة التشاؤم، وقمة الألم على الماضي والحاضر في آنٍ واحد.

المثاقفة من خلال تاريخ العرب والمسلمين، ومن خلال بغداد هي من رسم هذه التشكيلات بين الذات ولآخر، فبغداد كيف كانت في ذلك المجتمع، ومع أولئك القوم، وكيف أصبحت وامست اليوم، في ظل الحاكم الجديد، ومجتمعه الجديد، نعم الجديد الذي نسى وتناسى كل شيء، ونَعمِ بالمال، وحلم بالسعادة على حساب العزّ، والكرامة والرفعة.

وفي لوحة أُخرى من لوحات هذ النص الشعري، تستند الشاعرة والأديبة ذات الثقافة العالية ولاسيما الثقافة الأدبية، والشعرية ويحقُّ لها ذلك، إلى صورة الشاعر العربي الكبير أبي تمّام، وإلى بائيته الخالدة التي قالها في مدح المعتصم وفتح عمورية. فقد حدثت هذه الوقعة في بلدها، وبين أبناء شعبها، أيام كان الخليفة في القوة والشخصية والحزم والبأس، وأيام كانت الغيرة غيرة عربية إسلامية على الدين، والعرض، والمال، والممتلكات. فأين ذلك الشاعر؟ وأين ذلك الخليفة؟! وأين ذلك المجتمع؟؟ في نظر الكثيرين من أبناء مجتمعها اليوم... فتشكيلات الأنا والآخر← المجتمع، وضحت من خلال هذه المثاقفة التاريخية الأدبية مع الشخصية ومع نصّها الشعرية ذائع الصيت والشهرة. والتشكيلات بين الأنا والآخر ← المجتمع، رسمت بالأمكنة المختلفة وبوسائل وفنون البيان الواضحة التي انتشرت في اللوحة بشكل منطقي ومرّتب، لتعرّفنا الشاعرة بمجتمعها الجديد، وبحاكم هذا المجتمع الجديد. تقول:

دباباتُ الغزوِ تدورُ
أبو تمامٍ ينشرُ بائيتَهُ فوقَ ضفافِ
الكرخ، الدباباتْ
صدقت في كتبِ العّرافاتِ
انكسرت مقلُ العذراوات
الخلجانْ
تجمعُ أرديةَ الريح من المنعطفاتِ

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١١٣ .

وتعطي الفجرْ
كلماتٍ تزحفُ من حُرَقِ الباءِ
إلى دالِ الوجدْ ...[١].

قولها: (الكرخ، كتب، العرّافات)، هو دلالة شعورية لتجليات ذلك المجتمع، ومكانته، وما فيه من أعراف وتقاليد، وهو صورة أُخرى من تشكيلات الأنا والآخر، الذي تبحثُ عنه الذات لتنقله إلى الآخرين كما شعرت به، وأحست به، وعانت منه، ومازالت تعاني. في آخر لوحة، وهي لوحة شعرية قصيرة، مرسومة بعناية، وتحكمها الجدة والقوة والجزالة في اللغة والألفاظ والتراكيب والأفكار والمشاعر من لوحات نصّها الشعري هذا، تبدو بغداد ← المكان، هي الأولى والأخيرة التي ترسم تشكيلات الأنا←الآخر(المجتمع)، وتحكي العلائق بينهما، ولكن أي بغداد هذه، وهي بين الجروح والأصفاد، وأي بغداد هذه وهي تبكي بين مجتمعها، وبين من باعها بلا ثمن،..**!!!** وأي بغداد هذه بتاريخها وأدبها وشعرائها، وأي بغداد هذه .... تقول:

مرهقةٌ بغدادُ
ومجروحٌ معصمها
سرُّ الرمانِ على وجنتها
يذبلُ في الأَصفادْ[٢].

هذه بغداد الجديدة، هذا المكان الجديد، هذا الزمان الذابل يبكي على تلك الجروح. هذا هو المجتمع الذي يسمح بهذا الذبول، وذلك البكاء، وتلك الجراح... ولكن إلى متى**؟!؟!** هذه هي التشكيلات الحية، والمعبرة التي تريدها الشاعرة من الآخر ← المجتمع، الذات (الشاعرة) هي التي ترسم هذا المجتمع الذي تحول إلى أَمرٍ غير أليف، وغير مُبالٍ بما يفعله العدو، وللأسف الشديد. الآخر ← المجتمع، الذي نسي بغداد في جراحها، وإرهاقها، وتناسى مجدها وحضارتها وألقها، فكيف سينظرون إليك من قرأ عنها، وكتب عنها، وكيف سيشعرون تجاهك – أيها المجتمع -، وهي بغداد – المكان - ، الحضارة والتاريخ، والفكر... في كل هذه الأصفاد، والقيود، والجروح، والتدمير، والتخريب اليوم**؟!** هذه صورة المجتمع من خلال هذه اللوحة عند الشاعرة بشرى البستاني وهي – اللوحة – على قصرها، وقصر أشطرها إلّا إنها ذات دلالات كبيرة، ومعانٍ كثيرة، وآلام موجعة ومآسٍ واضحة... لا تخفى على الكثير.

وأمّا في نصّها الشعري الذي وسمته بـ : (غرق لؤلؤة التاج) وهي مرثية إلى الشهيدة لدكتورة ليلى عبدالله سعيد. تبدو الذات هنا متشائمة، حزينة، على فقد الزميلة، والصديقة، والشهيدة. وترسم الشاعرة تشكيلات الذات والآخر ←المجتمع، من خلال المكان المقدّس الذي كانت تقف فيه الفقيدة، ويُسمع صوتها المجلجل وهي تعلّم وتكتب، وتدرس الطلبة العلومَ المختلفة. القاعة هنا المكان هو الذي يرسم تلك التشكيلات بين الأنا ←والآخر (المجتمع). هذه القاعة التي فرغت دلالة على فراغ المكان، كناية على نهاية العلم بنهاية الشهيدة. القاعة الفارغة هنا أكبر من مكان يُدّرس فيه الطلبة، وأكبر من مكان يجمعهم أمام أُساتذتهم. القاعة الفارغة هنا، رمزٌ لنهاية الوفاء للأستاذ، ورمزٌ لنهاية العلم في البلاد. وفي آخر اللوحة عند الشاعرة البستاني رمزٌ للضيف القادم، الذي يريد فراغ هذه القاعات، ونهاية العلم، وحرق الجامعات. " الجمع الحاشد " هنا هو هذا المجتمع الذي ينفّذ الأوامر التعسفية ضده، وضد بلده، وضد أعلامه، ينفّذها وهو مرتبك، يريد

---

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق: ١٢٦ – ١٢٧ .

(٢) ينظر: م. ن. : ١٣٢ .

أية حياة يعيش فيها، حتى وإن كانت حياة بلا علم، وبلا أمل، وبلا كرامة، وبلا مستقبل، وبلا وفاء. تقول الشاعرة البستاني في لوحتها هذه:

القاعةُ فارغةٌ،
إلّا من نافورةِ دمْ..
القاعةُ فارغةٌ إلّا من خيطِ الضوءِ الأصفرْ.. .
القاعة فارغةٌ
لكن الضوضاءْ
تحصبُ جلبابِ القاضي
بكُرات حمراءْ .. .
القاعة فارغةٌ
لكن الملكة ...
خانتها الشبكةْ
هبطتْ مركبةٌ وسط القاعةِ
غادرها الجمعُ الحاشدُ مرتبكا..[١].

التكرار اللفظي بقولها " القاعة فارغةٌ"، له أبعاد دلالية وشعورية كثيرة نشمّها من خلال هذا المكان الحضري، الذي يرمز للعلم، وللجامعة، وللفقيدة. التكرار ينفتح على بناء النص تركيباً ووظيفة. " جلباب القاضي"، هو الرمز الآخر للمجتمع، أين هذا الجلباب الأسود الذي يحكم للمرثية، ويحكم لمِن كان في القاعة... أين ذلكم سيدي القاضي؟!؟! الألوان تنتشر تدلُّ على الخجل والمرض " الاصفر"، العداء والكره، الدم ← الأحمر"، الوظيفة (العمل) والقوة والحكم " الأسود ←جلباب القاضي"، ساهمت هذه الألوان في أصفاء مشهد محسوس متألم لمشاعر الذات وهي تشكّل هذا الآخر←المجتمع، الذي نسي وظيفة القاضي ومهمته الأولى في الدفاع عن المظلومين، وعن فارغ القاعات وعن الدم العراقي البارد الذي يسيل في كل مكان. هذي هي تشكيلات الأنا والآخر، في لوحة الشاعرة هذه، وهذه هي الذات الباكية طويلاً ، والمتألمة طويلاً، زاد هذا البكاء، وذلك الألم، سقوط الأحباب والأخلاء والأتراب صرعى موتى، بلا أدنى سبب؟!

وأما في نصّها الشعري الذي وضعت له عنواناً مكانياً اجتماعياً هو "البيت"، ويتبادر ما يحدث للقارئ والمتلقي في هذا البيت من وشائج وعلاقات تربط بين أفراده على مر الدهور والعصور، نرى الشاعرة بشرى البستاني تطرح علينا إرهاصات المجتمع من خلال هذا العنوان لنصّها الشعري هذا. العنوان← البيت ← المكان الاجتماعي. الذات هنا ترسم لنا تشكيلات لآخر من خلال هذا المكان، ومن خلال ما يحدث فيه من أفراح وأتراح، من مناسبات ومن نكبات... وما إلى ذلك.

وتبدو الذات (الشاعرة) فرحة، متفائلة في أول الأشطر، وتأتي بالتشبيه من صميم إبداعها بقصيدة النثر التي من سماتها الغموض، لتضعها في صورة الرجل الذي يعيش معها في البيت. هذا التشبيه ترجم مشاعر الشاعرة نحو الرجل، وبدأت بوصفه، ووصف ما يفعله في هذا المكان. وتستنطق الشاعرة (الذات)، الأماكن والأزمنة، لتزين هذا الوصف، ولتُمدّ في مساحة النص اللفظية والتركيبية والبنائية، حتى تستدعي شخصية الطفل " الصغير"، وما في هذه الكلمة من دلالات لتحسن رسم المشاعر في بيتها المعيش هذا، وفي مكانها الاجتماعي هذا. في آخر الأشطر

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١٧٥-١٧٦ .

تبدو لنا صورة المجتمع، من خلال هذا المكان ومن خلال ما وقع فيه عن طريق السرد، السرد الذاتي الذي تقوم به الشخصية الرواية وهي الذات، وهي الشاعرة. الأشطر الأخيرة هذه هي التي تبكي وتنجرح بصورة البلابل التي تغرّد بكاءً وألماً، بصورة الشيح الاخضر، الذي يتحول إلى الاصفرار بهذا الجرح، وبهذا النزف الذي يولّده المجتمع ويبعث فيه في كل بيت، وكأنها قضت على مشاعرها السعيدة الفرحة في أول النص، وأبقت على الخاتمة الجريحة الباكية المتألمة، من جراء هذا المجتمع الذي يساهم مع العدو في قتل البيوت، وقتل ما فيها من أفراح وحب وسعادة وتفاؤل. النص الشعري هنا صورة كلية قائمة على السرد والوصف، قائمة على المكان الاجتماعي "البيت"، الذي انفتح على دلالات متنوعة، ومعان شعرية كثيرة سوغّها قلب الذات وعواطفها، ونظرتها إلى المجتمع وما فيه، وما يقع فيه من خلال هذا البيت، المكان الاجتماعي المصغر، لمجتمعنا المعيش الكبير. تقول الشاعرة بشرى لبستاني في نصّها الشعري " البيت":

كقصيدة النثرِ العصيّة،
غامضٌ .... ← **التشبيه يكشف الآخر من أول النص**
وغصونهُ تُرخي على صدري الظلالْ،
وساعديْ...
ويبثُّ عطراً لا يبينْ

حرف العطف ↓ **تركيب الجمل** ↓ **تنوع الدلالة**

الزمن + حرف لجر ← **دلالة الزمن في النص** ← **مع الذات**

في الليل يأخذني لصالةِ حزنهِ،
في الفجرِ أصحبُه إلى حُلمي،
فيحرسُ صبوتي
وأنامُ بينَ يديهِ آمنةً
وإذا أصحو
أراهُ وقد أضاءَ نوافذي
وأعدَّ لي شاي الصباح
طفلٌ صغيرٌ كُلّما فارقتهُ
بكت البلابلُ في ضلوعي،
وانجرحْ..

حروف العطف ↓ **تركيب الجمل** ↓ **المجتمع** ↓ **تنوع الدلالة** ← **مع أفعال الذات** ← **الآخر من خلال الذات**

دلالة البيت الاجتماعية.
انفتاح الدلالة على والآخر.
المجتمع الباكي المجروح

شيحُ الحديقة في دموعي..[1].

هذا النص بكامله، كما أسلفت، صورة كلية تقوم على هذا المكان الاجتماعي "البيت"، وما فيه من مظاهر، وما يُعرف فيه من دلالات سخرت الشاعرة (الذات) هذه المظاهر، وتلكم الدلالات لتنقل إلينا مشاعرها، وما تحسُّ به، ومن ثمّ ترسم لنا تشكيلات الآخر التي وضحت جلية في نهاية النص بكل حزن وألم وفجيعة، حتى مع هذه الطيور الجميلة، ومع ذلك النبات والعشب الذي من سماته الخضار الدائم، والصبر الطويل. الذات هنا حائرة قلقة من تصرفات المجتمع الذي تعيش، الذي قد يهدم البيت، وينهي ما فيه من ملاذ وحياة جميلة. المجتمع هنا حائر قلق

(١) ينظر: أندلسيات لجروح العراق : ١٩٢-١٩٣ .

بإرتباك تلك الذات وحيرتها وقلقها من هذا العدو، ومن الظروف المعيشية المأساوية التي خلّفها، ويخلّفها دائماً. وتبقى الذات (الشاعرة)، على نفسٍ متفائل، وروح شفّافة طيبة عاشت زمناً في ذلك البيت، ولكن هذه النفس، وتلك الروح ما تلبثُ أن تزول، وتتلاشى في ظل هذا المجتمع الذي يسكت على الجرح، ويصمت عن البكاء، لكأنه يسدُّ أذنيه، ويصاب بالصمم والأعمى عن كل ما يحدث فيه، وعن كل تصرفات ذلك العدو، الذي يغدر به وبمَن يعيش فيه، ويقتل، ويدمر ويقتك بلا ضمير.

الخاتمة والنتائج

بعد هذه الرحلة البحثية والعلمية والنقدية الممتعة مع شاعرة وأديبة وناقدة كبيرة مثل الدكتورة بشرى البستاني ، ومع ديوانها الجميل المحكم " أندلسيات لجروح العراق " أقف هُنيّةً بسيطة لتوضيح بعض نتائج البحث مما جنيتُ من هذه الرحلة مع الشاعرة وديوانها ، وتلكم النتائج هي:

- الآخر انعكاس عملي ووجه آخر للذات . والذات تمثّل الآخر بشكل علمي وعملي وفلسفي واجتماعي ، فبدون الآخر تبدو الذات مبتورة عن العمل ، وقاصرة عن التعبير عن مشاعرها وواقعها ، مهما كان هذا الآخر شخصاً أو مجتمعاً أو مكاناً ، حبيباً أو عدوّاً ، قريباً أو بعيداً ... إلى آخره.
- مثّل شعر الشاعرة بشرى البستاني تحولات ثقافية عالية المستوى ولاسيما في علاقة الذات مع الرجل. فقد صوّرت الشاعرة هذا الآخر بأشكال كثيرة ، فمرة حبيباً ومرة غائباً وثالثة قريباً ورابعة بعيداً مشوقاً ، ومرة من الواقع وأخرى من التاريخ . وفي هذه الأشكال كلها كانت الذات أمام الرجل تفرح وتحنُّ وتتفاؤل إلى حدٍّ كبير.
- عبّر ديوان " أندلسيات لجروح العراق " للشاعرة والأديبة والجامعية الدكتورة بشرى البستاني عن التحولات الاجتماعية والنفسية والفكرية الكبيرة التي انتابت المجتمع بعد عام ٢٠٠٣ ولاسيما في تصويرها لقضية العدو ، وقضية الاحتلال الامريكي الذي احتلّ مجتمع الشاعرة ومكانها ، وما جرى على هذا المجتمع وعلى ذلك المكان من ويلات ومصائب وكوارث ونكبات وخراب وتدمير ... كما تصفه الشاعرة البستاني في قصائدها في ديوانها هذا .
- بدت مشاعر الذات (الشاعرة) غريبة بعض الشيء في فلسفتها وآرائها تُجاه المجتمع في ديوانها " أندلسيات لجروح العراق " . فهي تنتقد بعض اصناف المجتمع العراقي ومكوناته لموقفه من الاحتلال على بلده وثرواته العلمية والبشرية ، وهي تريد من الاصناف والمكونات الأخرى الدفاع عن هذه الثروات ، ومقاومة هذا المحتل وطرده من البلاد وبأي شكل من الأشكال .

  فالشاعرة تميل إلى الاتجاه الوطني وتصرُّ عليه في رسمها لصورة المجتمع المثالية التي تريدها لمجتمعها ، ولقضية هذا المجتمع وما طرأ عليه من تحولات وتغيرات في كل مناحي الحياة بعد عام ٢٠٠٣ .
- يرسم ديوان " أندلسيات لجروح العراق " قمة الصراع النفسي المتأزم من الذات (الشاعرة) وهي ترى مأساة بلدها وما حلّ فيه من ارهاصات كارثية ونوائب حقيقية بعد عام ٢٠٠٣ ، ولاسيما في مدينة الشاعرة الأولى ومكانها الام (الموصل) ، تلك المدينة الحضرية العمرانية الشاخصة على مر الازمان والعصور ، ذات التوجه الديني والثقافي والعلمي الكبير . وفي جامعة هذه المدينة العريقة الأصيلة وهي جامعة الموصل ، وسمعتها الادبية والفكرية وأثرها في بناء المجتمع العراقي ورفع مكانته العلمية والحضرية في العصر الحديث . فالشاعرة الدكتورة بشرى البستاني ابنة هذه الجامعة والنبراس المضيء فيها في الأدب والشعر والنقد والتدريس والملتقيات والمؤتمرات والمحافل والمهرجانات الثقافية والعلمية مدة خدمتها الطويلة في هذه الجامعة وكلياتها المختلفة ، وعند طلبتها على مرّ المراحل الدراسية ومستويات هذه المراحل العلمية، ومن هنا وصفت الشاعرة البستاني في شعرها عموماً ولاسيما في ديوانها " أندلسيات لجروح

العراق " ، ما انتاب هذه الجامعة من تحولات في كل شيء...؟! بعد العام ٢٠٠٣ وإلى يومنا هذا.
فالديوان ترجمان لبيئة الشاعر، مهما كان ومهما كانت ، وحكايات لمشاعر هذا الشاعر تُجاه هذه البيئة وما يحدث فيها . وهذي هي وظيفة الشعر ومهمته الأولى والأزلية على مرّ العصور الأدبية.

مكتبة البحث (ثبت المظان) :

*أَقسام الكلام العربي "من حيث الشكل والوظيفة": د. فاضل مصطفى الساقي، مكتبة الخانجي – المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٧٧.
*الأنا في الشعر الصوفي (ابن الفارض أنموذجاً): د. عباس يوسف الحداد، دار الحوار للنشر والتوزيع – دمشق، ط٢، ٢٠٠٩.
*أَندلسيات لجروح العراق، الأعمال الشعرية الكاملة: بشرى حمدي البستاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، ط١، ٢٠١٢م.
*بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، مكتبة لبنان – الشركة المصرية العالمية للنشر، دار نوبار للطباعة – القاهرة، ط١، ١٩٩٦.
*التشكيل النصي الشعري، السردي، السير الذاتي: د. محمد صابر عبيد، مؤسسة اليمامة الصحيفة – الرياض، كتاب الرياض، كتاب الرياض (١٧٩)، ط١، ٢٠١٣.
*الصحاح في اللغة والعلوم، تجديد صحاح الجوهري (ت٣٩٣ه)، تقديم: عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي، أُسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية – بيروت،ط١، ١٩٧٤.
*صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه (مجموعة أبحاث)، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت، ط١، ١٩٩٩.
*الصورة الشعرية وأسئلة الذات، قراءة في شعر حسن نجمي: د. عبد القادر الغزالي، مؤسسة دار الثقافة للنشر والتوزيع – الدار البيضاء المغرب، ط١، ٢٠٠٤.
*العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ه)، ترتيب وتحقيق: د. عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٤ه-١٩٧٩.
*في معرفة الآخر: بن سالم خميس، دار الحوار للنشر والتوزيع – دمشق، ط٢، ٢٠٠٣.
*لسان العرب: جمال الدين محمد بن مُكرم ... ابن منظور الافريقي (ت٧١١ه)، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤ه.
*معجم ألفاظ القرآن الكريم: إعداد: هيئة في مجمع اللغة العربية- القاهرة، ط٢، مج١، ١٣٩٠ه-١٩٧٠م.
*المعجم الوسيط، إخراج: د. إبراهيم أنيس وآخرون، دار الدعوة – استانبول - تركيا، ١٩٨٩.
*مناهج الدراسة الأدبية الحديثة: د. عمر محمد الطالب، دار اليسر للنشر – مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ١٩٨٨.
*نظرية الأدب: رينيه ويلك وأوستن وارين، ترجمة: محيي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مطبعة خالد الطرابيشي – القاهرة، ١٩٧٢.

تحديات الغزو الثقافي على المجتمعات العربية (الاثار-اليات المواجهة)

م.د. حسين عبدالحسن مويح اللامي

كلية العلـــوم السياسية/ جامعـــــة ميسان

الملخص :

إن أهم ما يميز القرن الواحد والعشرين هو تزايد الهيمنة الثقافية الغربية وما تشكله من إرهاب ثقافي حضاري يتعارض مع طبيعة الإنسان. ان ظاهرة الغزو الثقافي هي احد ظواهر العصر الحديث التي باتتت تهدد دول العالم الثالث وخصوصا الدول العربية والاسلامية. فثقافة الهيمنة تسعى إلى تفكيك المجتمعات العربية عن طريق تمزيق الهوية الثقافية الوطنية وتقويض منظومة القيم والاخلاق. ذلك ان تفكيك الفرد من أسرته وأمته ومن بيئته باسم الفرد مرة، والحرية الشخصية مرة ثانية، والحداثة والتطوير مرة ثالثة، وتحرير المرأة مرة رابعة، وأخيراً باسم تحرير الشعوب. وهذا كله يُصور لنا على انه نتاج حضارة إنسانية عامة يلتزم الجميع بها باعتبارها استجابة لنوازع طبيعية في الإنسان. ومن ثم فان انتشارها حتمي ولابد من الخضوع لها.

ولغرض مواجهة والحد من اثار تلك الظاهرة اصبح الزاماً على المجتمعات العربية الاهتمام بتطوير المناهج التعليمية والاهتمام بتعزيز الوعي الثقافي والفكري المجسد للهوية الثقافية العربية بما يتلائم مع خصوصياتها والاستفادة من وسائل التطور العلمي والتكنولوجي خصوصاً في وسائل الاعلام بغية التواصل وعدم الانغلاق مع المجتمعات الاخرى.

Abstract :

The most important characteristic of the twenty-first century is the rise of Western cultural hegemony of Cultural terrorism is incompatible with human nature. The phenomenon of cultural invasion is one of the phenomena of the modern era, which has become a threat to third world countries, especially Arab and Islamic countries. The culture of hegemony seeks to dismantle Arab societies by disrupting the national cultural identity and undermining the system of values and morals.

In order to confront and limit the repercussions of this phenomenon, it has become a necessity for Arab societies, attention to the cultural and intellectual production embodied in the national cultural identity and a review of educational programs by taking advantage of scientific and technological development in the world.

المقدمة:

يعتبر الغزو الثقافي من اخطر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية والاسلامية في الوقت الراهن، ويصنفه بعض المختصين بأنه أكثر خطورة من التحدي السياسي والتحدي الاقتصادي، وذلك لما له من علاقة وطيدة تنسحب على المجتمع ذاته، وعلى أهم مكنوناته الاجتماعية، فالثقافة والفكر هما حجر الأساس الذي تقوم عليه كل المجتمعات والشعوب.

هذه الدراسة تتألف من مبحثين، المبحث الاول يتناول اثار الغزو الثقافي على المجتمع العربي وفيه مطلبين، المطلب الاول يناقش إشاعة النموذج الثقافي الغربي، والمطلب الثاني يوضح مسالة ازمة الهوية الثقافية العربية. اما المبحث الثاني مخصص لاليات مواجهة الغزو الثقافي ، وفيه مطلبين ايضاً ،المطلب الاول يتناول تطوير المناهج التعليمية في العالم العربي، والمطلب الثاني يناقش تعزيز الوعي الثقافي والفكري المجسد للهوية الثقافية العربية.

اهمية الدراسة :

تنطلق اهمية الدراسة في معرفة اهم اثار الغزو الثقافي الغربي على المجتمعات العربية خصوصاُ فيما يتعلق بالهوية الثقافية الوطنية والمنظومة الاخلاقية للمجتمع . ايضا تبرز اهمية الدراسة في معرفة اهم الطرق والوسائل للحد من ظاهرة الغزو الثقافي.

مشكلة الدراسة:

تعتبر ظاهرة الغزو الثقافي من ابرز التحديات التي واجهتها المجتمعات العربية خصوصاً في القرن الواحد والعشرون، حيث كان لها تاثير سلبي بشكل عام على الهوية الثقافية الوطنية فظلاُ على المنظومة الاخلاقية للمجتمع العربي. ومن المفترض ولغرض الحد من تداعيات تلك الظاهرة لابد من اتباع عدة طرق ووسائل لمواجهتها. لذلك هذه الدراسة تحاول الاجابة على الاسئلة التالية:

ما اثر تداعيات الغزو الثقافي على المجتمعات العربية؟

ماهي اهم طرق مواجهة الغزو الثقافي؟

منهجية الدراسة :

استندت الدراسة في إعدادها وكتابتها على منهج التحليل والاستنتاج القائم على جمع المعلومات وتبويبها وتحليلها، ثم استنتاج أهم الأفكار منها.

المبحث الاول: اثار الغزو الثقافي على المجتمعات العربية :

واجهت المجتمعات العربية والاسلامية تحديات ثقافية وفكرية عديدة بفعل ظاهرة الغزو الثقافي خصوصاً في بداية القرن الواحد والعشرون من ناحية إشاعة النموذج الثقافي الغربي وتحدي الهوية الثقافية العربية، مما ترك اثراً سلبياً على سلوك افراد المجتمع العربي.

المطلب الاول: إشاعة النموذج الثقافي الغربي :

قد لا يختلف اثنان على ان لكل امة من الأمم منظومتها القيمية المشتملة على العقائد ومجموعة القواعد العامة التي تشكل أساس نظامها العام. وتحرص كل امة على حماية هذه القيم

وإحاطتها بأسباب الحياة لتمكين أجيالها المتعاقبة، من خلال مؤسساتها التربوية والتعليمية ومنظومتها الثقافية، ابتداءً من الأسرة، من الحصول على الزاد الأساسي من تلك القيم(١).

وتسعى العولمة، من خلال استخدامها للتقنية المتطورة في وسائل الاتصال والتواصل،إلى إشاعة ثقافة عالمية واحدة، غربية النمط، بغية التحكم والسيطرة على سلوكيات الإفراد والمجتمعات. فالنظام الثقافي الجديد أصبح نظام الصوت والصورة. وتجري محاولات عديدة من خلاله لتسويق القيم الغربية، عن طريق التكنولوجيا الحديثة والوسائل الالكترونية التي تحول العالم كله إلى موقع واحد عديم الحواجز والقيود(٢).

ولعل من ابرز وسائل التأثير على الصعيد الثقافي والفكري وأكثرها وضوحاً القنوات الفضائية والمؤسسات التعليمية الأجنبية وأنشطة السياحة والسفر. فالقنوات الفضائية، وما تبثه من برامج ثقافية وترفيهية جذابة، تنطوي على القيم التي يراد بها التأثير في الشباب واقناعهم بسمو هذه القيم. ومن جانب آخر،هناك المؤسسات التعليمية التي تقوم بالتبشير والتأثير في المنهج الفكري والعقائدي، من خلال المواد الدراسية. فالمنح المجانية، في كثير من الأحيان، والتسهيلات الدراسية التي توفرها بعض الجامعات والمدارس الأجنبية ما هي إلا وسائل لبلوغ تلك الأهداف. والأمر ذاته لأنشطة السياحة والسفر وما تقدمه من برامج مغريه وبأسعار رمزية خيالية من اجل جذب الشباب وتغيير نمط حياتهم وإكسابهم علاقات وعادات جديدة، من شأنها أن تؤثر بدون شك فيهم في المستقبل وتوجههم نحو الأسوأ والأضعف، ومن ثم الضياع(٣). ويمكن القول أن الغزو الثقافي الذي هو احد نتاجات العصر الحديث يشكل تحدياً وتهديداً لبعض الأديان، وذلك بسبب ما يطرح من أفكار تتجاوز فيه العديد من الثقافات والعادات والتقاليد، فهي تشكل تحدياً لمنظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية في بعض الأحيان (٤).

إن العولمة ليست مجرد سيطرة وهيمنة وتحكم بالسياسة والاقتصاد فحسب، ولكنها ابعد من ذلك بكثير، أذ أنها تمتد لتطاول ثقافات الشعوب، وتُعمم انموذجاً من القيم والسلوك وطرائق العيش والتدبير والتفكير، ومن ثم تحمل ثقافة غربية بشكل عام وأمريكية بشكل خاص. وقد أكد على ذلك الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب بنفسه حين قال:"إن القرن القادم، القرن الواحد والعشرين، سيشهد انتشار القيم الأمريكية وأنماط العيش والسلوك الأمريكي(٥).

فالغزو الثقافي يهدف إذن إلى جعل العالم يتمحور حول نمط واحد في السلوك والعادات والعلاقات من دون أي اعتبار أو تقدير لثقافة الشعوب، وخصوصياتها. ولأجل ذلك تسعى الولايات المتحدة الأمريكية للترويج لثقافتها وطريقة حياتها، بوصفها النموذج الأفضل والأرقى،

---

(١) عبد الرشيد عبد الحافظ، الآثار السلبية للعولمة على الوطن العربي وسبل مواجهتها، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥، ،ص٤٦.

(٢) سناء كاظم كاطع ، الفكر الإسلامي المعاصر والعولمة، دار الغدير، بيروت، ط١،٢٠٠٥.، مصدر سابق، ص٢٠١.

(٣) عبد الرسول عبد جاسم، العولمة مابين المواجهة والقبول، في مجلة المستقبل العراقي، مركز العراق للأبحاث، العدد ٦، بغداد، اذار ٢٠٠٦، ص ٥٤.

(4) . Birgit Schaebler and Leif Stenberg, Globalization and the Muslim World, Syracuse University Press, United States, 2004, P.44.

(٥)عابدين الشريف، الاعلام والعولمة والهوية المؤثر والمتأثر، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر،ط١، ليبيا،٢٠٠٦،ص١٣٤.

وتريد من الدول الأخرى ان تعيش الحياة الأمريكية من مأكل وملبس وعلاقات اجتماعية.وترويج هذه النظرية وتصديرها إلى العالم العربي والاسلامي يتم بهدف تقويض منظومة القيم والأخلاق في المجتمع العربي والإسلامي(١).

لقد أدى الاتجاه الغربي إلى الحد من الدور الديني للأسرة، وكذلك القضاء على التنسيق الفكري والعقائدي والفلسفي ومتانة التضامن الأسري في المجتمعات العربية. وأدى أيضاً إلى اتساع الهوة الفاصلة بين الأجيال المختلفة. فعندما لا يوجد للأسرة دور ديني وصائغ للأفكار، يصبح من الممكن للأبناء اعتناق نظام قيم مختلف عما يعتنقه الآخرون، فيحصل بالتأكيد تصادم بين معتقداتهم ومعتقدات الوالدين، فيتحول الأمر إلى اندلاع عامل لإيجاد أزمات أسرية داخلية وفرقة اجتماعية(٢).

إن المادة الإعلامية والثقافية الغربية، والأمريكية تحديداً، لا تجد حتى الآن صعوبة تذكر في الوصول إلى عقل وفكر ووجدان المتلقي في دول العالم الثالث، وخصوصاً الدول العربية(٣)، ومن المعروف ان الغرب، ببعديه الأمريكي والأوروبي، يتحكم بأكثر من ٨٠% من المادة الإعلامية التي تبث عالمياً، وان الولايات المتحدة الأمريكية تتحكم بنسبة ٦٥%من هذه المادة الإعلامية. وقد سبق لمستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق (بريجينسكي) أن ذكر:"انه يتوجب على الولايات المتحدة التي تملك هذه النسبة العالية من المادة الإعلامية ان تشيع في العالم النموذج الأمريكي للحداثة من خلال تعميم المعايير والمبادئ الأمريكية(٤).

لقد بلغت الهيمنة الأمريكية في مجال تدفق البرامج الإعلامية والتلفزيونية في دولة صناعية متقدمة مثل كندا حداً، جعل بعض الخبراء يشير إلى ان الأطفال الكنديين أضحوا،من كثرة مشاهدتهم برامج أمريكية،لا يدركون أنهم كنديون. وقد عبر وزير الخارجية الكندي الأسبق (فولكز) عن ذلك بقوله:" لئن كان الاحتكار امراً سيئاً في صناعة استهلاكية فانه أسوأ إلى أقصى درجة في صناعة الثقافة حيث لا يقتصر الأمر على تثبيت الأسعار وإنما تثبيت الأفكار أيضاً (٥).

وتكمن خطورة وسائل الاعلام التي تقودها قوى العولمة في أنها تتبنى منطلقات مخالفة لمنطلقات الثقافة العربية، فتركز على جيل الناشئة والأطفال العرب الذي يعد تربة خصبة لتقبل أفكارها عن طريق إنتاج برامج ومسلسلات الأطفال التي تنشر ثقافة الاحتيال والعنف وثقافة الجريمة والمغامرات البوليسية، وهذا ما يوجد نوعاً من الغربة بين الجيل الجديد وثقافة المجتمع العربي وعاداته وتقاليده، ويجعل الإنسان العربي يعيش تناقضاً داخلياً وصراعاً مع مجتمعه، مما

(١) سعد المنصوري، الإسلام وتحديات العولمة، في عالمية الإسلام والعولمة ،المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، ٢٠٠٣،ص٤١٧.

(٢) علي محمد النقوي، الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي، ترجمة عبد الكريم محمود، رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، طهران، ١٩٩٧، ص٣٤٠.

(٣)عابدين الشريف، مصدر سابق، ص١٨١.

(٤) حسن البزاز، عولمة السيادة: حال الامة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط١، بيروت،٢٠٠٢،ص٧٥.

(٥) عمر كامل حسن، الجغرافية السياسية الجديدة للعالم العربي في ضوء العولمة الثقافية، دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع،دمشق،٢٠٠٨، ص٤٧-٤٨.

يؤدي إلى أضعاف التماسك الاجتماعي ويجعل الجيل الجديد ضعيف الارتباط بقيم مجتمعه وتاريخه وتراثه[١].

إن كل ذلك يعني ان تعميم القيم الأسرية والاجتماعية الغربية يضر كثيراً بالقيم الإنسانية العربية، ويوجه ضربات مؤلمة للتجمعات البشرية، فتعطيل الأسرة واضعاف وظائفها، مثل وظيفة التناسل والتزاوج الشرعي ما بين الرجل والمرأة، وتحويل هذه الوظيفة إلى مجاميع شاذة من الرجال والنساء لا ينجبون أطفالاً، وتعميم ما أصطلح على تسميته (الزواج المثلي)، إن ذلك يشكل خطراً جسيماً على المجتمع البشري إذا استفحلت هذه الظاهرة التي بدأت تتفشى في المجتمعات الغربية [٢].

لقد أصبح انبهار الشباب العربي بالإعلام الغربي يمثل خطراً يهدد مستقبل الثقافة العربية، كما ان نجاح الاعلام الغربي واستخدامه للتكنولوجيا يمثل تحدياً حقيقياً للثقافة العربية، مما جعل المثقفين العرب يخشون من ان تحل الثقافة الغربية مكان الثقافة العربية في الألفية الثالثة[٣]، وهو ما دفع بعض الباحثين إلى توقع حلول " اللحظة قريباً التي يعيش فيها شباب العالم بنفس الطريقة، ويحملون نفس الثقافة، ويفكرون بنفس العقلية، ويستخدمون نفس الأدوات، ويطمحون إلى نفس الأحلام والأهداف، فضلاً عن جعل المرأة وسيلة من وسائل الدعاية والجذب التجاري لتحقيق اكبر قدر ممكن من المكاسب والمصالح[٤] .

ومن الآثار السلبية الاخرى التي تواجهها المجتمعات العربية بفعل الغزو الثقافي، هي حالة الاغتراب لدى الأفراد. والاغتراب تعبير عن عدم الرضا عن الواقع المعيشي، ورفض منظومة القيم للمجتمع وثقافته، والشعور بالفقدان، ولاسيما فقدان الذات،حيث يكون لدى الفرد شعور بالبؤس، فلا يستطيع بحرية ان ينمي طاقته الفسيولوجية أو العقلية، مما قد يؤدي إلى زيادة العنف والجريمة والنزعة العدوانية والتدمير والتحلل من القيم الموروثة.وبذلك تتهيأ الفرصة لحدوث صراع حاد بين الأجيال يقوض أركان التماسك الاجتماعي وينمي الفردية،ويضعف الولاء للمجتمع ،فضلاً عن التقليل من أهمية الانتماء إلى التراث الوطني، والتراث الحضاري[٥].

وبات واضحاً أن الاختراق الثقافي والفكري يعمل على تهديد منظومة القيم العربية الأصيلة، ويشكل نوعاً من الازدواجية الثقافية التي تجتمع فيها تناقُضات الأصالة والمعاصرة، مما يؤدي إلى تهميش أو تغيير ملامح الثقافة الوطنية[٦]، ويقول محمد عابد الجابري في المسالة الثقافية في الوطن العربي:" اننا معرضون لغزو ثقافي مضاعف: وهو الغزو الكاسح الذي يحدث على مستوى عالمي، والغزو الذي تمارسه علينا الدول الاستعمارية التقليدية. اما الوسائل فهي نفسها: الاعلام بالمعنى الواسع والمتشعب، الاعلام الذي يغزو العقل والخيال والعاطفة والسلوك، ناشراً

(١) نفس االمصدر،ص٤٩.

(٢) تجدر الإشارة إلى ان بعض البلدان الغربية، مثل الدانمارك وفرنسا وهولندا وأمريكا بدأت تشرعن الزواج المثلي بطرق قانونية لا يجد فيها الأفراد حرجاً في ظل حماية المؤسسات والقوانين.

(٣) جمانة رشيد شومان، الثقافة العربية الإسلامية وتحديات العولمة الثقافية، دار الشجرة للنشر والتوزيع،ط١،دمشق،٢٠٠٣،ص٩١.

(٤) مؤيد عبد الجبار الحديثي، العولمة الإعلامية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان،٢٠٠٢،ص١٨٢.

(٥) محمود السيد، الهيمنة المعلوماتية والإعلامية وآثارها، في الدولة الوطنية وتحديات العولمة في الوطن العربي، مرجع سابق، ص٢٠٤.

(٦) عبد الغني عبود و حامد عمار، التربية والتعددية في الألفية الثالثة، دار الفكر العربي،ط١، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١١٨.

قيماً واذواقاً وعادات جديدة تهدد الثقافات الوطنية والقومية في أهم مقوماتها ومكامن خصوصيتها[١].

المطلب الثاني: ازمة الهوية الثقافية العربية :

تواجه فئات من دول العالم الثالث، ومنها الدول الاسلامية، مشاكل وأزمات خطيرة تهدد وحدتها الوطنية بالتصدع والانهيار. ولعل اخطر هذه الأزمات وأكثرها جدلاً هي أزمة الهوية الوطنية التي تتعلق بتكوين شعور مشترك بين أفراد المجتمع الواحد بأنهم متميزون عن غيرهم من المجتمعات الأخرى[٢].

وتعرف الهوية بأنها الميزة التي تُمكن الفرد من التعرف إلى نفسه ضمن فئة اجتماعية معينة ينتمي اليها، وعن طريقها يتعرف عليه الآخرون، باعتباره منتمياً إلى تلك الجماعة[٣].

فالهوية الثقافية كيان يصير ويتطور وليست معطى جاهزاً ونهائياً. أنها تتكون وتتطور إما باتجاه الانكماش وإما باتجاه الانتشار. وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم وانتصاراتهم وتطلعاتهم، وكذلك باحتكاكها سلباً وإيجاباً بالهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تغاير من نوع ما[٤]،وهدف الغرب، منذ زمن، إلغاء الهوية العربية الإسلامية بدءاً بالحركات التي استهدفت الإسلام وانتهاءً بالحركات الاستعمارية التي حاولت طمس اللغة العربية، ومحاولة تغريب العرب وتسييد النمط الغربي، وبث اعتقاد لدينا بأن النمط الناجح هو النمط الغربي. وبدت هذه الفكرة أكثر وضوحاً عند بعض المفكرين العرب، فهذا سلامة موسى يقول:" يجب علينا ان نخرج من آسيا ونلتحق بأوروبا. واني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له". وهذا معناه ان الغرب استطاع ان يحقق رواجاً لأفكاره في الشرق، بل أصبح التغريب عند بعض مفكرينا العرب شكلاً من أشكال العصرنة وأمراً يحقق التقدم. وكان هذا في بدايات القرن العشرين أي قبل الثورة المعلوماتية، فكيف بالعرب وهم في القرن الحادي والعشرين؟[٥].

وحينما تتعرض أي امة للاقتحام الحضاري من حضارة وافدة، لها من القدرة ما يمكنها من الهيمنة على مقدرات تلك الأمة واختراق خصوصياتها، تمتد آثار ذلك كله إلى الهوية والثقافة والفكر والأدب والفنون، والى اللغة في المقام الأول[٦]، ويقول الدكتور محمد المجذوب:"أننا في الوقت الذي نهتم فيه بإتقان اللغات الأجنبية نعمد، في المدارس والمعاهد، إلى إهمال لغتنا العربية حتى باتت غريبة في بلادها. وهذا ما جعل مجامع اللغة العربية في العقود الأخيرة تكرر شكواها من تدهور مستوى الاهتمام باللغة العربية، وتراجع اللغة الفصحى أمام اللهجات العامية

(١) يحيى اليحياوي، العولمة والتكنولوجيا والثقافة، دار الطليعة للطباعة والنشر،ط١، بيروت،٢٠٠٢،ص٤٠.

(٢) رشيد عمارة ياس، ازمة الهوية العراقية في ظل الاحتلال، في المجلة العربية للعلوم السياسية، الجمعية العربية للعلوم السياسية، العدد ١٤، بيروت، ربيع ٢٠٠٧،ص٩.

(٣) حسن بحر العلوم،العولمة بين التصورات الإسلامية والغربية، معهد الدراسات العربية والإسلامية، بيروت، ٢٠٠٣. ص ١١٧– ١١٨.

(٤) محمد عابد الجابري،العولمة والهوية الثقافية، في العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٩٨.

(٥) علي عبد الهادي المرهج، العرب والغرب وأزمة الهوية في زمن العولمة، في الشرق والغرب من الاستشراف إلى العولمة، العارف للمطبوعات، ط١، بيروت،٢٠٠٩، ص١٤٦.

(٦) ثامر حسن جاسم، اللغة العربية في عصر العولمة، في الشرق والغرب من الاستشراف إلى العولمة، العارف للمطبوعات، ط١، بيروت،٢٠٠٩ ص٢٠٣.

المستخدمة في وسائل الاعلام، وتخفيض ساعات تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات، وانتشار المدارس الأجنبية والتدريس باللغات الأجنبية على حساب العربية"[١].

إن وضع اللغة العربية في هذه المرحلة من تاريخنا العربي وضع حرج جداً، فهناك حملة واسعة تتقصد النيل من كل الثقافات الإنسانية ذات الجذور الحضارية المتأصلة، وفي مقدمتها الثقافة العربية الاسلامية[٢] وبهذا فان عولمة اللغات يمكن اعتبارها عملية تحتم استعمال بعض اللغات في الاتصالات الدولية وإهمال اللغات الأخرى التي قد تختفي بسبب نقص المتحدثين بها[٣].

ونجد كذلك أن وسائل الاتصال والتكنولوجيا، بكل حداثتها، تغزو طرائق التعليم، وأساليب نشر الثقافة، بمضمونها الذاتي ليتأثر الفكر العربي والاسلامي، بالفكر المعولم. وسيوجد هذا في المديين المتوسط والبعيد، فجوة هامة بين الثقافة العربية في السابق والحاضر. في حين ان الدول العربية والاسلامية لا تملك أساليب وطرق المقارنة ،لأنها تأخذ دور المتلقي دائماً[٤].

إن الجهات القادرة اليوم على استثمار الطفرة التقنية الهائلة في الاتصالات والمعلومات، هي جهات غربية وأمريكية بوجه خاص، توفرت لها كل الإمكانيات الضخمة، التي تؤهلها للتفوق واكتساح أي منافس لها. فمعظم النتاج الإعلامي والثقافي الذي يغطي البث الفضائي والأرضي والوسائط الإعلامية الأخرى، وكذلك معظم محتوى شبكة الانترنت، هو نتاج أوروبي وأمريكي في الغالب. وهذه المواد الإعلامية الغربية ليست فارغة من المعاني أو محايدة في أفكارها، بل تحمل فكراً محدداً، وتعبر عن ثقافة معينة هي ثقافتهم الخاصة بكل ما تحمله من قيم وعادات وتقاليد وأنماط سلوك[٥].

وإذا كان نهج العولمة ينطوي على خطر التفكيك الذي يطاول كل شيء، بما في ذلك الإنسان نفسه، اذ يفصل الإنسان عن وطنه وأمته ودولته ودينه ليصبح فارغاً من أي محتوى فكري وثقافي وسياسي، وتفرض عليه إيديولوجيا العولمة الغربية. ففكرة العولمة الثقافية في صراعها الحقيقي مع الثقافة العربية وهويتها القومية، تتعمد للنيل من الشخصية القومية العربية كتعبير عن الوجود الحضاري للأمة العربية[٦].

من جانب اخر لقد حاول الاستعمار الغربي تأكيد عجز الدولة الوطنية في العالم العربي. فقد نقلت تلفازات العالم صور نهب متاحف بغداد ومكتباتها وحرق رموز سيادتها في عام ٢٠٠٣. وهذا الترويج الإعلامي لمظاهر التخريب لا يعدو ان يكون رسالة أمريكية واضحة إلى العالم، تريد من خلالها الإدارة الأمريكية ان تثبت بان هذه الامة ذات الإرث الحضاري العميق

(١) محمد المجذوب، التنظيم الدولي، منشورات الحلبي الحقوقية،ط٨، بيروت،٢٠٠٦، ص٣٧٩.

(٢)عبد السلام المسدي، نحو وعي ثقافي جديد، مجلة دبي الثقافية، العدد ٣٤، دبي، ٢٠١٠،ص١٧٩.

(٣) حاتم حميد محسن، الموجز في العولمة، دار كيون للطباعة والنشر، ط١، دمشق، ٢٠٠٨، ص٨٣.

(٤)عماد يونس، العولمة: تاريخ- أبعاد ومؤثرات على العالم العربي، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، ٢٠٠٥،ص١٦٤.

(٥)عبد الرشيد عبد الحافظ، مصدر سابق، ص ٤٤- ٤٥.

(٦) عمر جمعة عمران العبيدي، العولمة والتحول الديمقراطي في الوطن العربي، رسالة ماجستير في العلوم السياسية، كلية العلوم السياسية/ جامعة بغداد،٢٠٠٣.، ص١٢٨.

هي امة مفككة ومتفسخة وخالية من كل الضوابط بدليل انها تدمر رموزها ومكتسباتها ومتاحفها وانتاجاتها المادية والرمزية وتفتك بمؤسساتها فتكا [١].

وتوصلت أول دراسة علمية قامت بها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، حول الثقافات الوطنية في ظل الغزو الثقافي، إلى ان دولاً كثيرة قد شهدت تراجعاً في ثقافتها وتراثها لصالح ثقافات دخيلة. ويقول (هيرنان كريسبو تورال) المدير التنفيذي السابق لمنظمة اليونسكو:" ان هذه الدول التي شهدت ثقافتها وتراثها تراجعاً، تناست هويتها وثقافتها وأغفلت أهمية الحفاظ عليها متصورة ان الأمور الاقتصادية وتحقيق الربح هو أهم شي، وان الثقافة تحقق التنمية الاقتصادية والرخاء، وأن أية دولة تمتلك ثقافة وطنية قوية تستطيع مقاومة جميع جحافل الثقافة الواردة من الخارج"[٢].

حيث خشيت بعض الدول على ثقافتها وعلى لغتها من أن تطغى عليها هذه الثقافة الوافدة. وكان من هذه الدول، فرنسا واليونان اللتان هاجمتا الولايات المتحدة هجوما عنيفا في المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي نظمته اليونسكو في المكسيك سنة ١٩٨٢ م، حتى إن فرنسا امتنعت عن التوقيع على القسم الخاص بالسلع والمواد الثقافية من اتفاقية "الجات[٣].

فقلق الفرنسيين على شخصيتهم وثقافتهم وهويتهم يبدو شديداً، وقد أثار رئيس فرنسا الأسبق (فرانسوا ميتران) بصراحة إشكالية الخطر الذي تتعرض له الشخصية الفرنسية والثقافة الفرنسية، بل هوية فرنسا الحضارية، من جراء طغيان الثقافة الأمريكية، فقال:"سنكون جميعاً فقراء أمام تهديد الغزو الثقافي الانجلو سكسوني"[٤] ، ومن جانب آخر تقول وزيرة الثقافة والتراث الكندية السابقة: " إن المعادلة الصعبة التي تواجهها كندا ودول كثيرة من تلك التي يؤرقها الغزو الثقافي الأمريكي لهويتها وثقافتها هي انه بات من الصعب الوقوف بوجه المد الثقافي الأمريكي". في حين أن العالم يتجه إلى إزالة الحواجز التجارية والأيديولوجية ورفع القيود الاقتصادية والسياسية، يحتاج هذا العالم إلى حائط جديد للحفاظ على ثقافات وتراث الدول المختلفة من الضياع[٥].

وإذا كان هذا هو موقف هذه الدول الغربية من ظاهرة الغزو الثقافي، وهي دول تنتمي إلى نفس الحضارة التي تنتمي إليها الولايات المتحدة الامريكية، فكيف تكون الحال مع شعوب العالم الثالث التي تختلف عن هذه الدول الغربية في الجوهر والكيان، وقد تصل ثقافاتها معها إلى حد التناقض؟[٦].

---

(١) المنصف وناس، تحديات الدولة الوطنية في ظل العولمة العسكرية، في السيادة والسلطة– الآفاق الوطنية والحدود العالمية،مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ٢٠٠٦،ص٩٨.

(٢) محمد عبد القادر حاتم، العولمة مالها وما عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.،ص٥٠١.

(٣) خيام محمد الزعبي، العولمة الثقافية وتاكل الهوية الوطنية، مجلة قضايا سياسية، العدد ٤٧، بغداد،٢٠١٧،ص٢٦٠.

(٤) احمد حيدوش،العولمة والمقارنة الثقافية، في العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،ط١، بيروت، ٢٠٠٩،ص١١٥.

(٥) محمد عبد القادر حاتم، مصدر سابق ،ص٥٠٢.

(٦) خيام محمد الزعبي، مصدر سابق، ص٢٦٠.

وبهذا فأن ما تسعى اليه بعض الدول الغربية هو إفراغ الهوية الثقافية العربية من محتواها، ليصبح الفرد مرتبطاً ومديناً بالولاء لأطراف خارجية او للنموذج الغربي، ويبدأ بالمطالبة بإرساء هذا النموذج بكل ما يحتويه من عيوب. وقد جاء هذا الأمر بعد التعرض لفيض كبير من الشعارات والاحداث والصور المؤثرة والأفكار والمعلومات، وحتى الخدمات والسلع والقيم الاجتماعية الاتية والموجهة من الغرب. وفي ظل هذه الأوضاع يبرز التحدي الكبير الذي تواجهه الأنظمة السياسية العربية، حول مدى إمكانيتها لبناء ثقافة سياسية وطنية قومية قادرة على جذب المجتمع بكل فئاته اليها، بالشكل الذي يحافظ على خصوصيتها النابعة من واقعها الثقافي والسياسي على مر التاريخ ومن دون ان تنغلق على الثقافات الأخرى[١].

المبحث الثاني: اليات مواجهة الغزو الثقافي

مما لاشك فيه أن الغزو الثقافي والفكري هي على درجة عالية جداً من الخطورة، بشكل بات يهدد منظومة القيم والأخلاق والعادات والتقاليد التي دأب مجتمعنا العربي الإسلامي على ممارستها منذ أقدم العصور، والتي استلهم معظمها من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. ولذلك فأن التصدي لهذا التهديد يتطلب هو الآخر التفكير في وضع آليات من شأنها ان تعمل على اعتراض وصد هذه التهديدات. وهذا الجزء من الدراسة مخصص لهذا الموضوع.

المطلب الثاني: تطوير المناهج التعليمية في العالم العربي :

لا شك في أن التعليم هو المفتاح الحقيقي للتنمية السليمة، حيث تتمثل مخرجاته في بناء وتنمية الإنسان، وترسيخ ثقافته الوطنية، ووضع الأسس الصحيحة لبرامج ومشروعات التطوير والتحديث، لأن بناء الإنسان وتعزيز ثقافته الوطنية يكونان من خلال التعليم الجيد، فالتعليم الجيد يؤدي إلى تنمية جيدة والتعليم الفاسد يقود إلى التخلف.

وإذا افترضنا إن جميع أنظمة التعليم في الدول العربية بحاجة إلى تطوير وإصلاح، في ضوء تداعيات العولمة على قطاع التعليم، فإن نقطة البدء في تحقيق ذلك تبدأ بالتقويم. فالتقويم الصحيح هو الذي يمكننا من تقديم الحلول المناسبة، ولكن هناك مجموعة من الإشكاليات والعقبات التي ترتبط بعملية تقويم التعليم وتعيق تحقيقها بالشكل المطلوب. وغالبية تلك الإشكاليات والعقبات هي ذات إبعاد ومضامين سياسية وليست تعليمية[٢].

أما بشأن الطرق المتبعة في تقويم التعليم، فيمكن القول إن عمليات تقويم التعليم في الدول العربية تواجه ثلاث مشاكل رئيسة لابد من تلافيها، وهي:

١. عدم الاهتمام بتقويم نتائج برامج التطوير. فنجد مثلاً أن غالبية أو جميع مؤسسات التعليم العربية تقرر دورات تدريبية لأساتذة المدارس، ويلتحق المدرسون بالدورات المطلوبة،

---

(١) ثامر كامل الخزرجي و ياسر علي المشهداني، العولمة وفجوة الأمن في الوطن العربي، دار مجدلاوي للنشر، ط١، عمان، ٢٠٠٤، ص١١٨.

(٢) عثمان الرواف، السبيل إلى تقويم التعليم في الدول العربية، 2017/7/7 ، متاح على الرابط : http://www.almualem.net/tagweem2.htm.

وتنتهي المسألة عند هذا الحد. ويعود الأساتذة إلى التدريس وغالباً ما يبقى أداؤهم التعليمي على وضعه الأول الذي سبق التحاقهم بالدورة.

٢. إن عملية تقويم أهداف وسياسات ومناهج وبرامج التعليم لا تهتم بمعرفة مدى النجاح في نشر وتجسيد ثقافة التنمية بين الطلبة. فجميع المجتمعات العربية هي مجتمعات نامية ولم تزل ثقافة التنمية في الوطن العربي تواجه مشاكل قيمية وفكرية عديدة، تعيق بلورتها وتجسيدها في العقول والقلوب. ويُفترض في برامج ومناهج التعليم العربية أن تُوجه ليس فقط لخدمة برامج التنمية، وإنما للمساعدة في تكوين وتأسيس ثقافة التنمية بين الطلاب والطالبات.

٣. تقتصر عمليات التقويم غالباً على دراسة علاقة المنجزات بالأهداف وتفتقر إلى المقارنة مع الآخر فيما يتعلق بأهداف وسياسات ومناهج التعليم وغيرها من الموضوعات المعنية بالتقويم. ويجب اتخاذ قرارات سياسية عربية، تلزم بإجراء المقارنة بين الدول العربية وبينها وبين الدول المتقدمة ولاسيما فيما يتعلق بمناهج ووسائل التعليم وبأداء المدرسين، فعدم الاعتماد على المقارنة يفقد التقويم أهميته الأساسية[١].

إن أول وابرز حقيقة تفرض نفسها هو التركيز على التربية والتعليم لبناء ذاتية ثقافية وطنية وقومية. ولنا في النموذج الياباني دليل أكيد. فالعالم بالنسبة لليابابي ما هو إلا مدرسة واسعة، لا تفرض مناهجها وأفكارها على الطالب، وإنما الطالب " أي الياباني" هو الذي يختار ويغربل من علومها وتجاربها ما يشاء وكيف يشاء من خلال نظام تربوي وتعليمي وعائلي ومؤسسي[٢].

إن تحقيق ذلك يتطلب بناء تعليم بمستويات وتخصصات تقوم على إقصاء الإيديولوجيات المتطرفة في عالم المعرفة وإشاعة الروح النقدية مكانها، لان التعليم في الوطن العربي اغلبه يقوم على التلقين ويخلو من روح النقد والحوار البناء، وتعزيز الوحدة الثقافية، وذلك بإنشاء محطات إرسال سمعية- بصرية عبر الأقمار الصناعية تشرف عليها المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم، وتكون موجهة لتعزيز الثقافة العربية والإسلامية وتعميم المنجزات الثقافية والفكرية العالمية ذات الطابع الإنساني الهادف لخدمة المجتمع العربي، سواء على مستوى المعرفة والتنوير أم على مستوى التسلية والترفيه[٣].

لقد أمسى التعاون العربي الفعال ضرورة ملحة لنهضة تعليمية في الدول العربية. ولكي يحقق نسق التعليم العالي الدور المبتغى منه في تطوير المجتمعات العربية، يجب أن يستهدف إعداد أفراد قابلين للتعلم المستمر، عوضاً عن مجرد متعلمين، وان يسهم عضوياً في نهضة المجتمع. ولهذا يتعين أن يكتسب التعليم العالي مقومين أساسيين، هما التنوع والمرونة، وبخاصة في الاستجابة لمقتضيات التغيرات السريعة محلياً وعالمياً[٤].

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) وصال نجيب عارف العزاوي، قضايا في العولمة، سلسلة دراسات استراتيجية، جامعة بغداد/ مركز الدراسات الدولية، العدد ٨٣، بغداد، ٢٠٠٥، ص١٩.

(٣) أياد رشيد محمد، العولمة وانعكاساتها الثقافية على الوطن العربي، رسالة ماجستير، المعهد العالي للدراسات السياسة والدولية/ الجامعة المستنصرية، بغداد ، ٢٠٠٤،ص١٠٤- ١٠٥.

(٤) . نادر فرجاني، التعليم العالي والتنمية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨،ص١٣٥-١٣٦.

ولا يحصل مزيد من التقدم في التعليم الجامعي والبحث العلمي دون إطلاق حرية الفكر والتعبير وحصول التنافس في الإنتاج. وبين أهم خصائص أو متطلبات تعزيز الثقافة في هذا المجال يتمكن المثقفون من إنشاء وتأسيس وإدارة روابطهم واتحاداتهم وجمعياتهم غير الحكومية. واقل ما هو مطلوب في هذا المجال التوقف عن مصادرة الكتب ورفع الرقابة التي تمارس على الفكر وإنشاء المعرفة[١].

لا شك في أن حسن إعداد المناهج الدراسية يعتبر الخطوة الأولى للإصلاح التعليمي التربوي في المجتمعات العربية. وإعداد تلك المناهج لابد أن يكون مبنياً على عدة أسس أهمها:

١. أن يكون المنهج الدراسي المعد وفق رؤية شاملة، أي فلسفة عليا، تستهدف إيصال أفكار وقيم ومفاهيم وعلوم محددة إلى ذهن الطالب تنسجم مع قيم ومعتقدات المجتمع واحتياجاته.

٢. أن يتم تحديد إطار عام للمعارف والعلوم التي يجب أن يحصل عليها الطالب خلال سنواته الدراسية الممتدة من الأساسي إلى الجامعي.

٣. أن يتم تقسيم هذه المعارف إلى أجزاء مناسبة تدرس كل منها في سنة دراسية وفق السلم التعليمي، ويراعي في هذا التقسيم مناسبة المادة لكل مرحلة سنية.

٤. أن يتم عرض المادة العلمية بأسلوب مناسب، في شكل يلائم المرحلة السنوية للطالب ويحقق الغرض منه.

٥. أن تكرس هذه المناهج الأسلوب العقلاني في التفكير بالتدريب على الاستقراء، والاستنباط، والتحليل، والمقارنة، وربط النتائج بأسبابها، وتشجيع البحث العلمي وحب الاطلاع وإفساح المجال للتفكير والإبداع والتفاعل بين الطلاب ومعلمهم، ولا يكفي التلقين فقط من طرف والحفظ فقط من الطرف الآخر[٢].

وبغض النظر عن حركة التطوير للتعليم التي تبنتها أغلب الدول العربية لمواجهة التحديات والتغيرات المرافقة للعولمة، والمتمثلة بإعادة النظر وإصلاح المناهج لكي تواكب متطلبات المرحلة الجديدة، إلا انه ما زالت الاختلالات موجودة في جسد التعليم في اغلب الدول العربية. وفي هذا المجال يرى بعض الباحثين أن المناهج الدراسية في الدول العربية تبدو كأنها تكرس الخضوع والطاعة والتبعية، ولا تشجع التفكير النقدي الحر، فمحتوى المناهج يتجنب تحفيز الطلاب على نقد المسلمات الاجتماعية أو السياسية ويقتل فيهم النزعة الاستقلالية والإبداع[٣].

ان مواجهة تداعيات الغزو الثقافي يتطلب الاهتمام والتأكيد على الدراسات المستقبلية التي أصبحت ضرورة ملحة ، لمواجهة تلك التحديات وإيجاد البدائل للتعامل معها وتقليل آثارها واستثمار منافعها. ومن خلال ذلك لم يعد دور الجامعات والمعاهد مقتصراً على مواجهة التحديات

(١) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨، ص٥٧٣ .

(٢) . عبد الرشيد عبد الحافظ،مصدر سابق ص٩٨-٩٩.

(٣) رعد سامي عبد الرزاق، العولمة والتنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم السياسية/ جامعة النهرين، بغداد، ٢٠٠٦ ، ص١٢٧.

الآنية فحسب بل أضحى يمتد إلى ممارسة عملية الاستشراف والتنبؤ بالتحديات المستقبلية واتخاذ الإجراءات اللازمة والبدائل المتاحة لمواجهتها[١].

إن تراجع الأنظمة التربوية التعليمية في الدول العربية هو دليل على عدم قدرتها على التكييف مع الواقع الجديد الذي افرزته ظاهرة العولمة . أما إعادة الاعتبار لتلك الأنظمة، فتتم عبر انجاز إصلاحات تمتاز بطابع الجرأة والتجديد، وذلك على مستويين:

١. **مستوى الوسائل التعليمية،** حيث يجب العمل على إدماج التقانة الحديثة في مجال الاتصال ضمن الأدوات والوسائل التعليمية، وذلك بالرغم من كلفتها الباهظة.

٢. **مستوى المضامين،** حيث يجب العمل على إدماج قيم الحداثة ضمن المناهج التعليمية، وذلك بواسطة التفتح على المعرفة الحداثية والمضامين العصرية، واعتماد تصور جديد للعلاقة بين التقليد والحداثة في المناهج الدراسية[٢].

إن النظام التعليمي التربوي في الوطن العربي يحتاج إلى إعادة نظر في صياغته وغاياته، وأغراضه، وأهدافه، ومناهجه، وبنياته، في ضوء عولمة المعرفة التي أصبحت تفرض نفسها يوماً بعد يوم. ولا يمكن انجاز ذلك إلا بعد تهيئة أرضية ملائمة تتمثل في القيام بنقد العقل التربوي السائد، ونقد الممارسة التربوية الحالية وطنياً وقومياً[٣].

وعلى صعيد التعليم الجامعي والعالي في الوطن العربي، فإن هناك العديد من التحديات والمشاكل التي تحتاج إلى حلول ناجعة لمواجهتها في الحاضر والمستقبل، مما يدفع بنا إلى ضرورة اقتراح بعض التوصيات، وذلك بوضع إستراتيجية مشتركة للنهوض بالتعليم الجامعي تتجه إلى إحياء المشروعات العلمية المشتركة التي انطلقت ثم عطلت أو ما زالت قيد الدراسة. ولعل أهم تلك التوصيات ما يأتي:

١. تقوية التعاون بين الجامعات العربية وتبادل الأساتذة، وإقامة مشروعات تأليف مشتركة للكتاب الجامعي العربي.

٢. تقوية الصلات بين مراكز البحوث العلمية وهيئات البحث العلمي في الوطن العربي.

٣. ربط المكتبات الجامعية ودور الكتب في الأقطار العربية بعضها بالبعض الآخر مثل ما هو معمول به في الدول المتقدمة.

٤. العمل على الاستفادة من العقول العربية المهاجرة كأساتذة زائرين، أو مشاركين في بحوث مشتركة.

٥. حشد كل الطاقات لإنجاح خطط التعريب مع الارتفاع بمستوى التحصيل، ومواكبة الحركة العلمية العالمية.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) عبد الله الخياري، التعليم وتحديات العولمة، في العولمة وأزمة الليبرالية الجديدة، مصدر سابق،ص١٥٥-١٥٦.

(٣) نفس المصدر السابق.

٦. إعادة النظر في توزيع الجامعات العربية ليتناسب موقعها مع الكثافة السكانية والإمكانات المادية والبشرية لكل قطر[١].

٧. إعادة النظر في موضوع المنح الدراسية التي تقدم من قبل بعض الجامعات الأجنبية، ولاسيما تلك المنح التي من شأنها نشر الثقافة العالمية[٢].

المطلب الثاني : تعزيز الوعي الثقافي والفكري المجسد للهوية الثقافية العربية :

امتاز عصرنا الحاضر بوفرة الإنتاج الثقافي والفكري، وتعدد اشكاله، المقروءة والمسموعة والمرئية، إلا أن الدول العربية قد تواجه اليوم وفي ظل ظروف العولمة، تحدياً متمثلاً بالإغراق الثقافي والفكري، بما يعنيه ذلك من طمس تدريجي لهوية الشعوب العربية وثقافاتها الخاصة وإحلال ثقافة أخرى بديلة عنها. لذا فإن مواجهة هذه الثقافة الأجنبية بمختلف اشكالها من قبل الدول العربية، لن تكون إلا من خلال توفير البديل المنافس لتلك المواد الأجنبية، والذي يحمل مضمون ثقافتنا وملامح هويتنا، ويسهم في تقدم ورقي امتنا، والتعبير عن واقعها وأحلامها وتطلعاتها في المستقبل[٣].

إن ملكية التراث الثقافي هي للإنسانية جمعاء، ولان الدولة أو المجتمع هو صاحب ذلك التراث الثقافي وحارس عليه، فمن واجبه حمايته والمحافظة عليه قبل الآخرين والدفاع عنه إذا لزم الأمر. فعلى مر العصور كان الاعتداء يقع على التراث الثقافي، وسيبقى ما دام الإنسان يحارب أخاه الإنسان الذي صنع ذلك التراث. وعلى مر العصور تعمد الغازي والمستعمر تدمير التراث القومي والنتاج الثقافي للبلد المهزوم، وذلك لعزل الشعوب المستعمرة عن ماضيها وعن ارتباطها بالأرض وعن انتمائها وهويتها الوطنية[٤].

وعليه فان هناك ضرورة موضوعية تحتاج من الحكومات والشركات الثقافية والإعلامية العربية الخاصة، ومؤسسات المجتمع المدني العاملة في مجال الثقافة والإعلام، القيام بمراجعة دورها والتخلي عن امتيازاتها وتطويرها بما يتماشى وتحديات العولمة الثقافية والفكرية. وهذا يحتاج إلى مراجعة الكثير من التشريعات والنظم المعمول بها في بعض الدول العربية، بالإضافة إلى الفهم العميق لقوانين العالم المعاصر وقواه ومعارفه وأدواته وسبل أدائه الناجح في ميادينه، والاستجابة لتحدياته. فالإمكانات متوافرة في الوصول إلى مستوى أفضل من الأداء مستقبلاً، على أيدي مثقفينا إذا ما يتوافر لهم المناخ الملائم لأداء علمي في ظل حرية واحترام وأفق مفتوح على المستقبل، وعدم الابتعاد عن معطيات العصر وتجنب تحدياته[٥].

ويمكن لمؤسسات المجتمع المدني ان تلعب دورا في تعزيز المحافظة على الهوية الوطنية، فالمجتمع المدني هو حلقة الوصل بين السلطة والمجتمع، وهو المسؤول عن توضيح أفكار السلطة وتطلعاتها في مستقبل الامة والمجتمع، وفي نفس الوقت يلعب دور المترجم لامال

(١) صالح هاشم، التعليم العالي في الوطن العربي، في اسس التحديث والتنمية العربية في زمن العولمة، مرجع سابق، ص٧٧.

(٢) عنان، جدلية العولمة، دار كيوان للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٦، ص٦٢.

(٣) عبد الرشيد عبد الحافظ،مصدر سابق، ص٩٤.

(٤) جمال عليان، الحفاظ على التراث الثقافي، نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث الثقافي وإدارته، سلسلة عالم المعرفة، إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٥، ص١٧٧.

(٥) أياد رشيد محمد، مصدر سابق ،ص٩٥.

وطموحات العامة من أفراد المجتمع في شكل أهداف ترقى بهذا المجتمع وتبتعد به عن مجالات الصراع والصدمات، وبالتالي يهدف إلى المحافظة على الهوية الثقافية التي تشمل الدين واللغة والعادات والسمات الوطنية التي ترتبط بالبيئة التي نشأ فيها الفرد، في ظل الاختراق الثقافي الذي يصوبه الغرب نحو مجتمعاتنا(١).

وفي سياق آخر يرى البعض أهمية اهتمام الدول العربية بإنتاج البرامج المشتركة الثقافية والفكرية لتقليل الاعتماد على المنتج الثقافي الخارجي، فهناك مجموعة نقاط من شانها إن تضعف التدفق الثقافي والإعلامي الأجنبي إلى البلدان العربية وخاصة المسموع والمرئي، وتكون لمصلحة الإنتاج الثقافي المحلي في تنافسه مع الإنتاج الأجنبي إذا أحسن استخدامها، ومن هذه النقاط:

١. عائق اللغة مهم أمام التدفق الأجنبي، وبطبيعة الحال أمام الغزو الثقافي والفكري. وهذا يجعل وسائل الأعلام والثقافة تسجل نقطة لصالح مواجهتها مع هذا التدفق.

٢. إن الأفكار المتدفقة من الخارج غالباً ما تحمل في مضمونها صفة العالمية، تلك الصفة التي تتقاطع في كثير من الأحيان مع عاداتنا وتقاليدنا ، مما يتيح المجال للنتاج الفكري المحلي الذي يتناول هموم الناس ويحدثهم بلغتهم ويحترم ذهنياتهم ويفهم تقاليدهم ويستفيد من الموروث الثقافي والحضاري للأمة إن يشكل قاعدة صلبة تقف وسائل الاتصال المحلية عليها، لمجابهة السيئ والضار من التدفق الإعلامي الخارجي(٢).

لذلك أصبح من الضروري أن تستخدم مجتمعاتنا الأدوات المعلوماتية المختلفة لمواجهة المعلومات المضادة، ونشر كل ما هو ايجابي بالاتكاء على هذه الآليات من خلال بث القيم والتقاليد والأخلاقيات العربية الأصيلة، التي من الممكن إن تقف نداً لكل ما يروج ضد الثقافة العربية عبر هذه الآليات، وذلك من خلال تأسيس فضائيات عربية هادفة ومواقع انترنت متنوعة وبناءة(٣).

ويعد الجانب اللغوي من الجوانب المهمة في هذا الشأن، إذ أن الاهتمام بالتخطيط للمستقبل اللغوي لأمة من الأمم، يعكس مستوى راقياً من الوعي بمتطلبات التغيير والتجديد وإعادة البناء على أسس ثابتة راسخة، وكذلك في تقوية القدرات الكامنة في المجتمع العربي. ودور اللغة في مجتمع المعرفة يُعد جوهرياً، فاللغة محورية في منظومة الثقافة لارتباطها بجملة مكونات الثقافة من فكر وإبداع وتربية وإعلام وتراث وقيم ومعتقدات(٤)، لذلك لابد من التوسع في نشر اللغة العربية بمختلف الوسائل، وتقدير ودعم كل الجهود التي تبذل في هذا السبيل على مستوى الدول والمنظمات والمجامع والأفراد، وتهيئة الفرص للمزيد من العناية بنشرها لغة وثقافة وحضارة، وتمتين الصلة بين الجهات المعنية بهذا الدور وطنياً وإقليمياً وعالمياً(٥).

---

(١) خيام محمد الزعبي، مصدر سابق،ص٢٨٨.

(٢) نفس المصدر، ص١٠٢.

(٣) مازن مرسول محمد، العرب والعولمة: دراسة في كيفية التعامل مع العولمة، في الشرق والغرب، مصدر سابق ،ص١٦٩.

(٤) ثامر حسن جاسم، مصدر سابق،ص٤.

(٥)عبد العزيز بن عثمان التويجري، الحوار من اجل التعايش، دار الشروق، ط١، القاهرة، ١٩٩٨.، ص٢٦.

ومن اجل تعزيز الوعي الثقافي والفكري لدى المواطن العربي، فان المجتمعات العربية مطالبة بوضع سياسات في المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية من شأنها تشجيع القراءة واقتناء الكتاب. وقد شهدت بعض الدول العربية تجارب ناجحة على هذا الصعيد من خلال برامج كبرنامج " دعم كتاب الاسرة" في مصر والأردن وغيرها من الدول الأخرى. وقد قامت وزارة الثقافة الاردنية بدعم هذا البرنامج للسنة الثالثة (٢٠٠٩) بطباعة نصف مليون نسخة كتاب، وبسعر مناسب، مما شجع المواطنين على الإقبال الشديد على هذه التجربة[١].

ومما لاشك فيه إن استثمار العطاء الفكري والقيمي المتميز للثقافة العربية لخدمة قضية التقدم والتطور الحضاري والثقافي والإنساني، وإبراز مكانة الثقافة العربية بين الثقافات الأخرى يتقاطع كلياً مع منطق الغزو الثقافي القائم على هيمنة الثقافة الغربية، والذي اعتمد على استخدام كل التقنيات ووسائل الإعلام، مما يتطلب تقييم التقنيات الإعلامية المستوردة في ضوء حاجة المجتمع ووضع ضوابط لانسياب البرامج والمواد الإعلامية والثقافية التي يكون لها اثر سلبي في مجتمعنا العربي، وكذلك السعي لإيجاد إنتاج ثقافي فكري مشترك ذي نوعية جيدة، وذلك بتقوية المقومات الأساسية للإنتاج الإعلامي والثقافي للدول العربية، وبدعم المناهج والبرامج في معاهد التدريس ومراكز التدريب الإعلامي[٢].

ويلاحظ أن عالم الجنوب ودول العالم الثالث، ومنها الدول العربية، يستهلك في المجال الثقافي والفكري أكثر مما ينتج، لأن مؤسساتنا الثقافية ضعيفة في ثقافتها واليآتها، فمن الطبيعي والحال هذه أن تصبح عرضة للتأثير والتلقي من عالم الشمال الصناعي، فهو يمتلك احدث تقنيات البث الفضائي والأقمار الصناعية والثورة الالكترونية[٣]،وفي هذا السبيل على الدول العربية اتباع ما يأتي :

١. تشجيع وإنشاء مؤسسات وشركات كبرى، لإنتاج البرامج الثقافية والإعلامية المرئية تكون قادرة على الإنتاج المتميز شكلاً ومضموناً، وقادرة على منافسة المنتج الأجنبي، مستفيدة من التقنيات المتطورة في هذا المجال، على أن تركز نشاطها في تناول قضايا المجتمع العربي الحيوية.

٢. تشجيع إنشاء دور صحافية كبرى تكون لديها القدرة على امتلاك التقنيات المتطورة في الطباعة والتوزيع وتوفير الكادر الكفؤ وشبكة مراسلين تمكنها من منافسة غيرها من الصحف الأجنبية، لتمكين القارئ من الحصول على مبتغاه من صحفه الوطنية وتغنيه عن اللجوء إلى الصحف الأجنبية. ويمكن إقامة مثل هذه الدور الكبرى باندماج الدور الصحافية القائمة في الدور الكبرى.

٣. اتخاذ تدابير عملية لإيصال الكتاب المقروء إلى قارئه بسعر مناسب. ويتطلب ذلك مساهمة الدولة في هذا الأمر من خلال القيام بشراء حقوق النشر لسلسلة من الكتب، ولاسيما ما يعرف بأمهات المراجع في مختلف العلوم والفنون، ونشرها بعد ذلك بالسعر المناسب الذي يسمح لأصحاب الدخول المحدودة بالحصول عليها.

---

(١)عزام ابو الحمام، الاعلام والمجتمع، دار اسامة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١١، ص٢٢٦-٢٢٧.

(٢) اياد رشيد محمد، مصدر سابق، ص٩٤.

(٣) حسن عبد الله العايد، اثر العولمة في الثقافة العربية،دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٤، ص١٠٣.

٤. السعي لان يكون للعرب وجود مؤثر في شبكة الانترنت التي أصبحت مصدراً هاماً للمعرفة والعلم والثقافة، والتي يجب استثمارها لصالح نشر الحضارة والثقافة العربية وتعزيزها بما يؤمن مواجهة المخاطر التي تثيرها العولمة بكل مستوياتها[١].

٥. وضع خطة عمل وإستراتيجية إعلامية بعيدة المدى تعبر عن ثوابت الأمة العربية، على شكل برامج إعلامية وثقافية تدرس الواقع وتعمل على تحصين وحماية المجتمع العربي من الاختراق الثقافي والفكري الذي يسعى إلى هدم وإزالة الهوية العربية من الوجود في عالم لا مكان فيه للآخر إن لم يكن قوياً.

٦. العمل على إنتاج الصناعات الثقافية من مواد علمية تراثية وتاريخية تعيد للأذهان قوة الإنسان العربي إذا ما توافرت له الإمكانية الإبداعية. والعقل العربي مبدع مخترع والتاريخ والنهضة الأوروبية يشهدان بذلك[٢].

٧. الانفتاح على المستجدات في العالم، خاصة في مجالات العلوم والتقانة والمعلومات وعلم اللغة الحديث بكل تفريعاته والحقول البحثية المرتبطة به، والسعي إلى الاقتباس والنقل والاستفادة الواسعة من نتائج هذه العلوم جميعاً في إغناء اللغة العربية وربطها بحركة الفكر الإنساني[٣].

(١)عبد الرشيد عبد الحافظ،مصدر سابق، ص٩٥.

(٢) حسن عبد الله العايد، مصدر سابق،ص١٤٩.

(٣) ثائر حسن جاسم، مصدر سابق،ص ٢٣٢.

الخاتمة

ساهمت ظاهرة الغزو الثقافي في تشويه الكثير من معالم الثقافة العربية من خلال تغريب الإنسان وعزله عن قيمه ومبادئه وتعميم انموذجاً من القيم والسلوك وطرائق العيش والتدبير والتفكير الغربية لم تكن موجودة سابقا في المجتمعات العربية. أن الحديث عن التصدع في ثوابت القيم والمعتقدات والتقاليد والمعارف الثقافية لمجتمعات الدول العربية ، ينذر بخطورة شديدة في الحفاظ على الموروث الثقافي العربي من الاختراق، وتحديا للهوية الثقافية الوطنية.

ولمواجهة تلك التحديات نجد أن هناك حاجة فعلية بضرورة استثمار واستغلال الثروة العلمية والثقافية المتواجدة بشكل كبير داخل المجتمعات العربية، خصوصاً في مجال الإنتاج والإبداع الثقافي والفكري المجسد للهوية الوطنية العربية. ان الدول العربية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى بالتعجيل في مسألة إعادة النظر في مناهجها التعليمية، لأن هذه القضية قد طرحت في مناسبات عديدة بغية إصلاح الجهاز التربوي والتعليمي بما يتلاءم مع خصوصيات المجتمع العربي.

لذا ينبغي للعرب أن يدركوا بأن أفضل السبل لمواجهة تداعيات الغزو الثقافي هو التحاور مع الآخر، ورفض فكرة الانغلاق بحجة الخوف من الذوبان في بوتقة الآخر، والاستفادة من الجوانب الايجابية للعولمة الثقافية حصرياً، وترك كل ماله صلة او مساس من قريب او بعيد بأخلاقيات وقيم المجتمع العربي.

آيدلوجيّة الخطاب الديني في المجتمع... العراق أنموذجاً

د. هيام طعمة مطلك[1]

جامعة طهران- برديس فارابي، كليّة الإلهيّات، قسم اللغة العربيّة وآدابها

الملخّص:

لقد احتوت آيدلوجيّة الخطاب الديني في المجتمع على دراسة موضوعيّة ذات جاذبيّة رائعة، فقد تضمّن البُعدين الديني والاجتماعي، فالمقال تضمّن دراسة موضوعيّة للإعلام الإسلامي المتمثّل في المنبر الديني في المستويين الديني والاجتماعي، وذلك لأهميّتهما في الدّراسة الموضوعيّة، وكذلك تضمّن أنواع المنابر الثلاث(المنبر الماحل، المنبر الفاشل، والمنبر العامل)، فالمنبر الماحل، أي المجادل الذي يشحن الأمّة بالبغضاء والتناحر والتدابر ومصداقه في قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(البقرة/٢٠٤)، والحائل، أي المانع، وهو المنبر الذي يتكأ على الخرافات والاساطير التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وتروي من الظمأ، وهو مانع للحقيقة، ومصداقه قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾(الحج/١١)، والعامل، أي المؤثّر الناجح، وهو المنبر الواعي الذي يواكب تطوّرات ومتطلّبات الظروف الرّاهنة من رتق الفتق، وجمع الكلمة والعمل على الأصول التبشيريّة في جذب أفراد الأمّة والخطاب المتّزن والمعتدل الهادف إلى احترام الجميع مع عدم نسيان الهدف الأصيل:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ﴾(البقرة/٢٠٧)، أو:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾(آل عمران/٦٤).

وأيضاً تضمّن ما يتوجّب على خطيب المنبر الديني، وكذلك غايات المنبر وتطلّعاته في أدلجة الإسلام الحقيقي، ودوره في حلّ المشاكل الاجتماعيّة.

ومن النتائج التي توصّل إليها المقال هي: الاهتمام بدور المنبر الديني في الاعتدال، واستعمال الآيدلوجيّة الصادقة البعيدة عن الخرافة، وكذلك الأساليب الناجعة والظافرة في جذب المتلقّين، ونشر ثقافة الاعتدال والتّسامح بينهم.

(١) جامعة طهران- برديس فارابي، كليّة الإلهيّات، قسم اللغة العربيّة وآدابها.

Summary:

The article included an objective study of the Islamic media represented in the forum at the religious and social levels, because of their importance in the objective study. It also included the types of the three platforms (the Tribal Forum, the Failed Platform, and the Platform). The worker, the Almnabr Almahl, ie, arguing that the nation is charged with hatred, rivalry and perseverance and its credibility in the verse:) The people who you like to say in the life of the world)(cow / 204))

،And al-Hail, which is the inhibitor, which is the platform that rests on the myths and legends that do not fatten and starve from hunger, and narrated from thirst, which is contrary to truth, and its credibility: The successful performer, which is the conscious platform that keeps abreast of the developments and requirements of the current circumstances of the hernia, and the gathering of the word and work on the missionary assets in attracting the nation's members and the balanced and moderate discourse aimed at respecting everyone while not forgetting the original goal:, Or: "Say, O People of the Book, come to a common Word" Al-Imran, 64

And also guarantees what is required of Khatib Husseini, as well as the goals and aspirations of the platform in the real argument of Islam, and its role in solving social problems.

One of the findings of the article is: the interest of the role of the Husseini platform in moderation and tolerance, the use of sincere ideology away from superstition, as well as effective methods and attractiveness in attracting the recipients, and the dissemination of a .culture of moderation and tolerance among them

Opening words: Ideology, moderation and tolerance, objective .study, al-Husseini pulpit

كلمات مفتاحيّة: الخطاب الديني، الاعتدال، الآيدلوجيّة، العراق.

المقدّمة:

لاشكَّ حينما يصبح الإعلام جمالاً، وحركة العقل وهجاً يعانق إشراق الكلمات، وشوقاً راقياً إلى فنون التسامح البديعة يتماهى الوعد في الفعل، فيتجلّى عن دراسة موضوعيّة تتناول أساليب، وآثار المنبر الديني في إطار يجمع بين الأصالة القديمة، والمعاصرة عند المنبريّينَ العاملينَ، فدراستنا(آيدلوجيّة الخطاب الديني في المجتمع...العراق أُنموذجاً) قد استقرّت عند مرافئ عديدة من شواطئ الاعتدال والصفاء، فارتاحت النّفس لدى أطياف النّخب المنبريّة في رسم الحقيقة، واستودعت فيها أنماط البيان والبهاء في آيدلوجيّة الاعتدال والتسامح، خصوصاً في العراق.

وللخطاب الديني أفنانٌ وألوانٌ أبدعتها ذاكرة الخطباء، فلم يقف الحُسْن في الكلام والحياة والفنّ، والاعتدال والتسامح بين الجميع عند حدٍّ معيّن لديهم، وإنّما كان يُبنى بناءً جميلاً يمتدّ إلى آفاق إنسانيّة رحبة، ومثيرة، فما خلَّفه لنا الخطيب الديني من أساليب جماليّة في فنون الاعتدال، إنّما يدلّ على مدى ولعه بالحُسْن والتسامح في كلّ شيء، ولمّا كان التّسامح روح الأثر الديني لديه، فإنّه غدا وجهاً من وجوه الوجود الحيّ والفاعل، فالحسنُ في الاعتدال الذي ترتاح إليه العين قبل النّفس أصبح سمة مشخّصة في كلّ أسلوب من أساليب كلام الخطيب العامل، وكان لخطابه منزلة كبرى في هذا المجال.

كذلك دفعتنا الرّغبة إلى تلمّس مواطن غايات المنبر وتطلّعاته المستقبليّة، وإدراك العناصر المتألّقة الفاعلة في المجتمع، والحاملة لقيم نبيلة رفيعة صافية صفاء نفوس أهلها، فقد دفعتنا الرغبة إلى استجلاء ملامح ذلك وبيان قيمتها في دراسة موضوعيّة.

إنّ دراستنا الموضوعيّة لآيدلوجية الخطاب الديني الديني لم يكن على اعتبار النسخ والتقليد أو التبعيّة والاستحضار لكلّ ما قاله القدماء والمحدثون، بل كان على وجه التحليل والدرس والفهم والاستقراء في إهاب ثوبٍ لطيفٍ شفّافٍ نسج خيوطه الذهبيّة مع معين المنابر الهادفة. إنّها دراسة تستند إلى مفهوم الاعتدال الممتد المؤثّر في جوهر العقول، فكلّما تأمّلناها بعيون مفتوحة، وقلوب يقظةٍ أبانت لنا عن مخزون عميق ناجح لا ينفد ولا ينقطع على مرّ الأجيال، فللخطاب الديني في العراق دورٌ مهمٌّ في عصرنا الحاضر، وما يتحمّل من أعباء كبيرة في تربية الأُمّة وإعدادها، وربطها بمفاهيم الإسلام الحقيقي، بالإضافة إلى دوره التّاريخي الهادف إلى إبقاء أهداف الرسالة تتجاوب معها الأرواح وتنفعل معها المواقف، ولأنّه أصبح الآن جزءً من التراث الديني، كان لا بدّ لنا أنّ نستكمل آيدلوجيّته في الاعتدال والتّسامح، مؤسّسين لـه بمدخل يبين مفهوم الآيدلوجيّة، وتعريف المنبر الديني في العراق، وتحدّيد ماهيّة من خلال الدراسة الموضوعيّة باعتبارها منهجاً تحليليّاً للدراسة، لذا إرتأينا أن نكتب بحثاً في أيدلوجيّة الاعتدال والتسامح من خلال منبر الاعتدال الديني، لنظهر الصورة الحقيقيّة لذلك الإعلام المطلوب، وذكرنا أيضاً عدّة أيدلوجيّات في المنبر الديني، وقد لفت نظرنا آثار ذلك المنبر وأبعاده ، فأظهرنا ما كان مغموراً في طيّات الأذهان، والعقول، وربما يكون السبب في غمور ذلك هو الإعلام المزيّف، أو الابتعاد عن الحقيقة، وكذلك السياسة المقيتة التي تعاقبتها السلطات، لذا نحاول إظهار بعض المفاهيم والأفكار العظيمة، ومن الضروري بيان ذلك للعالم كي ينظر إلى عين الحقيقة،

وقد بذلنا جهدنا في إظهار الحقيقة ، وأعملنا فكرنا لنضع هذا البحث المتواضع بالمستوى المطلوب ليكون لنا زاداً في أولانا وأخرانا﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود/٨٨).

خلفيّة البحث:

يُعدّ المنبر الديني ركناً رئيساً في نشر ثقافة الاعتدال والتّسامح، ففيه جمع شمل الأمّة، والقضاء على التناحرات المقيتة ، لذا يمكن القول: إنّ خطاب المنبر الديني في العراق يمثّل مرحلة من مراحل تثبيت دعائم الإسلام، ولهذا السبب ازداد اهتمام الباحثين في دراسة آثاره، وأفكاره، وغاياته.

وأمّا الدراسة الموضوعيّة للاعتدال والتّسامح لدى المنبر الديني دراسة موضوعيّة يبدو أنّها لم تدرس بشكلٍ مكثّفٍ، لذا وجدنا بعض الدراسات التي تطرّقت لدراسة لغويّة، وبعضها تحليليّة، وبعضها نقديّة، وبعضها تهجّميّة تروم التسقيط، لذا لم نجد دراسة تطرّقت لدراسة موضوعيّة مشابهة لبحثنا تماماً، ولذلك شرعنا بالبحث عن كنوز ذلك الركن الرئيسي.

أسئلة البحث:

١. أين يكمن الاعتدال والتّسامح في المنبر الديني؟

أ- ما دور المنبر الديني في نشر ثقافة الاعتدال والتّسامح؟

ب- ما أثر المنبر الديني في حلِّ قضايا المجتمع؟

ت- هل يمكن أن يكون المنبر الديني إعلاماً للسّاحة الأسلاميّة؟

فرضيّات البحث:

١. يكمن الاعتدال والتّسامح في المنبر الديني في الموارد الآتية:

الخطاب المعتدل، المصداقيّة، الدعوة للوحدة، ترك الخرافات، ونبذ الطائفيّة.

أ- إنّ دور المنبر الديني في نشر ثقافة الاعتدال والتّسامح هو إظهار قيم الإسلام الحقيقي.

ب- المنبر الديني له أثرٌ كبيرٌ في حلِّ قضايا المجتمع.

ت- يمكن أن يكون المنبر الديني إعلاماً ناجحاً للإسلام لما فيه من مضامين عظيمة.

الأيدولوجيّة:

مصطلح لاتيني في الأصل يعني علم الأفكار، وهو علمٌ يدرس مدى صحّة أو خطأ الأفكار التي يحملها النّاس. هذه الأفكار التي تُبنى منها النظريات والفرضيات، التي تتلاءم مع العمليّات العقليّة لأعضاء المجتمع. وقد انتشر استعمال هذا الاصطلاح بحيث أصبح لا يعني علم الأفكار فحسب، بل النّظام الفكري والعاطفي الشامل الذي يُعبّر عن مواقف الأفراد من العالم والمجتمع والإنسان. والأيديولوجيّة هي فكرة يتقيّد بها المفكرون إلى درجة كبيرة، بحيث تؤثّر على حديثهم وسلوكهم ، وتحدّد إطار علاقاتهم بالفئات الاجتماعية المختلفة[١] .

(١) دي تراسي،موسوعة مقاتل من الصحراء مفهوم الأيديولوجيا،ط٢،الأعلمي، بيروت، لبنان،٢٠٠٩م: ص١٩٤.

لقد أصبحت الأيديولوجية عبارة عن نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات التي يؤمن بها جماعة معيّنة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعيّة و الأخلاقيّة و الدينيّة و السياسيّة و الاقتصاديّة وتبرّرها في الوقت نفسه، وهي عقيدة شاملة والمظلّة الأخلاقيّة والعقائديّة الكُبرى لتنظيم المُجتمع(١)، ولو تأمّلنا مليّاً في آيدلوجيّة الاعتدال والتسامح لدى المنبر الديني لوجدناه فكراً عظيماً يستحقّ الدراسة.

المنبر الديني لغةً:

إنّ لفظ المِنبَر يعود إلى الفعل نَبَرَ حينما يقال: نبر الشيء نبراً، أي رفعه. ويقال: نبر في قرءاته أو غنائه، أي رفعها... انتبر الشيء: ارتفع...المنبر: مرقاة يرتقيها الخطيب جمعها منابر(٢).

وقال الجوهري: «نبرتُ الشيء أنبره نبراً، رفعته»(٣)، وقال الفيروزآبادي «فالنّبرة هي كلُّ مرتفع من الشّيء»(٤).

وإضافة مفردة الديني إلى المنبر، فهي نسبة إلى الإسلام المحمّدي، لأنّ الخطيب الذي يرتقي المنبر يذكر الإسلام، وأهدافه، وآثاره...

المنبر الديني اصطلاحاً:

هو نوعٌ من أنواع الخطابة الدينيّة عند المسلمين، والخطيب يذكّر النّاس بالآداب الإسلاميّة، وإرشادهم، وتوعيتهم، فهو إعلام رساليّ داعويّ بنّاء، وأسلوب من أساليب التأثير في الجماهير والرأي العام بشأن العقيدة الدينية، وهو أكبر من مجرد عمليّة الإخبار أو الإعلام، لأنّه يفترض وجود علاقة ولاء قائمة أو ممكنة، فهو ليس دعاية، لأنه يرفض كل تشويه أو تمويه(٥).

آيدلوجيّة الخطيب الديني:

إنّ عمل الخطيب الديني هو عمل الأنبياء، ونحن نعلم أنّ الأنبياء خدموا الأمم من خلال التبليغ، ونقل الحقائق والإرشادات السّماويّة للنّاس، دون كذب أو تحريف أو زيف، بل إنّ التبليغ هو عمل الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم): ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾(العنكبوت/١٨)، فعمل الخطيب العامل هو عمليّة نقل المعلومات والحقائق إلى المتلقّي بطريقة إسلاميّة حقيقيّة، بعيداً عن الخرافات، وداعياً إلى الوحدة والالتفاف حول مبادئ الإسلام من خلال ذكر سيرة الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأهل بيته الأطيبين الأطهرين.

ينماز الخطيب العامل بصراحته، فهو واضح لا يكتنفه الغموض، عفيف الأسلوب والعرض، نظيف الوسيلة والطريق، شريف القصد والهدف، ويتميّز بأن غايته الحق، وقوله الصدق، لا يضلّ ولا يُضلل، ولا يتبع الأساليب الملتوية ولا الدنيئة في العرض والبيان، ولا يسلك سبل

(١) الحسيني، مفاهيم علم الاجتماع، ط١، ناشر، طهران،إيران،٢٠٠٦م: ص٨٩.

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط،ط٢،انتشارات ناصر خسروا،طهران،إيران،د.ت: ج٢، ص ٨٩٧.

(٣) الجوهري، الصحاح،ط٦،دار احياء التراث العربي،بيروت،لبنان،٢٠٠٩م: ج ٢، ص ٨٢١.

(٤) الفيروزآبادي، محمد، القاموس المحيط،ط٣، دار احياء التراث العربي،بيروت،لبنان،٢٠٠٧م: ج ٣، ص ١٤٣.

(٥) بدوي،أحمد زكي، معجم مصطلحات الإعلام،ط٢،دار الكتاب اللبناني،بيروت،لبنان،١٩٩٤م: ص١٣٠.

التغرير والخداع والكذب، فهو يبيع نفسه لله سبحانه، وخدمة للدين الحنيف: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾[١] ، بل طريقه التثبّت والدقّة والوضوح والاستقامة النّابعة من حقيقة الإسلام، وعقيدة المسلم المبنيّة على تحري مَواطن العلم واليقين بالأمور، والابتعاد عن مَواطن الظنّ والوهم، والشبهة والريبة، وأسلوبه اللِين والحكمة، والإرشاد القويم في الدعوة إلى منهج الدين الحنيف، كما أمر الباري رسولَه الكريم، فقال عز وجل﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢] ، ويكون أسلوب الخطيب العامل سمحاً يروم الاعتدال والتسامح والتشجيع عليهما، فقد مدح الله(ﷻ) هذا الأسلوب في نشر الرسالة الإسلاميّة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ من اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا من حَوْلِكَ﴾[٣] ، ولاشكّ أنّ هذا الأسلوب والطريقة في الدعوة والعرض تبعث روح التآخي والمودة في المجتمع الإسلاميّ، ويزرع التسامح في نفوس المسلمين، وتزرع الألفة والمحبة بين أبنائه على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم،تمسكاً بقوله تعالى ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾[٤] .

ما يتوجّب على الخطيب الديني:

لابدَّ للخطيب الديني أنّ يكون بمُستوًى عالٍ من الثّقافة العامّة، حتى يُغني المنبر بالبحث والنّقاش، ويفتح آفاق المستمعين على اختلاف مستوياتهم العلميّة والثقافيّة، بما يدور في المجتمع، من أفكار وآراء وأطروحات، بل وما يدورٍ في عموم العالم المحيط بنا، ولو بالسؤال والاستفسار من خلال البحث والمتابعة عن ذلك، فضلاً عن معرفته ودرايته بثقافة مجتمعه، وما يحيط به من أحداث ومشاكل ورؤى على كافة الصعد، حتى ينير ذهنيّة المستمع والمتلقي، ويوضّح له الطريقَ الصحيح في الحياة، بأسلُوبٍ سليم، ذي مطالب واضحة ليست بالغريبة، وحقائق علميّة ثابتة ليست بالفرضيّات، مما تتقبله القلوب والعقول، لا أن تنفر منه الطباع والنفوس، أو يثير التساؤل والتشكيك، كذلك يتوجّب عليه أن يكون مستوثقاً في نقله للروايات والأخبار على المنبر، مميزاً الغثّ منها عن السّمين، وإن كان باعتماده على الكتب المعتبرة والموثّقة والمحقّقة، وألاّ يكون عَرْضُهُ للأفكار والآراء إلا بعد دراستها وتمحيصها، بعد تتبُّع أصولها ومنابعها، ثم التشاور والتباحث فيها مع أهل العلم والفضل والتحقيق، لأن الخطيب قد يقع في الخَلط أو التشويش من حيث لا يشعر، وذلك بعرْض كل ما صادفه من رأي ـ أو سمعه من قول، أو قرأه من كتاب ـ على المنبر، بدون تدقيق أو مراجعة أو تأمّل فيها، وهذه آفة المنبر وهدم دوره البنَّاء في خلق مجتمع إسلامي واع. كذلك ينبغي عليه أن ينأى بالمنبر عن سَرد القضايا الشخصيّة والآراء النفسيّة وغلبة الهوى، حيث يتطاول على بعض الناس ويسفّه أفكارهم وعقولهم ويستهزئ بهم، لمخالفتهم رأيَه الشخصي مثلاً، ونحن نشاهد ونسمع الخطباء العراقيّين خصوصاً امتثالهم لمبادئ

(١) سورة البقرة:٢٠٧ .

(٢) سورة النّحل:١٢٥ .

(٣) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٤) سورة آل عمران:١٠٣.

الإسلام المحمّدي، فهم يبثّون روح الاعتدال والتسامح في النسيج العراقي، مبتعدين عن الفرقة على رغم اختلاف الأعراق والمذاهب في العراق.

آيدلوجيّة الاعتدال:

لاشكّ أنّ للاعتدال دوراً ريادياً في تعزيز الوحدة وإشاعة مظاهر الألفة والأخوة بين أبناء الوطن الواحد وتحقيق المصلحة العليا للوطن وتأكيد وحدة الصف، فلابدَّ من التشديد على ضرورة نبذ التطرّف والتعصّب، وذلك لتعزيز مظاهر الوحدة الإسلامية ووشائج اللحمة الوطنيّة ومواجهة كافّة صور الإرهاب والقضاء على أسباب وعوامل الفتن الطائفيّة.

إنّ التحدّيات الجسيمة الحاليّة وغير المسبوقة التي يشهدها مجتمعنا الإسلامي، والتي لم تعد خطورتها مقتصرة على بلد دون آخر، تفرض على الجميع المزيد من مراعاة الدقّة وتوخّي الحذر في التقييم خصوصاً في الخطاب الديني المعتدل من خلال المنابر العاملة، فعلى الجميع اليقظة والتنبّه لمجابهة المخاطر المحدقة بالأمّة الإسلامية في وقتنا الراهن، ونشر روح التّسامح، والنأي بالمجتمع عن أسباب التفرقة وعدم إثارة ما يشقّ وحدة الصفّ، الأمر الذي يستدعي تكاتف الجميع لتعزيز وشائج اللحمة الوطنية وتنقية الأجواء لتفويت الفرصة على الذين يسعون للنيل من أمتنا الإسلامية والكيد بها والنيل منها.

إنّ آيدلوجيّة تحكيم الاعتدال والتّسامح، والقيم والمبادئ والمثل العليا للإسلام، ونشر ثقافة السلم الأهلي، ونبذ العنف هي جوهر آيدلوجيّة الإسلام وقوامه وقاعدته، من خلال المنابر الدينيّة التي تحرص على رصّ الصفوف وتنشر المحبة والمودّة بين النّاس، وتأخذ على عاتقها نشر مقاصد الشّريعة الإسلامية السّمحة، والإخاء والرحّمة والتّعاون على البر والتقوى وصولاً إلى المجتمع المتماسك الذي يسوده الحبّ والوئام والألفة لحمايته من الموجات الطائفيّة والإرهابيّة التي تجتاح المنطقة والعالم، فالأمّة الإسلامية بحاجة ماسّة اليوم إلى خطاب بنائي وليس إنشائيّاً، يدفع حركة المجتمع عبر الفرز بين قيم التّحلّي وقيم التّخلّي، وإدراك سنن التغيير الحضاري، بحيث يعيد للإنسان دوره وفاعليته وحضوره في حركة المجتمع، خطاب ينبع أولا من طبيعة الإسلام الذي ينطوي على دعوة مستمرّة إلى التّجديد، والاعتدال والتّسامح.

أبعاد المنبر العامل:

إنّ في كلّ مرحلة من المراحل كان الخطيب الديني يتواكب مع أوليّات واحتياجات الشّعب، وله جنبتان مهمّتان: الأولى: الجانب الدفاعي والمقاومة للحفاظ على الهويّة في مواجهة الغزو الخارجي، وحفظ الإسلام من الأخطار الفكريّة، والجنبة الأخرى: بثّ ثقافة الاعتدال والتّسامح بين المجتمعات- الإسلاميّة وغيرها- ، لذا فإنّ الخطاب المنشود لا بدَّ أن يستلهم روح الظروف والمتغيرات التي حدثت وتحدث في المستقبل، فمن الضروري الانطلاق في إعادة بناء المسلم المعاصر ليكون إنساناً حضاريّاً فاعلاً في مجتمعه ومنتجاً وليس عالةً على الآخرين، يفهم حقيقة الإسلام ومهمّته، وهي عبادة الله وتعمير الأرض. فالخطاب الديني وفق مبادئ الشريعة الإسلاميّة يؤصّل الأفكار السّلمية والإيمان بالاعتدال والتّسامح ونبذ العنف، وبالتالي نفي تهمة العنف التي ألصقها الإعلام المزيّف بالإسلام، فالإسلام هو السّلام والتّسامح.

المنبر العراقي عين الاعتدال والتّسامح:

منبر العراق قمّة الجمال في الاعتدال والتّسامح، فقد دعى منذ الوهلة الأولى إلى الوحدة والابتعاد عن الفرقة، وجسّد حقيقة التّسامح الذي جاء به الأنبياء ، فلو تأمّلنا خطاباتهم، وفي أحلك الساعات التي مرّت على العراقيّين، لوجدناها في قمَّة الجمال في الاعتدال والتّسامح، فهو خطاب لايريد أن يقع النّاس في الهلكة، ولو تتبّعنا ما صنعه الخطباء من الوفاء لإبناء وطنهم لوجدناهم في قمّة الروعة والجمال في الاعتدال، وإذا ذكرنا تضحياتهم في أحلك السّاعات لكانت عين الجمال في الاعتدال، فلا يمكن لأحدٍ أن يجرأ ويقول: يوجد نقص في جماليّة الخطاب الديني العراقي، فقد جسّدتها المنابر الدينيّة، فما أجملكِ، ومااعظمكِ يامنابر الاعتدال والوفاء والعطاء.

إنَّ مصيبةَ داعش الصهيوتكفيري لَهيَ من أعظم النّعم علينا، فالبلاء الذي وقع على العراق العظيم كان بلاءً حسناً، فقد كانت غاية الانتصار تمثِّل قمَّة النّجاح في الدعوة للتّسامح، ورفض الظلم والباطل، وانتصار الحقّ، ورفع راية الاعتدال، لذا نستطيع أن نقول: إنّ العراق سيحقّق هذا النصر العظيم، ويجعله معمولاً به في كلِّ أرجاء المعمورة، فبلاء العراق بداعش لم يثنهم عن الجمال الحقيقي للاعتدال ، فخطيب المنبر الديني له دور كبير في نقل روح الثّورة المحمّديّة المعتدلة، فهو يترجم أهدافها بكلّ وعي وإخلاص من خلال إبراز موقعية الثّورة وأبعادها المختلفة في مسيرة الإسلام والتاريخ في الاعتدال، وربطها بواقع الحال اليوم، وغرسها في وجدان النّاس وعقولهم، كي تظلّ فعلاً حيّةً تحرِّك العقول وتدفعها إلى المواجهة والنّهوض إلى مهام الإصلاح الاجتماعي المتعدّد الجوانب.

آيدلوجيّ المنبر الديني في القضايا العامة:

إنّ المنبر الديني العامل الحاذق يجب أن يكون ماهراً في ملامسة قضايا النّاس والواقع، ومقاربتها عبر رؤية تصحيحيّة نقديّة تنسجم مع الحاجات والتطلّعات، من خلال تلاوة السّيرة والحديث عن التاريخ الإسلامي الناصع، إذ ليس معقولاً أن يبقي السّيرة في حدود عرض المأساة فقط، والغوص في تفاصيل لا طائل منها، ولا تخدم الأهداف الكبرى في الرّبط الحيّ والفاعل لحركة الرسول والأصحاب والأتباع في خطّ الاعتدال والحريّة ومواجهة الفساد وغير ذلك، ومن خلال السيرة المشرقة يستطيع المنبر إحياء النّفوس التوّاقة إلى مزيد من الكرامة والحريّة، بل يُحيي بها كلّ أملٍ في مواجهة الفساد، وبثّ روح التّسامح.

إنّ آيدلوجيّة المنبر الديني، خصوصاً في العراق القضايا العامّة مبنيّة على التّوعية، فهو منبر حركة وثورة، وهو منبر الإسلام كلّه، فلايمكن تجميده للموعظة فقط، وعزله عن الواقع، بل لابدّ أن يلامس القضايا الحيّة التي تثير حساسيّة المجتمع، فالمنبر دار الاعتدال يجمع النّاس كما لم تجمعهم مناسبة أخرى، فهو مدرسة واسعة الأرجاء تمثل شمول الإسلام، وسعة أفقه الموجه للإنسان في مختلف مجالات الحياة.

يُعتبر المنبر الديني من أهمّ الركائز التي يعتمد علها المجتمع في معرفة الحقائق والقضايا العامّة، فهو متنوّع في القضايا بحسب المجتمعات، فهناك منبر يركّز على البُعد العقدي، ومنبر آخر يركّز على البُعد السلوكي الاجتماعي، ومنبر ثالث يركّز على الجانب التاريخي، ومنبر رابع يهتمّ بأمور السياسة كونه له الدور في الرؤية المستقبليّة في المجال السّياسي، ولأنّه يبحث عن الاعتدال في شؤون الناس، والحفاظ على حقوقهم، وكيف ينبغي أن يعيش النّاس الاهتمام السياسي في عصرهم وأوطانهم؟ وهناك منابر متعدّدة أعرضنا عن ذكرها لضيق المقام.

ربما يعترض بعضهم عن زجّ المنابر في الخوض بأمور السياسة، وهذا ليس صحيحاً، لأنّ المنبر الديني مبنيٌّ على مبادئ الدعوة للاعتدال في الحقوق، وحثّ النّاس للعدالة، وقد رأينا في التاريخ دخول رجالات الدين في معترك السّياسة ، لذا من الممكن للخطيب أن يعطي رؤية حول موضوعات السياسة.

أهداف المنبر الديني:

لاشكَّ أنّ المنبر الديني يتربّع على أكبر قاعدة جماهيريّة لنشر الوعي وتنمية الفكر لما له من طاقات خاصّة تتداعى لها كلّ الجماهير وبشتّى الفئات والأصناف، وخلال هذه الطفرة المعلوماتيّة وتزايد وسائل الإعلام وطرق دعوتها بقي المنبر محافظاً على شكله ومضمونه ممّا أوجد هوّة سحيقة بينه وبين التطّور المعاش، ومع ذلك كلّه استطاع المنبر أن يحفظ مكانته ويعيش على قمّة الهرم، وذلك كلّه من أسرار المنبر وسحره، فرغم تزايد الوسائل المطروحة إلاّ أنّها لم تكن تلبّي جميع الرّغبات عند الإنسان بل أنّها أخذت تغذّي قسماً على حساب الأخر، وهذا ما لا نجده في المنبر الديني الذي يلبّي كلّ حاجات الإنسان والمجتمع، وأهدافه هي:

أ. إحياء أمر العقيدة.
ب.نشر الوعي.
ت.الإصلاح الاجتماعي.
ث.الاعتدال والتسامح.
ج. المقاربة من الواقع الاجتماعي.
ح. التصدّي للاختراقات الثّقافيّة.
خ. توثيق الوازع الديني.
د. الحفاظ على الاتزان السلوكي.
ذ. توثيق الروابط الاجتماعيّة.

إنّ الخطيب العامل صاحب الأهداف الإسلاميّة ينبغي له من أن يتحلّى بعدّة أدوات تجعله مرتبطاً بالناس ارتباطاً وثيقاً، وهي:

القدوة، الأسلوب، التّحصيل العلمي والثّقافي، الانفتاح على الثّقافات، استخدام وسائل مساعدة، توزيع الموضوعات، التركيز على الإيجابيّات.

آيدلوجيّة المنبر الديني في تقويم المجتمع:

إنّ المنبر الديني هو أحد الوسائل الفعالة من أجل إمتداد منهج الرسول الأكرم، وتركيز مبادئه في النفوس على طول الخط، ولذلك اتّخذه المسلمون منذ عهد الرسالة النبويّة وإلى هذا اليوم وسيلةً لبثِ روح الاعتدال، ولشحذ الهمم نحو نشر حقيقة السّيرة العطرة على نهجها القويم.

إنّ آيدلوجيّة المنبر في تقويم المجتمع هي : إصلاح الذّات، ومعرفة الذّات ومعرفة الواقع، والاعتدال في المادّة والمعنى.

نتاج المنبر الديني:

إنّ للمنبر الديني نتاجاً ضخماً في المجتمع، فتأثيره الوجداني على قطاعات واسعة من المجتمع، بسبب الانشداد الطبيعي له وقدرته على المزج بين العاطفة والعقل، وكونه مركزاً ثقافيّاً

مفتوحاً للجميع، فهو يترك أثراً في المجتمع بصورة تفوق وسائل الإعلام الجماهيريّة الأخرى. لذا بدأت الدراسات العلميّة الأكاديميّة بدراسته على جميع الأصعدة، فهنالك تأثير كبير للمنبر على صعيد ثقافة المجتمع العامّة.

لاشكّ أنّ البعد الإعلامي للمنبر الديني يُأثّر بالظرف الاجتماعي والسّياسي، كونه يخلق حالة تفاعليّة مع مختلف فئات المجتمع بما في ذلك الجانب النّسوي، فلابدّ من تفعيل دور المنبر الديني عبر القرب من القضايا الاجتماعية والانفتاح على مختلف الطوائف الأخرى بطرح أفكار إبداعيّة في جميع مجالات الحياة، فقد رأينا نتاج المنبر الديني في العراق حينما قامّ بحثّ النّاس للدفاع عن الدين والعرض والأرض، ورأيناه في المعركة، وفي الجامعة، وفي الشارع، وفي البيت، وكذلك رأينا نتاجه من خلال مشروع الاعتدال بالخطاب، والدعوة للتسامح والمحبّة، بل رأينا نتاجه من خلال التبرع بالدم للمجاهدين، والذي يخدم مختلف أبناء المجتمع العراقي .

إنّ نتاج المنبر الديني لا يختزل في موسم، أو في مكان وزمان، بل طوال أيّام السّنة، لذا نرى أنّ من الضروري التّعاون بين الخطباء والمثقّفين من رجالات الدين والأكاديميّين، لأنّه أصبح مستوعباً لجميع التّطوّرات الفكريّة.

آيدلوجيّة مدرسة المنبر الديني:

ثمّة مدرستان للمنبر الديني، أحدهما: مدرسة تقليديّة تدعو إلى إبعاد المنبر عن المستجدّات الحديثة في المجتمع وإبقائه مقتصراً على أغراضه التقليديّة، وهي استعراض وقائع الإسلام بكلّ ما ورد فيه من قضايا، والأخرى مدرسة تجديديّة سعت لإدخال التّنوير في مؤسّسة المنبر، وإدخال المنبر في أغلب القضايا.

لقد أثبت المدرسة المنبريّة العراقيّة نجاحها من خلال آيدلوجيّتها المتنوّرة والمفتوحة على جميع الصُعد العلميّة والفكريّة والاجتماعيّة، فالمدرسة العراقيّة هي المدرسة الوحيدة المسيطرة على الخطاب المنبري في العالم الإسلامي، ولم تظهر مدارس أخرى لحد الآن، وأنّ المنبر كبقية المؤسّسات الثّقافيّة يواجه تحدّيات ومقاومة من أجل التحديث والتّطوير فيه، وأنّ السّعي لتطويره قائم على قدم وساق لما يمتلك من ميزات إيجابيّة، ومنها القرب من الجمهور والقدرة على الحشد، وطبيعة التأثير الوجداني للمنبر، والمحافظة على حرية التعبير عن المعتقد، ودفع المجتمع للاعتدال والتّسامح.

إنّ المنبر الديني في العراق شكّل حالة متميّزة وفريدة، حتّى أضحى الآلة الإعلاميّة الأولى والأساسيّة التي تعتمدها الطائفة من أجل التذكير الدائم والمستمر للالتزام بالمبادئ الإسلاميّة، ونشر ثقافة المحبّة.

مزايا المنبر الديني في العراق:

يحتلّ المنبر الديني في العراق أعلى مراتب التأثير والتوعية في النّاس قياساً إلى بقيّة الوسائل المتاحة وذلك لتميّزه عن غيره من وسائل التوعية بمزايا كثيرة أهمّها: استخدامه الأُسلوب الخطابيّ في عرض العقائد والأفكار والآراء، وهذا الأُسلوب يمتاز باستعمال سلاح البيان وأداة الكلام، ويعتبر حُسن البيان أقوى وسيلة وأمضى سلاح للتأثير في النّفوس، وإقناع الجمهور وتثقيف وتوعية المجتمع ورفع مستواهم الفكريّ والثقافيّ، لذ ورد عن الإمام الكاظم(عليه السلام) أنّ

انتصار الرسول الأكرم بالبيان، حيث يقول:«إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحُججَ بالعقول، ونصر النبيّ بالبيان»[١].

كذلك يمتاز بتكليم الخطيبُ الجماهيرَ بصورة حيّة، ويخاطبها بشكل مباشر وجهاً لوجه، وهما يتفاعلان معاً، والكلام المباشر له تأثير عظيم في نفوس المستمعين، إذ تتلاقى بين الخطيب والمستمعين الأنفاس والنّظرات والقلوب، وقد ثبت بالتجربة أنّ المستمعين يفضّلون الاستماع إلى الخطيب مباشرة مع النظر إلى وجهه وحركاته، فهو بذلك يليّن القلوب ويرقّقها عند الموعظة، ويثير حميّة الجماهير عند الحاجة.

كذلك يمتاز المنبر الديني بأُسلوب خاصّ، فالخطبة الدينيّة تحتوي على مزيج من العلوم والمعارف المتنوّعة: التفسير، الحديث، الفقه، الكلام، الأخلاق، التاريخ، الأدب، القصّة، النادرة، النكتة، السيّاسة، كما تشتمل على فكرة وعاطفة وعظة وعبرة.

كذلك يمتاز بالخطاب المعتدل الذي يجمع المسلمين وغير المسلمين على المحبّة والتسامح، وهذا ما رأيناه في العراق.

(١) الكليني، محمّد،أصول الكافي، ط٢، انتشارات ناصر خسروا،طهران،إيران، ١٤٢٤هـ، ج١ص١٠، ح ١٢.

النتائج

١. آيدلوجيّة الاعتدال والتسامح الناجحة من خلال المنبر الديني.
٢. تعميق الارتباط بالعقيدة الإسلاميّة في معناها وأبعادها الحقيقة.
٣. الدور التثقيفي من خلال نشر فكر ومفاهيم الإسلام وتعاليمه المرتبطة بمختلف شؤون الإنسان وحياته، ومن خلال تقديم رؤية إسلامية ناضجة ومتقدمة وقادرة على أن تعكس الصورة الحقيقية لرسالة الإسلام ومبادئه.
٤. مقابلة كل الشبهات والإشكالات: التي توجه إلى الإسلام في مختلف أبعاده ومجالات طرحه، سواء منها الإشكالات العقائدية أو الفكريّة أو غيرها، خصوصا مع الحضور الواسع للجماهير المؤمنة الحاضرة والمتفاعلة مع الخطيب.
٥. دور المنبر الديني في رسم الصورة الحقيقية للأحداث التاريخية والقيام بدور التحليل التاريخي العميق والصادق، والقدرة على بيان العوامل المؤثرة في حركة الأحداث التاريخية.
٦. تمثّل المنابر الدينيّة فرصة مناسبة للتلاقي بين المجتمع، ودورها في معالجة المشاكل الاجتماعية القائمة في الوقت الراهن، فهو استثمار أمثل لحلّ قضايا الناس ومشاكلهم وعلى كافة الأصعدة.

المصادر

القرآن الكريم

١. بدوي،أحمد زكي، معجم مصطلحات الإعلام،ط٢،دار الكتاب اللبناني، بيروت ، لبنان،١٩٩٤م.
٢. الحسيني، مفاهيم علم الاجتماع، ط١، ناشر، طهران،إيران،٢٠٠٦م.
٣. الجوهري، الصحاح،ط٦،دار احياء التراث العربي،بيروت،لبنان،٢٠٠٩م.
٤. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط،ط٣، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان،٢٠٠٧م .
٥. دي تراسي، موسوعة مقاتل من الصحراء - مفهوم الأيديولوجيا، ط٢،الأعلمي، بيروت، لبنان،٢٠٠٩ م.
٦. الكليني، محمّد،أصول الكافي، ط٢، انتشارات ناصر خسروا،طهران،إيران،١٤٢٤ه.
٧. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط،ط٢،انتشارات ناصر خسروا،طهران،إيران،د.ت

الهوية بين التحول والثبات

دراسة في ثقافة المجتمع العراقي

أ.م.د. فضيلة عبوسي محسن العامري

كلية الفقه- جامعة الكوفة

الملخص:

إن ما يميز الشخص عن غيره هو هويته ، لذا نجد هي المطلوبة في كل مكان في السفر ،وفي الحضر،وهذا النوع من الهوية يسمى بالهوية الثابتة أو الاستاتيكي أو التبريري عند بعض الباحثين المعاصرين،ولكن الهوية الثقافية والفكرية هي التي يطرأ عليها التغيير والتحول من طريق عناصر تكوينها من الدين واللغة، والثقافة، والوطن، وتتباين عناصرها بين التحول والثبات، فالوطن لايمكن أن يصيبه التغيير ،فالإنسان مهما ابتعد عن وطنه، فلا تفارقه هويته الأم ، بدليل التسميات التي تطلق عليه منها ، مقيم، ومجنس وما الى ذلك من المسميات المعروفة عند المختصين، ولكن الثقافة هي محل التحول والتغيير ولمعالجة هذا الموضوع فقد ركز البحث على عنصر الثقافة الإسلامية كونها تمثل الثقافة الأم في المجتمع الإسلامي عامة، والعراقي خاصة ،فجاء البحث بعنوان(الهوية بين التحول والثبات دراسة في ثقافة المجتمع العراقي)، الذي تألف من مبحثين تناول الأول جدلية العلاقة بين الثقافة والهوية ،و جاء المبحث الثاني بعنوان الثقافة الإسلامية وأثرها على هوية الفرد في المجتمع العراقي،وقد سبقهما تمهيد تضمن التعريف بمفهوم التحول والثبات في الهوية، ثم تلتهمها الخاتمة التي تضمنت نتائج البحث ،مشفوعة بالمصادر.

Summary:

Identity between transformation and stability Study in the culture of Iraqi society

This type of identity is called static, static, or justifiable identity among some modern scholars, but cultural and intellectual identity is the one that changes and transforms from a path. The components of the composition of religion and language, culture, and homeland, and vary between the elements of transformation and stability, the homeland can not be affected by change; Man no matter how far away from his homeland, do not break his mother's identity; Specialists, but culture is under attack The study focused on the element of Islamic culture as it represents the mother culture in the Islamic society in general and the Iraqi in particular. The research entitled "identity between transformation and stability is a study in the culture of Iraqi society." The study consisted of two topics: , And the second topic entitled Islamic culture and its impact on the identity of the individual in Iraqi society, preceded by a prelude to ensure the definition of the concept of transformation and consistency in identity, and then eaten by the conclusion that included the results of the researc

المقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ،والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين،محمد وآله الطيبين الطاهرين وبعد...

إن ما يميز الشخص عن غيره هو هويته ، لذا نجد هي المطلوبة في كل مكان في السفر ،وفي الحضر،وهذا النوع من الهوية يسمى بالهوية الثابتة أو ما يطلق عليها بالوصف الاستاتيكي أو التبريري عند بعض الباحثين المعاصرين،ولكن الهوية الثقافية والفكرية هي التي يطرأ عليها التغيير والتحول من طريق العناصر التي تمثلها من الدين واللغة،والثقافة، والوطن، وتتباين عناصرها بين التحول والثبات، فالوطن لايمكن أن يصيبه التغيير ،فالانسان مهما ابتعد عن وطنه،فلا تفارقه هويته الأم ، بدليل التسميات التي تطلق عليه عند مغادرة وطنه منها ، مقيم، ومجنّس وما الى ذلك من المسميات المعروفة عند المختصين، ولكن الثقافة هي محل التحول والتغيير،فهي من العناصر المكتسبة التي تتحول وتتطور بتغير الظروف المحيطة بالفرد ،ومن المعروف أن وسائل اكتسابها كانت محدودة أي قبل التطور التكنولوجي، و قبل دخول وسائل التواصل الاجتماعي عبر الانترنت من الدردشة،والفيس بوك،والواتساب،والفايبر،وهنا تكمن خطورة التحول والثبات في الهوية،وبالعبارة المختصرة قبل عام ٢٠٠٣أعني في زمن النظام السابق في العراق وما أصاب الثقافة الفكرية من الانفتاح على العالم الآخر من التغيير والاندماج بالثقافات الأخرى التي كانت مبطنة في بعضها ظاهرها صلاح وفلاح ،وباطنها خراب ودمار ،وما أثمرت عنه من ظهور مسميات مختلفة تحت شعار حقوق الإنسان، فضلا عن ذلك ظهور الحركات والأقليات بعناوين مختلفة،وآخرها الحرب على الدواعش،وأما بقية البلدان فقد دخلتها هذه الوسائل قبل هذا التاريخ، ولمعالجة هذا الموضوع فقد ركز البحث على عنصر الثقافة الإسلامية كونها تمثل الثقافة الأم في المجتمع الإسلامي عامة، والعراقي خاصة ،فجاء البحث بعنوان(الهوية بين التحول والثبات دراسة في ثقافة المجتمع العراقي)، الذي تألف من مبحثين تناول الأول جدلية العلاقة بين الثقافة والهوية ،و جاء المبحث الثاني بعنوان الثقافة الإسلامية وأثرها على هوية الفرد في المجتمع العراقي،وقد سبقهما تمهيد تضمن التعريف بمفهوم التحول والثبات في الهوية، ثم تلتهمها الخاتمة التي تضمنت نتائج البحث ،مشفوعة بالمصادر

وأخيرا وليس آخر نقول اللهم اجعل هويتنا هوية ثابتة على ولاية محمد وآل محمد فهم مصباح الهداية ،وسفينة النجاة ،وبهداهم نقتدي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

التمهيد:

مفهوم التحول والثبات في الهوية

التعريف بالهوية في اللغة والاصطلاح

الهوية لغة: مصدر صناعي منسوب الى (هُوَ) بزيادة ياء مشددة وتاء مربوطة، ولم ترد دلالتها في المعجمات القديمة بالمعنى المعروف بالانتماء الى الذات ،وانما جاءت (الهوية) تصغيراً لـ(هوَّ) التي بمعنى البئر العميق،وله دلالات أخر منها((هَوٌّ من الأَرض جانِبٌ منها ،والهُوّة كلُّ وَهْدَةٍ عَمِيقةٍ، والهُوَّةُ ما انهَبَطَ من الأَرضَ وقيل الوَهْدةُ الغامضةُ من الأرض وحكى ثعلب اللهم أَعِذْنا من هُوَّةِ الكُفْرِ ودَواعي النفاق ، وأَما النضر فإِنه زعم أَن جمع الهَوَّة بمعنى الكَوَّة هَوًى مثل قريةٍ وقُرًى الأَزهري في قول الشماخ:

ولمّا رأَيتُ الأَمْرَ عَرْشَ هُوَيَّةً تسَلَّيْتُ حاجاتِ الفُؤَادِ بشَمَّرا[١]

قال هُوَيَّةٌ تصغير هُوّة وقيل الهَوِيَّةُ بئر))[٢] ، فكل ما ذكر يرتبط بجوهر الشيء وحقيقته من غير االبشر، وفي البشر تعني الهوية إحساس الإنسان بنفسه وفرديته ، وحفاظه على تكامله وقيمه وسلوكياته وأفكاره في مختلف المواقف، حتى وصف الاضطراب الذي يصيب الفرد فيما يختص بأدواره في الحياة فيصبح غير متيقن من مستقبل شخصيته بأزمة الهوية ،إذ لم يتيسر له تحقيق ما يتوقعه الآخرون[٣]، ويتضح من التعريف اللغوي أن الهوية لا تقتصر على ذات الفرد بل تتجاوزه الى تحقيق هوية المجتمع من طريق التفاعل مع الآخرين التي في أثنائها ترسم هوية المجتمع التي تشتمل على العادات والتقاليد والسلوكيات التي تميز أفراد هذا المجتمع من غيره من المجتمعات.

١. **الهوية اصطلاحاً:** لها تعريفات عدة تلتقي في بعضها مع المعنى اللغوي إذ جاء في معناها أنها: ((الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق))[٤]، فهي ترتبط بذات الانسان من حيث امتيازه عن الأغيار[٥]، وعرفت ايضاً بأنها ((إحساس بالذات ينشأ حينما يبدأ الطفل بالتميز عن والديه وعائلته ويأخذ موقعه في المجتمع .فهي تشير الى شعور شخص ما بمن هو وماهي الأشياء الأكثر أهمية بالنسبة له))[٦]، ويرى ستيفن فروش أن الهوية إفراز من الثقافات التي لا تتكون ببساطة مستندا في ذلك الى بعض النظريات لعلمي النفس والاجتماع إذ يقول إن((النظرية الحديثة لعلم النفس والاجتماع تؤكد أن هوية الفرد هي في الحقيقة متعددة وربما سائلة ،حيث إنها تتكون عبر التجربة وتترسخ برموز لغوية ،والأفراد حين يطورون هوياتهم إنما ينجذبون الى المعطيات الثقافية الموجودة في الشبكة الاجتماعية المباشرة لهم وتلك الموجودة في المجتمع

(١) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني:١٢٩.

(٢) لسان العرب،ابن منظور: ٣٧١/١٥.

(٣) ينظر: قاموس المعجم الوسيط ، د. ابراهيم أنيس بالاشتراك مادة(هـ وا) .

(٤) التعريفات،الجرجاني:٣٢٠، وينظر: التعاريف،المناوي: ٧٤٤ .

(٥) ينظر:التعريفات، الجرجاني:٢٨١ .

(٦) سوشيولوجيا الثقافة والهوية ،هارلمبس وهولبورن:١٣ .

ككل))[١]، ويظهر من التعاريف السابقة الإشارة إلى العلاقة بين الهوية والمعطيات الثقافية وأثرها على الهوية فهي بمثابة الحصانة الفكرية والاجتماعية للهوية الفردية التي هي جزء من هوية أكبر ألا وهي هوية المجتمع التي تعكسها الدين،واللغة، والحضارة، والتراث، والثقافة التي تتجدد وتتطور بتطور الزمن، ولعل العولمة الثقافية وأفرازاتها على المجتمعات – الاسلامية خاصة- أثر واضح للعيان ،لأنها تحمل في ظاهرها شعار التطور والتلاقح الحضاري ،وتكمن في باطنها العداء للدين وتعاليمه السمحاء، وخير مثال على ذلك الدعوات الى هجر اللغة العربية الفصيحة التي تمثل لغة القرآن الكريم ،واستبدالها باللهجات والعامية بحجة السرعة في الفهم وايصال المعلومات الى الآخر اذ تؤثر سلباً على اللغة من طريق هجران اللغة الأم التي تعكس هوية الفرد ومجتمعه والاستعانة بالألفاظ الدخيلة على المجتمع من طريق الغزو الثقافي المسلح بالتطور التكنولوجي الحديث.

التعريف بالتحول والثبات في اللغة والاصطلاح :

التحول والثبات في اللغة :

التحوّل في اللغة بمعنى التنقل من موضع الى موضع[٢]، والثبات في اللغة مصدر الفعل الثلاثي ثَبَتَ بمعنى الاستقرار فيقال ثبت فلان في المكان يثبت ثبوتاً ،فهو ثابت إذا أقام به[٣].

التحول والثبات في الاصطلاح :

الثبات في الاصطلاح ضد الزوال،والثبات والثبوت ضد التزلزل،وثبت الأمر صح[٤]،ولم يذكر صاحب التعاريف التحول وإنما ذكر الحوالة قائلاً: ((الحوالة من التحول والانتقال وشرعا إبدال دين بآخر للدائن على غيره رخصه))،فكأن التحول بمعنى الانتقال من حال الى حال قد يكون نحو الأسوأ أو نحو الأحسن بحسب النتائج المترتبة على ذلك التحول والانتقال، وعند ربط مفهوم التحول والثبات بالهوية نجد أن هوية الفرد ترتبط بالمعنى الثقافي قد يصيبها التحول أو الثبات بينما الهوية التي ترتبط بالهيأة والاسم والصفة والبلد الذي ينتمي اليه الفرد قد لا تتحول ذلك التحول الجذري الذي يبدو واضحاً في المجال الفكري والثقافي للهوية عبر التواصل مع الآخر،والتفاعل معه بشتى الأساليب والطرق التي تحمل في طياتها غطاء الطابع الحضاري ،لذا وجدنا من الباحثين المعاصرين من ربط تعريف الهوية بالمعنى الثقافي بعيداً عن الهيأة والأسماء والصفات مكتشفاً أمرين مهمين وهما: **الأول**: عناصر التميز للجماعة عن الآخرين، وهي عوامل الثبات فيها وتمثل فعل الثبات في التاريخ وممكناته، **والثاني**: تصورات الجماعة للآخرين وعناصر الاندماج معهم، وفق موقع الذات الذي يحدده العنصر الأول، والهوية تتحقق في مجال الاتصال بالآخرين، حتى يصح القول إن هوية الفرد الواحد تتبدل حسب

(١) نقلا عن كتاب سوشيولوجيا الثقافة والهوية ،هارلمبس وهولبورن:١٥.

(٢) ينظر: لسان العرب:٣/٤٠١.

(٣) ينظر: لسان العرب،ابن منظور:٢/٧٩.

(٤) التعاريف،التهانوي:٢١٩.

اتصالاته ومواقفه ومواقعه المختلفة، فالهوية معطى من الآخرين وانعكاس ظاهر وكامن لمواقفنا منهم وردود ، فهي رغم ثباتها فإنها صيرورة في التاريخ[١].

وعند التأمل في هوية الفرد بالمعنى الثقافي الفكري في المجتمع العراقي نجد أن هويته قد أصابها التحول الواضح للعيان لاسيما لو قارنا بين هوية الفرد العراقي قبل ٢٠٠٣ وبعد ٢٠٠٣ يتضح لنا أن هوية الفرد كانت واحدة هي هوية الانتماء الى البلد وهو العراق فيقول الفرد أنا عراقي ،ولكن بعد السقوط نجد تعدد الهويات للفرد فلا يكتفي بالانتماء الى الهوية الثابتة وهي البلد بل نجد هويات متعددة فهذا السني ،وهذا الشيعي،وهذا التركماني،وهذا الكردي،وهذا الأزيدي،ولعل السؤال الذي يطرح نفسه ما الذي ينم عن تعدد الهويات في البلد الواحد؟ هنا تأتي الاجابة على نوعين هناك من يرى أنها نعمة وتعبر عن حرية الرأي للفرد بعد أن كانت مهمشة في عهد النظام السابق أي في عهد صدام،وهناك من يرى أن تعدد الهويات فسح المجال للآخر في أثارة النعرات الطائفية بين الأفراد والجماعات خاصة بعد الانفتاح على العالم من طريق التواصل الاجتماعي الانترنت، وما نتج عنه من جعل العالم كله في قرية واحدة ، وهناك من يستغل هذا التعدد لإثارة الفتنة والعداوة والبغضاء بحجة المطالبة بالحقوق والدفاع عن الحريات، وبدأت ثقافة الفرد تتغير شيئاً فشيئاً ، وقد يكون هذا التغير والتحول ايجابياً أو سلبياً بحسب السلاح الفكري والثقافي للفرد العراقي ،فعليه ألا يكون بمعزل عن العالم بل على العكس أن يكون أكثر ثقافة واطلاعاً من الآخر ليتمكن من كشف النوايا الصالحة من الطالحة ،ولكي لا يقع بفخ العولمة الثقافية إن صح التعبير،وخير سلاح هو الثقافة الإسلامية التي يتضح أثرها في المباحث الآتية:

المبحث الأول: جدلية العلاقة بين الثقافة الإسلامية والهوية

تمثل الهوية عنصراً مهماً في المجتمع العراقي نظراً لامتلاكه العنصر الأساسي في تكوين الهوية ألا وهو الدين إذ يوصف المجتمع العراقي بأنه مجتمع إسلامي يقوم على الثقافة الاسلامية التي تستند الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وروايات أهل البيت (عليهم السلام) في عموم هويته الثقافية، لكن لابد من التنويه الى سؤال مهم قد يخطر في ذهن المتلقي أو القارىء وهو كيف نصف المجتمع العراقي مجتمعاً يستند الى روايات أهل البيت(عليهم السلام) في عمومه؟ نقول إن روايات أهل البيت(عليهم السلام) تمثل عنصراً فعالاً وتمثل روح الثقافة الاسلامية، لكونها تدعو الى المحبة، التسامح، والحوار مع الآخر ، والألفة ، والتعاون،واحترام حقوق الآخرين، ولعل سير أهل البيت(عليهم السلام) حافلة بالروايات والشواهد التي تبرهن على ذلك منها قول الرسول(صلى الله عليه وآله):((كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته))[٢]،وقول الامام (عليه السلام) في عهد طويل كتبه الى مالك الأشتر(رضوان الله عليه): ((((٠٠٠**وأشعر قلبك الرحمة للرعية ،والمحبة لهم ٠٠٠،ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ،فإنهم صنفان،إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق**))[٣]،أي أجعلها كالشّعار له،وهو الثوب الملاصق للجسد، لأن الرعية ، إما أخوك في الدين ،أو انسان مثلك تقتضي رقة الجنسية وطبع البشرية الرحمة له[٤] ، فهو

(١) ينظر: هاني نسيرة ،مقال منشور في الانترنت.

(٢) صحيح البخاري:١/٤٣٠ .

(٣) شرح نهج البلاغة،ابن ابي الحديد:١٧/٢٨.

(٤) شرح نهج البلاغة،ابن ابي الحديد:١٧/٢٨.

يرى(عليهم السلام) أن الجميع كلهم رعية من أي مذهب كان أو سنة فهم لهم حقوق وعليهم واجبات ،أما سيرة أهل البيت (عليهم السلام) فقد تجسدت في أروع صورها بسيرة الامام زين العابدين(عليه السلام) ، فقد ذكر عنه أنه لم يمد يداً إلى السلاح الحديدي في عصره على الرغم من المآسي والأحداث التاريخية المريرة التي بلغ صداها مختلف العصور والأوطان إلا أنه التزم النضال بكل الأسلحة الأخرى التي لا تقل أهمية وخطورة عن السلاح الحديدي،فشهر سلاح اللسان بالخطب والمواعظ، وسلاح العلم بالتثقيف والإرشاد،وسلاح الأخلاق بالتربية والتوجيه،وسلاح الاقتصاد بالإعانات والإنفاق،وسلاح العدالة بالاعناق،وسلاح الحضارة بالعرفان،حتى وقف سداً منيعاً في وجه أخطر عملية تحريف تهدف إبادة الإسلام من جذوره ،في الحكم الأموي الجاهلي[١]، وروي أنه (عليه السلام) حج ثلاثين عاماً ولم يضرب ناقته قط،وكيف آوى من خذله حتى وإن كان عدوه وغيرها من الحكايات ولعل قصيدة الفرزدق المشهورة التي تحكي جزءاً يسيراً من سيرته العطرة ،ويقول في مطلعها:

هذا الـذي تعرف البطحاء وطـــأته ... والبيت يعـــرفه والحـــل والحـــرمُ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهـــــله ... بجـــده أنبياء الله قـــــد ختمـوا
وليس قولك: مـــن هـــــذا بضائره ... العُـــربُ تعرف من أنكرتَ والعجمُ[٢]

وبعد التأمل في هذه العبقات العطرة من الثقافة الاسلامية نعود الى جدلية العلاقة بين الهوية والثقافة الاسلامية ، اذ تمثل الهوية عنصراً ثابتاً ومتجددا في آن واحد فثابت لكون الهوية تعكس ذات الفرد في أي زمان ومكان،ويمتاز بها عن غيره من الشخصيات في الدول الأخرى فهي تشتمل على عنصر الدين الذي يمثل مقوماً ثابتاً للهوية، وأما صفة الهوية بالمتحركة لأنها ترتبط بالثقافة التي تمثل الحارس للهوية الذي يتفاعل مع الآخر،ولا يعني ثبوت الهوية انجمادها وانعزالها بل التفاعل مع الآخر بالشكل الذي يمكن الفرد من الاطلاع على ثقافة الآخرين والوقوف على العنصر الايجابي لا السلبي وهنا يأتي دور اللغة الذي يمثل المحور الثاني في الهوية الذي يتصف بالثبوت لكون اللغة انسانية من جهة فهي تميز الانسان من غيره ، وتاريخية اذ تولد مع الانسان، ومتجددة أي يمكن أن تتفاعل مع الآخر من طريق الحوار البناء الذي يهدف الحفاظ على مقومات الهوية العربية الإسلامية وعدم الانجرار مع الآخر مهما اعتمد على الثقافة المزيفة المعتمدة على الألفاظ النماقة التي تجرف بعض العقول - الشباب خاصة- من طريق شبكات التواصل الاجتماعي وغيرها من طرق التواصل الالكتروني من مثل العبارات الدخيلة في المجتمع(اوكي- باي- هاي) بدلاً من الألفاظ التي أوجدتها الثقافة الإسلامية من آداب السلام ،والوداع ،والتحية ، والتوكل على الله بقولنا (إن شاء الله) التي وردت في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدّوهَا إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ حَسِيباً**﴾[٣] ، وقوله تعالى: ﴿**وَأُدْخِلَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبّهِمْ تَحِيّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ**﴾[١] ، وقوله

(١) ينظر: جهاد الامام السجاد(عليه السلام)،السيد محمد رضا الحسيني الجلالي:٢٤٥.

(٢) ديوان الفرزدق:٣٦٤.

(٣) سورة النساء: ٨٦.

(١) سورة إبراهيم: ٢٣.

تعالى﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴾ ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[١] ، و قوله تعالى﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] ، وغيرها من الآيات القرآنية، وهنا تظهر أهمية الثقافة الإسلامية التي تمثل عنصراً فعالاً في الحفاظ على مقومات الهوية في المجتمع العراقي من الدين، واللغة، والتراث، وقد أوجز بعض الباحثين جدلية العلاقة بين الهوية والثقافة بقوله:((٠٠٠ فهوية الانسان ٠٠أو الثقافة٠٠أو الحضارة، هي جوهرها وحقيقتها،ولما كان في كل شيء من الأشياء – إنساناً أو ثقافة أو حضارة- الثوابت والمتغيرات٠٠فإن هوية الشيء هي ثوابته،التي تتجدد لا تتغير، تتجلى وتفصح عن ذاتها،دون أن تخلي مكانها لنقيضها،طالما بقيت الذات على قيد الحياة ،إن هوية أية أمة أو مجتمع هي صفاتها التي تميزها عن باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية، والهوية دائماً تجمع ثلاثة عناصر :العقيدة التي توفر رؤية للوجود،واللسان يجري التعبير به،والتراث الثقافي الطويل المدى،واللغة هي التي تلي الدين ،كعامل يميز ثقافة شعب ما عن ثقافة شعب أخرى، ثم يأتي التاريخ وعناصر الثقافة المختلفة في صنع الهوية))[٣] ، وغالباً ماتحدد الهوية بالدين الذي يعد من المقومات الأساسية التي يمكن من طريقها صيانة الأمن الثقافي الذي يستند إلى القاعدة الرصينة التي لا تقبل التحريف المتمثلة بالقرآن الكريم، فضلاً عن السنة النبوية الصحيحة التي تستند إلى روايات أهل البيت (عليهم السلام)

المبحث الثاني: الثقافة الإسلامية وأثرها على هوية الفرد في المجتمع العراقي

إن ثقافة أي أمة يجب أن تقوم على أساس من القيم التي تسود مجتمعها،وهي قيم وثيقة الصلة بالعقيدة والفكر ،والسلوك ونمط الحياة ،ووجهة الحركة وتحديد الهدف ،وأن من شأن ثقافة أفراد أي مجتمع أن تكون مصدراً لتقديم الحلول الناجحة السليمة لكل مايعترضهم من مشكلات ،والوفاء بكل مايجد في حياتهم من حاجات ،و يتعلق تحقيق ذلك بنمو الثقافة نمواً صحيحاً في جو القيم الصالحة ، ومناخها السليم((وعلى هذا لابد أن تكون الثقافة تعبيراً حياً عن القيم الأساسية التي تعطي المجتمع ملامحه الصحيحة ،وتضبط حركته السديدة ، وترسم له وجهته الرشيدة، فإذا انعزلت الثقافة عن هذه القيم، ووقع الفصل التام بينهما، فإن نتائج ذلك إنما تنعكس على الثقافة والقيم والمجتمع معاً))[٤]،ومن هنا لابد من الوقوف على هوية الثقافة الإسلامية في المجتمع العراقي من طريق ما يأتي:-

١. **اللغة**: تمثل اللغة وسيلة التخاطب بين البشر فهي تتصف بالإنسانية أي يمتاز بها الإنسان عن غيره في التفكر والتدبر وأنها تاريخية وجدت حيث وجد الإنسان، وأنها عالمية اذ كل إنسان يتكلم بلغته الخاصة بمجتمعه ،ومن هنا لابد من التركيز على نقطة مهمة في الإجابة عن السؤال الآتي: ما وسيلة التخاطب في المجتمع العراقي؟ الإجابة تكون بالقطع هي اللغة العربية بغض النظر عن اللهجات المعتمدة في بيئات مختلفة - وإن كانت عربية في صياغتها إلا أنها

(١) سورة الكهف:٢٣-٢٤.

(٢) سورة يونس:١٠.

(٣) الثقافة والهوية، اشكالية المفاهيم والعلاقة ،أ. شهيب عادل:٦.

(٤) لمحات في الثقافة الاسلامية،عمر عودة الخطيب:٣٦ .

عامية في أدائها فهي لا ترتقي الى العربية الفصحى - لكننا نأخذ بنظر الاعتبار اللغة العربية الفصحى المعتمدة في المعاملات الرسمية ، وفي المحافل الأدبية ، وفي التربية ، وفي التعليم ،وفي العبادات فإنها تؤدى بالعربية الفصحى،وبعد أن تتضح الإجابة نقول في أي لغة نزل القرآن الكريم؟ قطعاً نزل باللغة العربية فقد قال تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١] ، بل أكثر من ذلك فقد تعهد القرآن الكريم في الحفاظ عليها فقد قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢]،وعليه فالمجتمع العراقي يملك عنصرا فعالا في الحفاظ على الثقافة الاسلامية ألا وهو لغة القرآن الكريم، وعلى المجتمع العراقي ألا يتأثر بالتيارات الثقافية المعاصرة والتي تحمل في طياتها محاربة عنصر من عناصر الهوية ألا وهو اللغة، ونجد أن هناك من تأثر بالثقافات المعاصرة – التي في بعضها- هدامة للهوية الاسلامية من طريق استعمال بعض المفردات اللغوية التي لاتمت العربية بصلة من مثل مصطلحات(أوكي- ثانكيو- باي- هاي- ماي- كود) وغيرها التي تنوب عنها في الاسلام التحية (السلام عليكم) والوداع (في أمان الله) و (الحمد لله) و(ان شاء الله)،وكلها الفاظ وردت في القرآن الكريم إذ قال تعالى:: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللّهُمّ وَتَحِيّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ...﴾[٣] ،وقال تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام...﴾[٤] ،وقال تعالى: ﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنّا منكم وجلون﴾[٥] ،وقال تعالى:﴿قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبّي إِنّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾[٦] ،وقال تعالى: ﴿..فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيّةً مّنْ عِندِ اللّهِ مُبَارَكَةً طَيّبَةً...﴾[٧] ،وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرّحْمنِ الّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾[٨] ، فضلاً عن ذلك نجد أن روايات أهل البيت (عليهم السلام) ، والسنة النبوية الشريفة تؤكد على ذلك فقد ورد عن أنس أنه قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يوماً: **يا أنس أسبغ الوضوء تمرّ على الصراط مرّ السحاب، أفش السلام يكثر خير بيتك، أكثر من صدقة السرّ فإنها تطفئ غضب الربّ عزّ وجلّ))**[٩]، وعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: **((من يضمن لي أربعة بأربعة أبيات في الجنة: من أنفق ولم يخف فقراً، وأنصف الناس من نفسه، وأفشى السلام في العالم، وترك المراء وإن كان محقاً))**[١٠]، وعن الصادق عن آبائه (عليهم السلام) أنه قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): **(إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها،**

---

(١) سورة يوسف:٢.

(٢) سورة الحجر:٩.

(٣) سورة يونس:١٠.

(٤) سورة هود:٦٩.

(٥) سورة الحجر:٥٢.

(٦) سورة مريم:٤٧.

(٧) سورة النور: ٦١.

(٨)سورة الفرقان: ٦٣.

(٩) الخصال، الشيخ الصدوق:٨٥.

(١٠) الخصال،الشيخ الصدوق:١٠٦.

يسكنها من أمّتي من أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلّى بالليل والناس نيام، ثم قال (صلّى الله عليه وآله): إفشاء السلام أن لا يبخل بالسلام على أحد من المسلمين))[١].

٢. **الدين** : يمثل عنصراً فعالاً في تكوين الهوية الثقافية في المجتمع،فقد ورد في القرآن الكريم أن الدين عند الله الإسلام فقال تعالى:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٢]، فقد جاء في تفسيرها إن الدين الذي ارتضاه الله لخلقه وأرسل به رسله، ولا يَقْبَل غيره هو الإسلام، الذي يفيد الانقياد لكل ما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) من العبادات الشرعية والاستسلام له وترك التكبر عليه فإذا قلنا :دين المؤمن هو الايمان ، وهو الاسلام ، فالإسلام هو الايمان[٣]، ويظهر أثره جلياً في الهوية الثقافية الإسلامية التي يمتلكها المجتمع العراقي قولاً وفعلاً، قولاً في ورودها بالنص القرآني ،وفعلاً في تجسيد مضامينها فقد بعث النبي(صلى الله عليه وآله) وهو عربي، وآل البيت(عليهم السلام) كلهم من نسله(صلى الله عليه وآله)، وبذلك تتجسد قوة هوية الثقافية الإسلامية التي يمتلكها الفرد العراقي الذي هو جزء من مجتمع أكبر في كيفية التعامل مع الآخر مهما كانت قوته الثقافية ، فقد تكون قوة الآخر مجرد مصطلحات تبعث على الاغترار والانجراف مع الآخر من غير التبصر والبصيرة في ما يقال ويقرأ ويسمع ، ولعل ما يشاع عند الآخر من الروايات التي لا سند لها فيجب الرد عليها بالاستناد إلى الأدلة القطعية التي لا تقبل الظن، وتمثل ثقافة الوحدة الإسلامية إحدى القيم الإسلامية الكبرى التي أنعم الله بها على هذه الأمة ،وعمقت في فكر المؤمن ووجدانه روح الاعتزاز بالإسلام،وشدة الحرص على دعوته ،والعمل على ما يقوي كيان المؤمنين بها،المنضوين تحت لوائها[٤]، كما جاء في قوله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٥].

٣. **الموروث الثقافي :** الذي يمثل عنصرا فعالا في تكوين هوية الثقافة الإسلامية في المجتمع العراقي فهو يملك من الموروث الثقافي مالا يملكه غيره لكونه قد ملك المحور الذي تدور عليه دائرة الثقافة الإسلامية المتمثل باللغة العربية فقد أصبح امتلاك العناصر الأخر أمرا هيناً المتمثل بالسنة النبوية الشريفة ،وروايات أهل البيت (عليهم السلام) وسيرتهم العطرة بالثقافة الإسلامية التي تتناول شتى صنوف المعارف والفنون والآداب فضلاً عن العبادات والمعاملات حتى في الجانب الطبي فهي لا تقتصر على جانب دون آخر ،ولعل الأطاريح والرسائل الجامعية التي تناولها الباحثون بالدراسة في الجامعات العراقية خير شاهد على ذلك خاصة بعد سقوط النظام الصدامي، ومن هنا يقف المجتمع العراقي أمام تراث ثقافي لا يملكه الآخر ،وعليه التمعن في سيرة أهل البيت (عليهم السلام) والاقتداء بهم في كيفية تنظيم الحياة

---

(١) أمالي الصدوق،الشيخ الصدوق:١٩٨.

(٢) سورة آل عمران:١٩.

(٣) ينظر: مجمع البيان،الطبرسي:٢/١٤٤ .

(٤) ينظر: لمحات في الثقافة الاسلامية،عمر عودة الخطيب:٤٠، وينظر: المسألة الاجتماعية بين الاسلام والنظم البشرية،،عمر عودة الخطيب :٢٠٦، في ظلال القرآن ،سيد قطب:٣٠/٥١ .

(٥) سورة آل عمران:١٠٣.

الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية فنجد أن الإمام علي (عليهم السلام) يقول: **((آلة الرياسة سعة الصدر))**[١]، فهو في أربع كلمات يحدد صفات القيادي الناجح التي ألفت عنه مئات المؤلفات التي لا تخرج في فحواها عن دائرة هذا القول فيما لو قمنا بدراسة مقارنة في مابينها، وليس القول بذلك من باب التعصب بل نجد أن الآخر قد شهد بذلك ولعل قصة زوج كوفي عنان بأن تطلب من زوجها أن يعلق عهد الإمام علي(عليهم السلام) الى مالك الأشتر(عليهم السلام) كوثيقة تعامل على لائحة الأمم المتحدة ،فقد وضحت أساليب التعامل مع الآخر في شتى صنوف الحياة، فأين قيادي المجتمع العراقي من هذه اللائحة القانونية التي لو اطلعوا عليها لولوا هاربين نتيجة مما يعانيه المجتمع من ويلات الارهاب التي جاء بها الآخر فهم بدلا من أن يقفوا مع المجتمع العراقي وأن ينزلوا الى ساحة الميدان نجدهم قد شغلوا مقاعدهم في البرمان في تشريع القوانين التي لا تصب في خدمة المواطن في أغلب بنودها بدلا أن يكونوا كما يقول الرسول (صلى الله عليه وآله): **((كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته))**[٢]،وقول الإمام علي (عليهم السلام): **((٠٠٠وأشعر قلبك الرحمة للرعية ،والمحبة لهم ٠٠٠،ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ،فإنهم صنفان،إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق))**[٣]،أي أجعلها كالشّعار له،وهو الثوب الملاصق للجسد، لأن الرعية ، إما أخوك في الدين ،أو إنسان مثلك تقتضي رقة الجنسية وطبع البشرية الرحمة له[٤].

٤. **الحصانة الفكرية :** من العناصر الفعالة في الحفاظ على هوية الثقافة الإسلامية في المجتمع العراقي، إذ إننا نعيش في عصر العولمة الثقافية،والغزو الثقافي المبرمج بشتى التيارات الفكرية وبأساليب جذابة في بعضها ،والتي تمكنت من الوصول إلى أقرب نقطة دالة على الفرد ألا وهي الأسرة ،أي أن الفرد أصبح في بيته ولا يستطيع الخلاص من ذلك، وهنا لابد أن يكون المجتمع العراقي -الشباب خاصة- على معرفة بموازين والمقاييس التي تميز بين الحق والباطل، وبين ما يرفضه الإسلام ، وما يقبله ، وعلى الفرد المسلم أن يكون له دور ايجابي فاعلاً في مجتمعه من طريق معرفته سنن الله في الكون، وفي المجتمعات، وفي الناس[٥] ، فقال تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[٦] ، فالثقافة الاسلامية تعطي الفرد الحصانة الفكرية في قبول الأفكار أو رفضها بالاستناد الى المعايير الاسلامية في مواجهة تلك الأفكار التي تدس السم في العسل في بعضها، ولعل ما يشهده المجتمع العراقي في الوقت الراهن من الدعوات التي تبدو في ظاهرها على حق لكن باطنها على باطل، وخداع ،وخراب ،ودمار للبلاد من قبيل أثارة النعرات الطائفية بين الشيعة، والسنة ،والمسيح وغيرها من المذاهب بحجة المساواة، وتحقيق

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد:١٢٤/١٧.

(٢) صحيح البخاري:٤٣٠/١ .

(٣) شرح نهج البلاغة،ابن ابي الحديد:٢٨/١٧.

(٤) شرح نهج البلاغة،ابن ابي الحديد:٢٨/١٧.

(٥) ينظر: الثقافة الاسلامية، د.مصطفى مسلم، د. فتحي محمد الزغبي:١٦ .

(٦) سورة التوبة:٧١.

العدالة الاجتماعية ، وعند التدبر الفكري الثقافي الاسلامي في أهدافها نجد عكس ما زمعت فقد أثارت الفتنة، والقتل اللذين تسببا في الهجرة ،والنزوح لأفراد المجتمع العراقي بدلا من الوحدة، والاستقرار، ولعل ما يفضح أصواتهم البراقة هو نزوح السنة من تدميرهم إلى مناطق الشيعة، ودفاع الشيعة عن أخوانهم السنة ،وتوجت وحدة الثقافة الإسلامية في المجتمع العراقي بفتوى الجهاد الكفائي التي قال بها السيد السيستاني(دام عزه) والتي على إثرها اشترك صنوف المجتمع، ومن مختلف المذاهب في التصدي للإرهاب الداعشي، وتحرير بعض المناطق،ومازالت فتوى الجهاد الكفائي مستمرة في جني ثمارها التي يشهد بها القريب ،والبعيد،والعدو، والصديق حتى على مستوى المحافل الدولية مما لا يخفى على أحد في مشارق الأرض ومغاربها.

٥. **التاريخ والحضارة:** يمثلان ركنين مهمين في الثقافة الإسلامية للمجتمع العراقي ، فقد مثلت حضارة وادي الرافدين إرثاً تاريخياً لا تخفى معالمه عن الآخرين ،وعلى الفرد أن يكون على معرفة بالتاريخ الإنساني، والحضارة البشرية ،وسنن الله تعالى في نشوئها وارتقائها أو انحدارها وزوالها والقيم التي تساعد في ذلك ،وقد أشار اليها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[١] ، ومن هنا يظهر دور الفرد والجماعة للقيام بالدور البناء في المجتمع الاسلامي، والمجتمع الانساني، فالميزان للتفاضل بين البشرية جمعاء هي التقوى من أعلى الطبقات وهي الشعوب الى أقلها وهي القبائل، فالأب آدم(عليه السلام) والأم حواء والله يعلم بالبواطن، لذا فأن الحضارة الإسلامية التي يمتلكها الشعب العراقي تستطيع حل كثير من المشكلات البشرية وايجاد العلاج الروحي ،والعقلي لها بدلاً من الاعتماد على الاجتهادات الشخصية القاصرة التي تتصارع فيه القوى المادية ، وشعر الناس بالخواء والعيش الضنك فتحققت فيهم سنة الله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[٢].

٦. **الوضع الاقتصادي:** لاشك أن الوضع الاقتصادي يؤثر سلباً أو ايجاباً على هوية الفرد في المجتمع،اذ إن الفرد لا يعيش في بودقة مغلقة عن المجتمع بل يتأثر بما يحيط به ومما ينعكس ذلك على ثقافته التي تمثل جزءاً من هويته، ولعل ما مر به المجتمع العراقي من ويلات الحصار الجائر قد أثرت على نفسية الفرد العراقي الذي تقلّص دوره على البحث عن لقمة العيش وأصبح همه الشاغل هو توفير قوته وقوت أهله،وبذلك ابتعد عن التلاقح الثقافي، والتطور الحضاري فضلا عن أثر ذلك على اخلاقيات بعض الأفراد الذين دفعتهم ظروف الحياة الى الطرق الملتوية التي على أثرها عدموا أو دخلوا السجون المؤبدة، وبعد الحصار جاء الانفتاح التدريجي للعيش الضنك بزوال النظام الصدامي،لكنهم فوجئوا- وبصراحة- بعودة الحصار الاقتصادي غير المبرمج ،وأعني بغير المبرمج هو عدم استيفاء عناصر البطاقة التموينية التي رسمها النظام السابق، وهنا بدأ تذمر الأفراد وانعكاس ذلك على ثقافتهم الشخصية في زوال النظرة الايجابية للقيادة الجديدة ، واحلال النظرة السلبية محلها، وانعكاس ذلك على هوية الفرد الثقافية في الرغبة بالتغيير حتى ولو كان غير صحيح وبعيداً

(١) سورة الحجرات:١٣.

(٢) سورة طه:١٢٤.

عن تعاليم الإسلام في نظرهم،الا أنهم لم يقفوا في نظرهم السطحي على المسبب وليس السبب، فالسبب ليس الإسلام أو الثقافة الإسلامية،وإنما العلة في المسبب الذي تولى القيادة وعكس النظرة السلبية لدى المواطن العراقي الذي نسى بدوره تعاليم الشريعة الإسلامية التي نظمت الحياة الاقتصادية في شتى صورها حتى في مجال التبذير والإسراف والبخل فقال ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾[١] ،وقال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾[٢] ، وقوله (صلى الله عليه وآله): **((ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعانا و جاره جائع إلى جنبه))**[٣]، وقال الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) : أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية وقال- صلى الله عليه وآله وسلم: **((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))**[٤]، يعني قوله تعالى:﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[٥].

٧. **الموقع الجغرافي:** من مقومات هوية الفرد الأساسية اذ يمثل الموقع الجغرافي المكان الذي يعيش عليه الفرد مع أفراد المجتمع والذي يطلق عليه الدولة، فالموقع الجغرافي له انعكاس على ثقافة الفرد والمجتمع لاسيما إن كان الموقع الجغرافي قد أحيط بدولة اسلامية أو غير اسلامية، فهي تمثل التماس المباشر بين أفراد الدولتين المتجاورتين في اللغة –اعني اللهجة- وليس اللغة الأم والعادات والتقاليد، ومما أنعم الله به تعالى على المجتمع العراقي أنه قد أحيط بدول عربية فهي تتفق معه في اللغة وفي التقاليد والمعتقدات عند بعض صنوف المجتمعات المجاورة من مثل سوريا، والأردن، والسعودية، والكويت، ، وبدولة غير عربية – اعني الجمهورية الاسلامية الايرانية- المعروفة باسلامها، والدولة التركية ،وبذلك جمع الموقع الجغرافي بين الثقافة العربية الإسلامية فضلا عن الموقع التجاري والاقتصادي -الذي أتركه لذوي الاختصاص في التناول والدراسة – إلا أن الأمر المهم في ذلك هو الثقافة الإسلامية التي يمتلكها المجتمع العراقي، والتي يستطيع من طريقها مواجهة التيارات الفكرية الضالة التي لا تستند إلى ما يستند إليه الفرد العراقي ،فيستطيع كل فرد أن يكون داعية في ثقافته الإسلامية في أثناء تطبيقها قولا وفعلا بدلا من الانسياق وراء الثقافات الأخر بحجة الثقافة والتطور،بل يجب التفكر ،والتدبر في مايقال ويشاع،وقد أشار القرآن الكريم الى الإعلام الصادق وعدم تصديق الدعاية والشائعات إذ قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[٦] ،يلحظ الآية الكريمة قد افتتحت بالنداء (ياأيها الذين آمنوا) ، الذي يركز على عنصر الإيمان من دون غيره، والذي يفيد شد انتباه المخاطب الى ما يقال ثم تلته جملة الشرط التركيبية التي تفيد هي الأخرى في جعل المخاطب في انتظار النتيجة الثانية التي تمثل جواب الشرط (إصابة القوم بجهالة وما يترتب عليها من الندم) الذي يترتب على العلة في الجزء الأول التي تمثل (فعل الشرط) الذي يمثل

(١) سورة الاسراء:٢٩.

(٢) سورة الاسراء:٢٧.

(٣) المستدرك، الحاكم النيسابوري: ١٥/٢.

(٤) كنز العمال،المتقي الهندي:٣٣/٣.

(٥) سورة الأعراف:١٩٩.

(٦) سورة الحجرات:٦.

خبر الفاسق وجاء في تفسير الآية نادمين ((على العجلة وترك التأني))[١]، كما أن في قوله تعالى(إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ) الدلالة على الشياع والشمول،لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط عمّت[٢]، وهنا يجب عدم الانصياع للإعلام الكاذب الخادع الهدام للفكر الثقافي المسلم ،وهذه الظاهرة كثيراً ما يعاني منها المجتمع في الوقت الحاضر وذلك بسبب وسائل الاتصال المتنوعة والسريعة الوصول بل –استطيع تسميته بالخرق- إلى كل بيت بل الى كلّ نافذة عقلية ،وهنا يظهر دور الثقافة الإسلامية فإن كان الفكر الذاتي للفرد متطوراً وقادرا على التدبر والتفكر في ما يسمع ،و ما يقال يمكنه عندئذ حماية نفسه والسير بالطريق الصحيح الذي يقوم على المحاججة ،والرد المستند الى الدليل القاطع ،وعدم الانجراف وراء الإشاعات المغرضة.

٨. **التفاعل الثقافي:** يمثل عنصرا مهماً في صقل هوية الفرد ،فامتلاك الفرد الثقافة الإسلامية لا يعني الانطواء والانعزال عن الآخر بل يجب الاطلاع على ثقافة الآخر من العلوم، والمعارف ،والتطور التكنولوجي، والإفادة من جوهر الثقافات الأخرى وعدم التمسك بالقشور من الزي ،وتسريحة الشعر، وبعض المسميات التي لا تجدي النفع بل الضر، فقد قال تعالى:﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٣] ،وجاء في تفسيره : يستمعون القول الحق من كتاب الله ،وسنة رسوله، فيتبعون أحسنه أي محكمه ويعملون به، إذ قال السدي: يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيعملون بما فيه، وقيل هو الرجل يسمع الحسن ،والقبيح فيتحدث بالحسن ،و ينكف عن القبيح فلا يتحدث به ،وقيل يستمعون القرآن[٤]،وقيل : إن أحسن القول على من جعل الآية فيمن وحد الله قبل الإسلام (لا إله إ لا الله) وقال عبد الرحمن بن زيد : نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل و أبي ذر الغفاري و سلمان الفارسي اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها في جاهليتهم واتبعوا أحسن ما صار من القول إليهم،وهداهم الله ، فهم الذين انتفعوا بعقولهم[٥]، وهنا يجب الاحتكام إلى القرآن الكريم ،والسنة النبوية الشريفة ،وروايات أهل البيت(عليهم السلام) في ما يسمع وما يقال والذي يشكل في بعضه خطراً على الفكر الثقافي للفرد والمجتمع ، فالفكر الإنساني المستند في محاججة الآخر ومناظراته إلى القرآن ،والسنة النبوية الشريفة ،وروايات أهل البيت(عليهم السلام) يستطيع أن يفحم الآخر ويجبره في بعض الأحيان على العدول عن الفكر الضال المنحرف إلى الفكر الحق السليم،لاسيما أن بعض أفكار الآخر قد شوهتها هي الأخرى مصادر متعددة قد يكون منبعها الحقد، والكراهية ،والإعلام المغالط الذي يغوي الآخر، ويهوي به من حيث لا يعلم إلى مستنقع لا يدري هو نفسه كيف وصل إليه، وهنا يظهر دور الفكر الثقافي المستند إلى المصادر المذكورة في إنارة فكر الآخر وإنقاذ الأفكار الأخرى في كشف الغطاء أمام الآخر،ولعل حكايات المستبصرين وقصصهم تحكي لنا كثيراً من الحكايات والروايات التي تقال على ألسنتهم بأنهم أين كانوا؟ واليوم كيف أصبحوا؟ حتى أن بعضهم دونوا كتبهم التي تثبت استبصارهم، ولعل كتاب التيجاني (ثم اهتديت) خير مثالٍ على ذلك،

---

(١) تفسير القرطبي:١٦/٢٦٤.

(٢) اعراب القرآن الكريم وبيانه،محيي الدين الدرويش:٧/٢٤٨.

(٣) سورة الزمر:١٨.

(٤) ينظر:فتح القدير،الشوكاني: ٤/٦٤٩.

(٥) تفسير القرطبي:١٥/٢١٤.

وكل ذلك يعود إلى الفكر الثقافي المؤمن بتعاليم الدين السماوية التي فيها صلاح الدنيا وثواب الآخرة.

٩. **الثقافة الإسلامية :** وأثرها في التدبير العسكري منه قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾[١] ، فقد افتتحت الآية الكريمة بفعل الأمر الذي يدل على الوجوب (وأعدوا) أي أعدوا لهم القسي التي ترمون بها الأعداء ، والخيل التي تخيفون بها العدو فقد جاء في تفسيرها ((أمر الله - سبحانه - المؤمنين بإعداد القوة للأعداء قال ابن عباس : القوة ههنا السلاح والقسي وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه (وآله)وسلم وهو على المنبر يقول :وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي))[٢] ، فهذا نوع من المطالبة بإعداد القوى العسكرية في مجابهة العدو بما يناسب الموقف ((ما دام (الجهاد) يتطلب قوى تقف حيال العدو المرتكن نفسه إلى قوى يعتمدها ،كذلك، فإن الإسلاميين يتعين عليهم إعداد أنفسهم عسكرياً بنحو يتناسب مع متطلبات المعركة))[٣]، وقد ظهرت آثار ذلك في المجتمع العراقي بالحشد الشعبي الذي لبّى فتوى الجهاد الكفائي التي اطلقتها المرجعية الدينية في النجف الأشرف المتمثلة بالسيد علي السيستاني(دام ظله الوارف)، والتي أظهرت وحدة الصف في المجتمع العراقي ، وترجمت أخلاقهم الاسلامية في التعاون والتآزر بين مختلف الطوائف في المجتمع من السنة ،والشيعة ، والتركمان، والمسيحيين وغيرهم ، وكيف تناقلت وسائل الإعلام صور بطولاتهم ليس الجهادية فحسب بل حتى تعاملهم مع العوائل النازحة من المناطق التي تسللت لها يد الإرهاب الكافر.

١٠. **الثقافة الإسلامية :** وأثرها في التنظيم الأسري الناجح والتي تنعكس ايجابياً على هوية الفرد في المجتمع العراقي، وتمثل التنظيم بالعلاقات الأسرية الذي تتجسد بالإحسان إلى الوالدين اللذين يمثلان المحور الرئيس في الأسرة بقوله تعالى :﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[٤] ، فقد افتتحت الآية الكريمة بالفعل المضعف (ووصّينا) الذي يدل على التكثير والمسند إلى ضمير المتكلم (نا) الذي يدل على التعظيم في إسناد المتكلم إلى جمع والمتكلم مفرد وهو الله جل وعلا ،إذ جاء في تفسيرها((ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا برا بهما لما كان منهما إليه حملا ووليدا ،و ناشئا ،ثم وصف جل ثناؤه ما لديه من نعمة أمه، و ما لقت منه في حال حمله ،ووضعه، ونبهه على الواجب لها عليه من البر، و استحقاقها عليه من الكرامة، و جميل الصحبة))[١]، وقد جاء قوله تعالى (حسناً) على

---

(١) سورة الأنفال:٦٠ .

(٢) ينظر:تفسير القرطبي:٣٦/٨.

(٣) التفسير البنائي للقرآن الكريم،د.محمود البستاني:١١٥/٢.

(٤) الأحقاف:١٥.

(١) تفسير الطبري:٢٨٣/١١.

قراءتين (إحساناً) بانتصابه على المصدر،أي ليأت الإحسان إليهما دون الإساءة، ومن قرأ (حسناً)فمعناه ليأت في أمرهما فعلاً حسناً[١] ، إذ تمثل الأسرة النواة الأولى للفرد فمعها يعقد اللقاء الأول منذ الولادة وحتى التنشئة ،وهنا يظهر دور الأسرة في تحقيق الثقافة الاسلامية للفرد من طريق العلاقة المتبادلة بين الفرد والأسرة ،وتبدأ من الوالدين اللذين لهما حقوق على الأبناء، وللأبناء واجبات،فإن كانت متنورة بقوانين الشريعة الإسلامية في معاملة الإحسان الذي يدل على الإطلاق أي كثير الإحسان وقليله ، فقد تثمر فكراً ثقافياً يكون على درجة قصوى من الأمن الثقافي إذ لا يتأثر بما يشاع اليوم من أن حرية الفرد تتجسد في انفصاله عن عائلته واستقلاله في تصرفه سواء أكان ذكراً أم أنثى في أي عُمر ما، مما يشكل خطراً كبيراً على الأمن الثقافي للفرد، والأسرة والمجتمع، وهذا ما يلحظ أثره في المجتمعات الغربية التي تفتقر إلى الأسرة المتكاملة التي تقوم على العلاقات الأسرية التي نظمتها الثقافة الإسلامية، إذ نجد أن الفرد ينفصل عن أسرته في سن مبكر سواء كان ذكراً أم أنثى،وهذا ما يؤثر سلباً على حياته في ما بعد،لأنه بعد عن المنبع الثقافي الأول الذي ترعرع به ألا وهو الأسرة التي تمثل عنصر الأمان للفرد لاسيما في أدوار حياته المختلفة.

١١. **الثقافة الإسلامية :** في ظل الحوار الناجح الذي يقوم على الحجاج بالحكمة والموعظة الحسنة في قوله تعالى﴿ **ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[٢] ، وقد فسرت الحكمة بالقرآن لأنه يتضمن الأمر بالحسن،والنهي عن القبيح ،وقيل أن الحكمة هي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن والقبيح،والصلاح والفساد، وقيل :إن الحكمة هي النبوة،والموعظة الحسنة مواعظ القرآن عن ابن عباس[٣] ، فقد أمر الله سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام بالحكمة، والموعظة الحسنة، وهما طريقان من طرق المجادلة الحسنة ،هذا إن كان الخصم محقاً وكانت أفكاره صحيحة ، وأحياناً يكون الخصم عدوا لدوداً فيحتاج إلى طرق المجادلة الأخرى من استعمال المعارضة والمناقضة ، ((ولهذا قال سبحانه : ((وجادلهم بالتي هي أحسن)) أي بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقا وغرضه صحيحا وكان خصمه مبطلا وغرضه فاسد))[٤] ، وأنّ الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله (صلى الله عليه وآله) في الفريقين بما فيه الصلاح،لأن الجدل هو قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج[٥]، وعليه فأن الفرد العراقي الذي يتحلى بالثقافة الإسلامية يكون على مستوى عالٍ من الحصانة الفكرية الثقافية التي تصقل شخصيته الثقافية ،والتي تنعكس ايجابياً على هوية المجتمع العراقي.

١٢. **الثقافة الإسلامية الفكرية :** في الاعتماد على المجادلة والحوار حتى مع الآخر في قوله تعالى﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا**

---

(١) ينظر:مجمع البيان ،الطبرسي:٩/٧٦.

(٢) **سورة النحل: ١٢٥**.

(٣) ينظر:مجمع البيان،الطبرسي:٦/١١٥.

(٤) فتح القدير،الشوكاني:٣/٢٩١.

(٥) ينظر:مجمع البيان،الطبرسي:٦/١١٥.

﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١] ، وهنا تبيّن الآية الكريمة المجادلة مع الآخر من أهل الكتاب(اليهود والنصارى)، إذ إن المجادلة مصدر على صيغة (المفاعلة) مشتق من الفعل(جادل) الذي يدل على المشاركة وتعني المجادلة ((إقامة الدليل على رأي اختلف فيه صاحبه مع غيره وتعرض في أوقات السلم وأوقات القتال))[٢]، وقد ورد في الآية الكريمة بأسلوب يقوم على النهي (ولا تجادلوا) والاستثناء (إلا بالتي هي أحسن))،وهنا يستوقفنا التركيب البنائي لجملة الاستثناء ،فالمستثنى منه محذوف دل عليه المستثنى تقديره ((: لا تجادلوهم بجدال إلا بجدال بالتي هي أحسن، ثم نجد أن اسم التفضيل(أحسن) قد خرج من دلالة التفضيل لقصد المبالغة في الحسن أي إلا بالمجادلة الحسنى[٣]،والأحسن : ((الأعلى في الحسن من جهة قبول العقل له ،وقد يكون أعلى في الحسن من جهة قبول الطبع،وقد يكون في الأمرين جميعاً،وفي هذا دلالة على وجوب الدعاء إلى الله تعالى في أحسن الوجوه وألطفها،واستعمال القول الجميل في التنبيه على آيات الله وحججه))[٤]،وهنا لابد لأفراد المجتمع العراقي من التحلي بمضامين الثقافة الإسلامية في ميادين الحياة المختلفة ،مما يعكس آثارها الايجابية في الحفاظ على الهوية التي تجسد الثقافة الإسلامية أحد عناصرها الفعالة في المجتمع لاسيما ما يشهده من حرب العولمة الثقافية التي تجمع بين الهدم والبناء، الأول منها يتمثل بالتأثر السلبي بالأفكار الثقافية التي تناقض التعاليم الاسلامية، في حين يمثل الثاني التأثر الايجابي بالتطور الثقافي من طريق استثمار التطور العلمي، والتكنولوجي، والسعي الى الوقوف على منابع هذا التطور والعمل على شاكلته مما يجدي بالنفع الاجتماعي والاقتصادي للفرد والمجتمع، على أن لا يفهم الفرد هذه المهمة فهماً خاطئاً ويجعل من الغرب قدوته أو ضالته التي يبحث عنها ،بل يجب التفكر والتدبر في معرفة الأسباب التي أبدع فيها الآخر،ومن ثم نقف على السلبيات التي جعلت من المجتمع مقصراً في الوصول الى ماآل اليه الآخر من الابداع ،والتطور،والتقدم العلمي ،والتكنولوجي.

(١) سورة العنكبوت:٤٦.

(٢) التحرير والتنوير،ابن عاشور:١/٣٢٠٤.

(٣) ينظر:التحرير والتنوير،ابن عاشور:١/٣٢٠٤.

(٤) مجمع البيان الطبرسي:٨/١٩.

النتائج وخاتمة البحث

١. إن الثقافة القرآنية تمثل عنصراً فعالاً في الهوية الثقافية في المجتمع العراقي على أن تكون تلك الثقافة ثقافة تطبيق لا ثقافة تنظير تعتمد على المنطوق والمكتوب، بل يجب تفعيل النص القرآني في شتى مجالات الحياة في الحوار، وفي المعاملة التي تعتمد على الصدق، والأمانة ،والإخلاص وتجنب الكذب والخيانة، والنميمة وعدم تصديق الشائعات التي تطلق هنا وهناك فالإمام علي (عليه السلام) يقول بين الحق والباطل أربعة أصابع أي الفرق بين ما يصدق من طريق السماع الكاذب ،وبين مايرى ويسمع ،ولعل سقوط الموصل خير دليل على ذلك بناءً على ماتناقلته الروايات من أن بعض الضباط أشاعوا ذلك فصدق الجند وتركوا اسلحتهم ومواقعهم وحدث ماحدث،وأن تكون مخافة الله تعالى هي رأس الحكمة –كما قال الامام علي (عليه السلام) في أي فعل يقدم عليه البشر ،وهذا ما يوفر الحصانة للأمن الثقافي الفكري.

٢. اتقان اللغة العربية الفصحى وجعلها وسيلة التخاطب بين أفراد المجتمع ،المثقفين خاصة منهم الطلبة ، والمعلمين ،والتدريسيين، والجامعيين فهم النواة والقدوة التي يقتدي بها الآخر ويقلدها.

٣. أن يكون الهدف من الحفاظ على اللغة العربية الفصيحة الخطوة الأولى لإتقان لغة القرآن الكريم الذي يمثل قمة الهرم في الحفاظ على هوية الثقافة الإسلامية في المجتمع العراقي.

٤. اتقان لغة القرآن الكريم التي تمثل محور الثقافة الاسلامية فقد انزل الله تعالى القرآن بلغة العرب وتوعد بحفظها فقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1] ،ومن هنا يظهر الاعجاز الالهي في الحفاظ على اللغة العربية وبيان أهميتها وفضلها على حساب اللغات الأخرى.

٥. ضرورة تدريس اللغة العربية الفصحى التي تستند في تطبيقها الى النصوص القرآنية ، والسنة النبوية الشريفة في المراحل الدراسية المختلفة،مما يمكن الطالب من الجمع بين الثقافة والمعرفة في آن واحد.

٦. إن الإلمام باللغة العربية الفصحى ،لا يعني الانزواء عن الآخر ،بل يعني الاهتمام بهوية الفرد الشخصية ،ومن ثم الاطلاع على الآخر.

٧. تدريب الطلبة على التفاهم فيما بينهم وبين التدريسيين باللغة العربية الفصحى قدر المستطاع.

٨. الإعلام الثقافي الإسلامي الواعي الذي يركز على البرامج الفصيحة ،وعدم الاعتماد على اللهجات العامية بحجة سرعة ايصال المعلومات الى الآخر بالسرعة الممكنة.

٩. إن الهوية الثقافية تكوّن مزيجاً من اللغة ، والدين، و التاريخ ، و ثقافة المجتمع ، وهذا معناه أن الهوية يكون لها خصوصيتها المستمدة من ثقافة المجتمع وتصقلها تاريخه ، وحضارته.

١٠. أنه لا يوجد تعارض بين وجود هوية لكل مجتمع وبين التفاعل مع متغيرات العصر .

١١. إن من مظاهر ضعف الهوية عندما يؤدي الإعجاب، بالعلم ،والتقدم إلي الإعجاب بمن أبدعوه، فيسيرون وراءهم ويتبعون خصوصياتهم الثقافية ،ومن هنا لابد من الالمام بمكونات الثقافة الإسلامية.

---

(١) سورة الحجر: ٩.

المصادر والمراجع

- إعراب القرآن الكريم وبيانه:محيي الدين الدرويش،ط٢،مط.سليمان زادة.
- أمالي الصدوق:أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(ت٣٨١هـ)، تحقيق:قسم الدراسات الاسلامية،ط١،مؤسسة البعثة،طهران،١٤١٧هـ.
- البرهان في تفسير القرآن: السيد هاشم الحسيني البحراني(ت ١١٠٧هـ)،تحقيق:قسم الدراسات الإسلامية،مؤسسة البعثة،قم
- تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، ط٢، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٧م.
- التحرير والتنوير: للأستاذ الشيخ محمد طاهر بن عاشور ،ط١،مطعيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م.
- التعريفات : علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق : إبراهيم الأبياري،ط١،الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت ، ١٤٠٥هـ.
- التفسير البنائي للقرآن الكريم:الدكتور:محمود البستاني،ط١،مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية المقدسة،١٤٢٤ق/١٣٨٢ش.
- التوقيف على مهمات التعاريف : محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق : د. محمد رضوان الداية،ط١،الناشر : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر - بيروت ، دمشق، ١٤١٠هـ.
- الثقافة الإسلامية تعريفها،مصادرها،مجالاتها،تحدياتها:د.مصطفى مسلم،د.فتحي محمد الزغبي،مكتبة الجامعة،إثراء للنشر والتوزيع.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن: ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمود شاكر، ط١، الناشر: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠، ٢٠٠٠م.
- الجامع لاحكام القرآن: ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي (ت٦٧١ه)، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
- الخصال: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي(ت٣٨١ه)،،صححه وعلق عليه:علي أكبر غفاري،منشورات قم المقدسة.
- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني:حققه وشرحه:صلاح الدين الهادي،دار المعارف،القاهرة،مصر.
- ديوان الفرزدق: تقديم: كرم البستاني، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.
- سوشيولوجيا الثقافة والهوية:هارلمبس وهولبورن،ترجمة:حاتم حميد محسن
- شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد (ت٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.
- صحيح البخاري: محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله(ت٢٥٦هـ)،تح:د.محمد محمد تامر،دار الآفاق العربية،القاهرة،٢٠٠٩م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني،تحقيق:عبد الرحمن عميرة،دار الوفاء.

- لسان العرب: ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري (ت٧١١ه)، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب،ومحمد الصادق العبيديّ ،دار صادر – بيروت، لبنان، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨.
- لمحات في الثقافة الاسلامية:عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا،ط١،دار الكتب العلمية - بيروت ، ١٤١١ – ١٩٩٠.
- مجمع البيان في تفسير القرآن:لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي(٢٤٨ ه)،ط١،مؤسسة التراث العربي ،بيروت- لبنان، ١٤٢٦ ه -٢٠٠٨م.
- مقال في الانترنت،هاني نسيرة،أرشيف اسلام أون لاين ISLAM ONLIN.